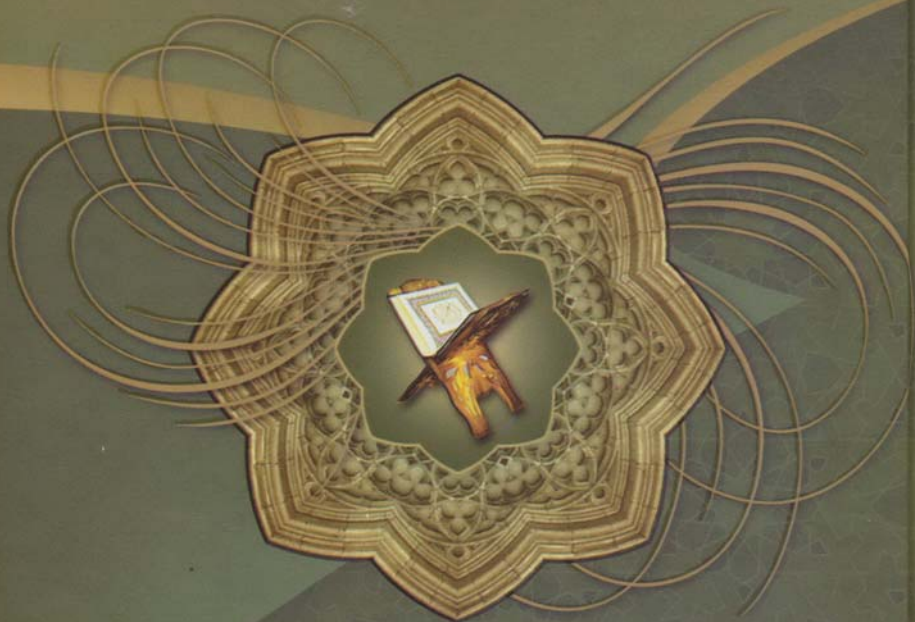


Twitter: @afmosahm
20.8.2013

دراسات في القرآن وتفسيره



أ.د. بدر بن ناصر البدر

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه - كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الطبعة الأولى

دار الصحف للنشر والتوزيع

دراسات في القرآن وتفسيره

الجزء الأول

أ.د. بدر بن ناصر البدر

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه - كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار احضارة للنشر والتوزيع



ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البدن، بدر ناصر

دراسات في القرآن وتفسيره (الجزء الأول) / بدر ناصر البدن - الرياض ١٤٣١هـ

ص ٠٠؛ سم ٠٠٤

ردمك: ٩- ٨٩٠ - ٥١ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١- الوقف ٢- القرآن - مباحث عامة ١- العنوان

ديوي ٢٥٣.٩٠٢ ١٤٣١/٩٥٣٧

رقم الإيداع: ١٤٣١/٩٥٣٧هـ

ردمك: ٩- ٨٩٠ - ٥١ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

حقوق الطبعة محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤٩٦٥٥٥ - ٢٧٨٧٣٣٣ فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤

المستودع تلفون: ٢٤١٦١٣٩ فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨



المقدمة

الحمد لله رب العالمين إله الأولين والآخرين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد الأمين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

فإن العيش في رحاب كلام الله تبارك وتعالى القرآن الكريم والقيام على خدمته والعناية به فضلٌ من الله ورحمة، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١)، ومن ذلك الدراسات القرآنية التي تتناول موضوعاً من موضوعاته أو تبرز جانباً من جوانب إعجازه أو تقوم بتفسيره وتقريب معانيه، وتعين على تدبره والوقوف على هداياته ودلالاته وغير ذلك.

وقد كان لي جملة بحوث محكمة في مجلات متنوعة، قد لا يقف القارئ والباحث عليها، فأحببت تقريبها مجموعة في هذا الكتاب: «دراسات في القرآن وتفسيره» وقد تضمنت البحوث الآتية:

- ١- الوقف على القرآن الكريم.
- ٢- نداء الله نبيه الكريم في أي الذكر الحكيم.
- ٣- تأثر أبي حيان بالفخر الرازي واعتراضاته عليه.

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.



٤- الباء واللام معانيها ودلالاتها في القرآن الكريم.

وستتبعها بإذن الله تعالى بحوث أخرى مجموعة في هذه السلسلة المباركة، خدمة لكتاب الله عز وجل ومشاركة في العناية به وتعاوناً على دراسته وتفسيره.

علّ الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من أهله في الدنيا والآخرة، وأن يجعله شفيعاً لنا يوم نلقاه وأن يبوئنا به الفردوس الأعلى من الجنة .. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف



الوقف على القرآن^(١)

(١) بحث محكم منشور في مجلة البحوث الإسلامية الصادرة عن رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، العدد: السابع والسبعون.



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونَنَّ إِلَّا وَآنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (١)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَجَدَ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً ءَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ءَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ ءَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ (٣).

أما بعد:

فإن أعظم نعمة يمن الله بها على عبده هي نعمة الإسلام والإيمان، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَن هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (٤)، هذا الدين العظيم الذي حوى كل خير واشتمل على كل ما يصلح

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

أحوال البشر في صغير الأمور وكبيرها، وحرَم عليهم ما يعود عليهم بالسوء والضرر في العاجل والآجل، وجعل شريعته كاملة صالحة لكل زمان ومكان، مصلحة لأحوال الأفراد والمجتمعات، تدعو إلى الصلاح والاستقامة والعدل، وتنبذ الشرك والشر والظلم والجور والغدر.

لقد أبان رسولنا - عليه الصلاة والسلام - ما نزل عليه من ربه بياناً كاملاً شاملاً، تركنا على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فهو المنة المسداة والرحمة المهداة، يقول تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧٤﴾ ^(١) ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ^(٢) .

وقد حفظ الله تعالى كتابه وصانه، وهياً له من الأسباب ما كفل له انتشاره وتعلق القلوب به، واحترامه وتوقيره وتعظيمه، قال عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ^(٣) ، والبشرية اليوم أحوج ما تكون إلى نوره وهديه، لتسعد في الدنيا والآخرة.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٩.



ومن الأسباب المعينة على أداء هذه الرسالة والقيام بهذه الأمانة إقامة الأوقاف في خدمة القرآن الكريم، تلاوة وحفظاً، تعلماً وتعليماً، تأملاً في هداياته ونظراً في دلالاته، فقهاً بأحكامه وعلماً بمسائله، عملاً به وتحاكماً إليه، سيراً على نهجه والتزاماً بهديه.

وهذا ما أحببت الكتابة عنه في هذا الكتاب «الوقف على القرآن»، وذلك من خلال الخطة التالية:

- المقدمة.
- المبحث الأول: تعريف الوقف لغة واصطلاحاً.
- المبحث الثاني: أهمية الوقف وأدلة مشروعيته.
- المبحث الثالث: أركان الوقف وشروطه.
- المبحث الرابع: أنواع الوقف.
- المبحث الخامس: الطرق والأساليب الداعمة للوقف.
- المبحث السادس: حاجة البشرية إلى نور القرآن وهدايته.
- المبحث السابع: مشروعية الوقف في خدمة القرآن.
- المبحث الثامن: مقاصد الواقفين على القرآن، وفيه مطالب:
 - المطلب الأول: الوقف على المدارس القرآنية.
 - المطلب الثاني: الوقف على القراء.
 - المطلب الثالث: الوقف على تعليم القرآن وتحفيظه.
 - الخاتمة.
 - ثبت المصادر والمراجع.



وقد سرت في كتابته حسب المنهج التالي:

- عزوت الآيات إلى سورها، ذكراً اسم السورة ورقم الآية.
 - خرّجت الأحاديث، مكثفياً بالصحيحين أو بأحدهما إن كان الحديث فيهما، فإن لم يكن خرّجته باختصار من غيرهما.
 - لم أترجم للأعلام الوارد ذكرهم في البحث؛ خشية الإطالة.
 - عزوت الأقوال إلى أصحابها، ووثقتها من كتب أصحابها، فإن لم أستطع وثقتها من المصادر والمراجع الأخرى.
- ويكل حال فإنني لا أدعي الإحاطة بكتابتي في هذا الموضوع ولا شمول البحث فيه؛ لما يعتريني من النقص والقصور، ثم لتشعب الموضوع وسعته.
- أسأله تعالى أن يمنحنا الفقه في الدين واتباع سنة سيد الأولين والآخرين - عليه الصلاة والسلام - كما أسأله عز وجل أن يجزي المشايخ القائمين على أمر هذا الدين خير الجزاء، وأن يوفقهم لكل خير .. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف



المبحث الأول:

تعريف الوقف لغة واصطلاحاً

الوقف في اللغة: بمعنى الحبس والمنع، يقال: حبست أحبس حبساً وأحباساً - أي وقفت. والاسم الحبس بالضم. وكان الوقف أول عهده يسمى صدقة وحبساً وحبيساً.

ويقال: وقفت الدابة إذا حبستها على مكانها، ثم حدث اسم الوقف وفشا، ولا تزال الأوقاف إلى اليوم في بلاد المغرب تسمى أحباساً. وفي حديث وقف عمر: «إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها»، وفي حديث الزكاة: «إن خالداً جعل رقيقه وأعتدته حبساً في سبيل الله»، أي وقفاً على المجاهدين وغيرهم.

وفي حديث ابن عباس: لما نزلت آية الفرائض قال النبي ﷺ: «لا حبس بعد سورة النساء»، أي: لا يوقف مال ولا يزوى عن وارثه، إشارة إلى ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من حبس مال الميت ونسائه^(١).

أما في الاصطلاح فقد اختلف الفقهاء في تعريف الوقف اختلافاً كثيراً تبعاً لاختلافهم في تحديد طبيعة الوقف ولزومه أو عدم لزومه

(١) ينظر: تهذيب اللغة: ٢٣٣/٩، الصحاح ١٠٨٩/٢، لسان العرب ٣٥٩/٩.



ونحو ذلك، وأقرب هذه التعاريف عندي أنه: «تحبيس مالك مطلق التصرف ماله المنتفع به مع بقاء عينه، وقطع تصرف الواقف في رقبة العين، يصرف ريعه إلى جهة بر تقريباً إلى الله تعالى»^(١).



(١) ينظر: المغني ١٤٨/٨، والإنصاف ٣/٧.



المبحث الثاني:

أهمية الوقف وأدلة مشروعيته

الوقف جائز ومشروع بنصوص عامة من القرآن الكريم وأخرى مفصلة من السنة. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿لَنْ نَسْأَلَكُمْ آلِهًا حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا يُحِبُّونَ﴾^(٢)، ولما سمعها أبو طلحة - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ نَسْأَلَكُمْ آلِهًا حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا يُحِبُّونَ﴾، وإن أحب أموالي إليّ (بيرحاء) وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها حيث أراك الله، فقال: «بخ ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»^(٣).

ومن السنة ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الوصايا باب إذا وقف أرضاً ولم يبين الحدود فهو جائز ١٠١٩/٣ برقم: ٢٦١٧، ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين ٦٩٣/٢، برقم: ٩٩٨.

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته: ١٢٥٥/٣، برقم: ١٦٣١.



والصدقة الجارية محمولة على الوقف عند العلماء، فإن غيره من الصدقات ليست جارية، بل يملك المتصدق عليه أعيانها ومنافعها.

وحدث وقف عمر بن الخطاب، فقد روى ابن عمر - رضي الله عنهما - أن عمر أصاب أرضاً من أرض خيبر، فقال يا رسول الله: أصبت مالاً بخيبر لم أصب قط مالاً أنفس منه، فما تأمرني، فقال: «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها»، قال: فتصدق بها عمر على الأتباع ولا توهب ولا تورث، في الفقراء وذوي القربى والرقاب والضيف وابن السبيل، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم غير متمول .. رواه الجماعة ^(١). قال الحافظ ابن حجر: (وحدث عمر هذا أصل في مشروعية الوقف) ^(٢).

وعن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة، فقال: «من يشتري بئر رومة فيجعل منها دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة»، فاشتريتها من صلب مالي ^(٣).

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الشروط باب الشروط في الوقف ٤/١٠١٩، برقم ٢٦٢٠، ومسلم في صحيحه كتاب الوصية باب الوقف ٣/١٢٥٥، برقم: ١٦٣٢.

(٢) فتح الباري: ٤٠٢/٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الوصايا باب إذا أوقف أرضاً أو بشراً واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين ٣/١٠٢١، برقم: ٢٦٢٦.



ومن الأدلة العملية ما رواه عمرو بن الحارث قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهماً، ولا ديناراً، ولا عبداً ولا أمة، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة^(١).

قال ابن حجر - رحمه الله: (إن تصدق بمنفعة الأرض صار حكمها حكم الوقف)^(٢).

وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - أن النبي ﷺ أوقف أموالاً متعددة من أراض ومزارع مما أفاء الله عليه^(٣).

وبعد ذلك تتابع الصحابة - رضوان الله عليهم - في الوقف حتى إن جابراً - رضي الله عنه - قال: لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف^(٤)، وهذا إجماع منهم، فإن الذي قدر منهم على الوقف وقف، واشتهر ذلك فلم ينكره أحد فكان إجماعاً.

ونظام الوقف باعتباره نظاماً خيراً موجود منذ القدم بصور شتى، إلا أنه من المؤكد أن نظام الوقف في الإسلام بشكله الحالي يبقى خصوصية إسلامية لا يمكن مقارنتها بصور البر في الحضارات أو الشعوب الأخرى وهذا عائد إلى عدة أمور:

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الوصايا باب الوصايا ٣/١٠٠٥ برقم: ٢٥٨٨.

(٢) فتح الباري ٥/٣٦٠.

(٣) الأحكام السلطانية لأبي يعلى ١٩٩-٢٠٢، الأحكام السلطانية للماوردي ٢١٣،

٢١٤.

(٤) المغني ٨/١٨٥.



١- التعلق الشعبي به وامتداد رواقه ومظلته إلى أمور تشف عن حس إنساني رفيع.

٢- عدم اقتصار الوقف على أماكن العبادة كما هو في الأديان السابقة، بل امتد في نفعه إلى عموم أوجه الخير في المجتمع.

٣- شمول منافع الوقف حتى على غير المسلمين من أهل الذمة، فيجوز أن يقف المسلم على الذمي لما روي أن صفية بنت حيي - رضي الله عنها - وقفت على أخ لها يهودي.

ويتميز الوقف بخصائص وميزات متعددة قد لا توجد في المشاريع الخيرية الأخرى، وهذه المزايا أكسبته تلك الحيوية التي استمر أثرها في الأمة على مدى قرون طويلة؛ لأجل ذلك لا عجب أن نرى ذلك الإقبال الكبير من لدن أفراد المجتمع المسلم على الوقف وتحبيس جزء كبير من أملاكهم لأعمال الخير، قدوتهم في ذلك نبيهم محمد - عليه الصلاة والسلام - ثم صحبه الكرام، فقد وقف مجموعة من أصحاب النبي ﷺ منهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير بن العوام ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وعائشة وأم سلمة وصفية زوجات الرسول ﷺ وأسماء بنت أبي بكر وسعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد وجابر ابن عبد الله وغيرهم - رضي الله عنهم أجمعين - ومن بعدهم من التابعين وتابع التابعين.



ثم سار من بعدهم الأغنياء والموسرون من المسلمين فأوقفوا الأوقاف وأشادوا الصروح، بنوا المساجد، وأنشؤوا المدارس وأقاموا الأربطة، وهؤلاء الأخيار والأغنياء الأبرار لم يدفعهم إلى التبرع بأنفس ما يجدون وأحب ما يملكون ولم يتنازلوا عن هذه الأموال الضخمة والثروات الهائلة إلا لعظم ما يرجون من ربهم ويأملون عظيم ثواب مولاهم، ثم الشعور بالمسؤولية تجاه الجماعة والأقربين، دفعهم ذلك كله إلى أن يرصدوا الجزيل من أموالهم ليستفيد إخوانهم أفراداً وجماعات، جمعيات وهيئات، أقرباء وغرباء.

قال بعض أهل العلم: الوقف شرع لمصالح لا توجد في سائر الصدقات، فإن الإنسان ربما صرف مالا كثيراً ثم يفنى هذا المال ثم يحتاج الفقراء مرة أخرى أو يأتي فقراء آخرون فيبقون محرومين، فلا أحسن ولا أنفع للعامة من أن يكون شيء وقفاً للفقراء وابن السبيل يصرف عليهم من منافعه ويبقى أصله.

ففي الوقف تطويل لمدة الاستفادة من المال، فقد تُهَيَأ السبل لجيل من الأجيال لجمع ثروة طائلة، ولكنها قد لا تنتهي للأجيال التي بعدها، فبالوقف يمكن إفادة الأجيال اللاحقة بما لا يضر الأجيال السابقة.

الوقف الخيري أحد أبرز سمات المجتمع المسلم، ارتبط بالوجود الإسلامي بالمدينة، ومارسه المسلمون تلبية لأوامر الإسلام العقدية



والتعبدية والخلقية ولحاجات الناس، حيث شمل الوقف كل جوانب الحياة وأوجه الإنفاق على دور العبادة والتعليم والخير.

وقد كثرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث على الإنفاق في سبيل الله بوجه عام، وحددت الشريعة عدة صور لهذا الإنفاق منها الزكاة والصدقات التطوعية بشكل عام، ومنها الصدقات الجارية التي عمادها الوقف، ومن حكمة الله عز وجل أنه جعل الصدقات الجارية امتداداً لعمل الإنسان الخيري وزيادة حسناته بعد وفاته وانقطاع عمله، وإلى جانب ذلك فإن الرسول ﷺ في سنته الشريفة وتعليماً للمسلمين قام بأول وقف في الإسلام وتبعه في ذلك الصحابة حتى إنه ما بقي أحد من أصحاب رسول الله ﷺ له مقدره إلا وقف.

وإذا كان المسلم حريصاً على طاعة الله ورسوله ﷺ ويرجو الثواب في الدنيا والآخرة، فإن الله سبحانه فتح أمامه أبواب الخير العديدة ومنها الوقف، إضافة إلى أن الوقف في الإسلام من أهم المؤسسات التي كان لها دور فعال في الحضارة الإسلامية لكافة جوانبها الدينية والاقتصادية والاجتماعية وحراسة الدين، ومن أهم آليات حراسة الدين بناء المساجد وعمارتها لإقامة الصلوات التي تعد عماد الدين، وكان الوقف وما يزال المصدر الرئيس لتوفير التمويل اللازم لذلك، هذا إلى جانب وقف الكتب وإقامة المكتبات وإقامة



حلقات التعليم في المساجد، تعمل في مجال حراسة الدين كما تعمل في مجال التنمية البشرية.

ويلعب الوقف دوراً في مكافحة الفقر وإنشاء المدارس والمستشفيات والطرق والجسور، ومصادر المياه الصالحة للشرب، وغيرها من مؤسسات التنمية الاجتماعية والحضارية، وظهر للوقف قديماً دور في النشاط الزراعي بوقف الأراضي الزراعية واستغلالها لحساب مستحقي الوقف.

ومما يبرز أهمية الوقف أن بعض الدول غير الإسلامية والمتقدمة منها مثل الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ينتشر الوقف بها رغم أنه ليس وراء ذلك دافع ديني إسلامي، ورغم كثرة المبتكرات لديهم من أساليب تمويل الخدمات الاجتماعية إلا أنهم أخذوا صيغة الوقف كما جاء بها الإسلام وطبقوها في مجالات عديدة مثل المستشفيات والجامعات، ومواجهة الكوارث وتقديم الإعانات للفقراء، كل ذلك يؤكد لنا أن مؤسسة الوقف ليست عملاً تراثياً من الماضي ولم يعد له حاجة في الوقت الحاضر، بل على العكس دوره مطلوب بشدة الآن، وله ما يبرره ويجب العمل على إحيائه بكل السبل.

تقوم فكرة الوقف نفسها على تنمية قطاع ثالث متميز عن كل



من القطاع الخاص، والقطاع الحكومي، وتحميل هذا القطاع مسؤولية النهوض بمجموعة من الأنشطة هي بطبيعتها تدخل في إطار البر والإحسان والرحمة والتعاون، لا في قصد الربح الفردي، ولا ممارسة قوة النظام وسطوته؛ لأن هذا النوع من الأنشطة قائم على المودة والرحمة.

فالوقف إخراجٌ لجزء من الثروة الإنتاجية في المجتمع من دائرة المنفعة الشخصية ودائرة القرار الحكومي معاً، وتخصيص ذلك الجزء لأنشطة الخدمة الاجتماعية العامة، وقد قررت الشريعة الإسلامية أن هذه الأنشطة والخدمات هي حاجة بشرية، لا تقتصر على المجتمع الإسلامي فقط بل هي لغير المسلمين أيضاً.

لقد فتح الإسلام منابع عديدة لنفع الآخرين، منها ما هو واجب كالزكاة والكفارات والנדور، وهذه لا حديث عنها باعتبارها واجباً لازماً على المسلم، ومن المنابع ما هو ذو طابع تطوعي بحت، مثل الصدقات التطوعية والوقف، فالمسلم حين يتنازل عن حر ماله طواعية فهو يتمثل الرحمة المهداة في الإسلام للبشر أجمع نبينا - عليه الصلاة والسلام - ويتحرر به من ضيق الفردية والأنانية متجاوزاً الأنا إلى الكل، شاملاً المجتمع بخيرية الفرد، وبانياً الجسد الواحد بكرم العضو، وهذا التفاعل تحقيق لحديث رسول



الله ﷻ: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (١).

ويعد الوقف بمفهومه الواسع أصدق تعبيراً وأوضح صورة للصدقة التطوعية الدائمة، بل له من الخصائص والمواصفات ما يميزه عن غيره، وذلك لعدم محدوديته واتساع آفاق مجالاته، والقدرة على تطوير أساليب التعامل معه، كل هذا كفل للمجتمع المسلم التراحم والتواد بين أفرادها على مر العصور بمختلف مستوياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها الأمة الإسلامية خلال الأربعة عشر قرناً الماضية، فنظام الوقف مصدر مهم لحيوية المجتمع وفاعليته وتجسيده حي لقيم التكافل الاجتماعي التي تنتقل من جيل إلى آخر حاملة مضموناتها العميقة في إطار عملي يجسده وعي الفرد بمسؤولياته الاجتماعية ويزيد إحساسه بقضايا إخوانه المسلمين ويجعله في حركة تفاعلية مستمرة مع همومهم الجزئية والكلية.

إن الدارس للوقف في الحضارة الإسلامية ليعجب من التنوع الكبير في مصارف الأوقاف، فكان هناك تلمس حقيقي لمواطن

(١) رواه البخاري في صحيحه ٣٦٧/١٠، ومسلم في صحيحه برقم: ٢٦١٥ عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما.



الحاجة في المجتمع لتسد هذه الحاجة عن طريق الوقف، فالوقف من حيث بعده الاجتماعي يبرهن على الحس التراحمي الذي يمتلكه المسلم وبتרגمه بشكل عملي في تفاعله مع هموم مجتمعه الكبير، ويظهر هذا جلياً في رصد التطور النوعي للوقف على امتداد القرون الأربعة عشر، فقد كان المسجد أهم الأوقاف التي عني بها المسلمون، بل هو أول وقف في الإسلام، كما هو معلوم في قصة بناء مسجد قباء أول مقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة.

ولعل من أبرز شواهد اهتمام المسلمين بذلك الجانب في الوقف: الحرمين الشريفين بمكة والمدينة المنورة، والجامع الأزهر بالقاهرة، والمسجد الأموي بدمشق والقرويين بالمغرب، والزيتونة بتونس وغيرها كثير.

ثم يأتي في المرتبة الثانية من حيث الكثرة العددية والأهمية النوعية المدارس، فقد بلغت الآلاف على امتداد العالم الإسلامي وكان لها أثر واضح في نشر العلم بين المسلمين، وقد أدى توافد طلاب العلم من جميع أنحاء العالم إلى مراكز الحضارة الإسلامية والعواصم الإسلامية إلى إنشاء المساكن الوقفية التي تؤويهم، مع تهيئة الطرق، وإقامة السقايا والأسبلة في هذه الطرق للمسافرين، وكذا دوابهم.

وصاحب ذلك إنشاء الأربطة ودور العلم للطلاب الغرباء لإيوائهم، واستتبع ذلك ظهور الوقف للصرف على هؤلاء الطلاب باعتبارهم



من طلاب العلم المستحقين للمساعدة في دار الغربة، ولا تخلو كل هذه المراحل والأنواع من جوانب اجتماعية للوقف، لها دلالاتها وأهميتها وأثرها في المجتمع بشكل عام.

كما أن للوقف دوراً فاعلاً في مجال الرعاية الاجتماعية، يتمثل ذلك في المدارس والمحاضن التي أنشئت خصيصاً للأيتام، يوفر لهم فيها المأكل والأدوات المدرسية، كما يتمثل دور الوقف في مجال الرعاية الاجتماعية في الأربطة بالإضافة إلى الأسبله التي يقصد بها توفير ماء الشرب للمسافرين وعابري السبيل وجموع الناس سواء داخل المدن أو خارجها، وقد أدت دورها الاجتماعي باقتدار رغم صعوبة استمرار مثل هذه المؤسسات الاجتماعية وبقائها فترات طويلة وعلى مدى أجيال متوالية، ويعود ذلك إلى حاجتها الكبيرة إلى موارد مالية دائمة لا تتوقف ولا تنضب، وقد تحقق لها ذلك بفضل من الله ثم بفضل نظام الوقف الذي ازدهر في تصاعد مع ازدهار الحضارة الإسلامية، ذلك أن الملاحظ في كثير من حلقات التاريخ وفي العديد من بلاد العالم توقف مؤسسات خيرية ضخمة عن أداء رسالتها بعد فترة من الزمن، بسبب نضوب مواردها المالية وإفلاسها، مما اضطرها إلى طلب مساعدة الخيرين بين حين وآخر، أما في الحضارة الإسلامية فإنه قل أن توجد هذه الظاهرة.





المبحث الثالث:

أركان الوقف وشروطه

لوقف أركان لا يتم إلا بها، إلا أن العلماء اختلفوا في هذه الأركان، ومذهب الجمهور أن للوقف أربعة أركان: الواقف والموقوف والموقوف عليه والصيغة.

فالركن الأول:

الواقف، وهو المكلف الرشيد الحر الذي صدر منه الإيجاب بإنشاء عقد الوقف.

والركن الثاني:

الموقوف، وهو كل عين مملوكة يصح بيعها.

والركن الثالث:

الموقوف عليه، وهو الذي يخصص الوقف أو ريعه عليه، سواء كان معيناً كشخص أو جماعة، أو غير معين كجهة من الجهات.

والركن الرابع:

الصيغة، وهو القول الذي دل على إنشاء عقد الوقف، وكذا الفعل الدال عليه، كما لو بنى مسجداً وخلق بينه وبين الناس، أو مقبرة وأذن في الدفن فيها.



وقد اتفق الفقهاء على أن المعتبر في الصيغة إيجاب الواقف، فيكون الوقف من العقود التي تتعقد من طرف واحد، ولا يعد قبول الموقوف عليه من أركان الوقف، لكن هل هو من شرطه؟

إن كان الموقوف عليه غير معين كالفقراء وطلبة العلم وما أشبه ذلك لم يعتبر قبولهم باتفاق أهل العلم، وإن كان معيناً كشخص أو جماعة فجمهور العلماء على أنه لا يشترط قبولهم أيضاً، هذا مذهب الحنفية والحنابلة وأحد الوجهين عند الشافعية، وذهبت المالكية وهو الوجه الآخر عند الشافعية ورواية عند الحنابلة إلى أنه يعتبر قبول الموقوف عليه المعين أو وليه إذا كان صغيراً ما وقف عليه^(١).

أما شروط الوقف فهي مرتبطة بالأركان السابقة، وهي كالتالي:

أولاً: الشروط المعتبرة في الواقف:

يشترط في الواقف كي يصح منه عقد الوقف أن يكون أهلاً للتبرع، والأهلية تعني: أن يكون حراً مكلفاً رشيداً، فلا يصح الوقف من العبد؛ لأنه لا يملك، وإن ملك فملكه قاصر؛ لأنه يؤول

(١) ينظر: شرح الخرشي على مختصر خليل ٨٨/٥، روضة الطالبين ٣٢٢/٥، المغني

إلى سيده، ولا يصح من صغير مميز كان أم غير مميز، ولا من المجنون، ولا من السفهيه، لعدم أهليتهم للتبرع، وذلك لأن الوقف تبرع وإسقاط للملك بلا عوض فلم يصح من هؤلاء.

ثانياً: الشروط المعتبرة في الموقوف عليه:

الموقوف عليه إما أن يكون معيناً كشخص أو جماعة، أو يكون جهة، فإن كان الموقوف عليه معيناً فقد اشترط بعض الفقهاء أن يمكن تملكهم، فخرج بذلك الوقف على المجنون والجنبي والملك، وألا يكون على معصية كما لو وقف على نائحة أو مغنية.

واشترط المالكية والشافعية قبول المعين للوقف، لكن ليس هذا شرطاً في صحة الوقف، بل شرط في اختصاصه به، فلو لم يقبل فإنه لا يعود مطلقاً، بل يكون للمصرف الذي بعده إن عين مصرفاً، وإلا فيعود للفقراء والمساكين.

ومن الشروط أيضاً أن يكون الوقف على بر وطاعة؛ لأن الوقف صدقة وطاعة فلا بد أن تصادف محلاً تظهر فيه القرية والطاعة، ومذهب المالكية ألا يكون على معصية محضة.

أما إذا كان الموقوف عليه جهة كالمساجد والمدارس والأربطة والمستشفيات وغيرها فيشترط أن تكون جهة بر وطاعة وقرية، فلا



يصح الوقف على جهة معصية، كالوقف على قطاع الطرق أو على المبتدعة أو على المغنين ونحوهم، لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالنَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١)؛ ولأن في الوقف على المعصية إشاعة لها وتقوية لجانبها، وهذا مناف لمقاصد الشرع في الأوقاف، ولأن الوقف قرينة وطاعة فكيف يتقرب إلى الله تعالى بالمعصية؟

ثالثاً: الشروط المعتبرة في محل الوقف:

وهو الذي يرد عليه عقد الوقف ومن تلك الشروط:

- ١- أن يكون الوقف مالا، مباح النفع مطلقاً، فخرج ما لا نفع فيه، وما نفعه محرم كالخمر والخنزير، وما منفعته مقيدة بالضرورة كالميتة.
- ٢- أن يكون مملوكاً؛ لأن التبرع تصرف ينقل الملك، فلا يجوز لإنسان أن يتصرف فيما لا يملكه ولا ولاية له عليه.
- ٣- أن يكون معلوماً حين الوقف فلا يصح وقف المجهول كالحصاة والشيء.
- ٤- اشترط جمهور العلماء دوام الانتفاع بالعين، فلا يصح وقف طعام لأكل، ولا ريحان لشم، لعدم دوام الانتفاع بهذه الأمور.

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.



رابعاً: الشروط المعتبرة في صيغة الوقف:

يشترط في صيغة الوقف شروط أهمها:

(١) أن تكون دالة على الجزم بالعقد، فلا ينعقد الوقف بالوعد

به، كما لو قال: سأقف على ذريتي وما أشبه ذلك.

(٢) أن تكون الصيغة لفظاً، فلا ينعقد بالصيغة الفعلية، وهذا

الشرط قال به الحنفية والشافعية، وذهب المالكية

والحنابلة إلى أن الصيغة الفعلية تكفي للدلالة على الوقف

وينعقد بها.

ومن المعلوم أن شرط الواقف إذا لم يكن إصلاحاً أو كان إثماً

فلا يجوز اعتباره ولا حرمة له، كما لو شرط التعزب في الموقوف

عليه أو الترهيب.

بل لو شرط ما هو مكروه، أو تضمن شرط ترك ما هو أحب

إلى الله تعالى ورسوله ﷺ فلا حرمة لشرطه ولا إثم على من غير

شرطه.

قال ابن القيم - رحمه الله: «ولا يحل لأحد أن يجعل هذا الشرط

المخالف لكتاب الله عز وجل بمنزلة نص الشارع، ولم يقل هذا

أحد من أئمة الإسلام.. فإذا شرط الواقف القراءة على القبر كانت

القراءة في المسجد أولى وأحب إلى الله ورسوله وأنفع للميت ... ومن



ذلك: أن يشرط عليه إيقاد قنديل على قبر، أو بناء مسجد عليه، فإنه لا يحل تنفيذ هذا الشرط ولا العمل به، فكيف ينفذ شرط لعن رسول الله ﷺ فاعله»^(١)؟

ومن هنا تتبين أهمية الألفاظ في الوقف، وأن الصيغة الفعلية لا تكفي للدلالة عليه ما لم يقترن بها اللفظ، أو قرينة قوية دالة عليه. (٣) أن تكون الصيغة دالة على التنجيز، فلا يصح الوقف المعلق، ولا المضاف إلى شرط مستقبل؛ لأن الوقف فيه معنى تمليك المنافع والغلة، والتمليكات يبطلها التعليق.

(٤) أن يقع الوقف لازماً، فلا يصح شرط الخيار فيه، كأن يقول: داري وقف على أني بالخيار شهراً، فإذا علقه بشرط الخيار بطل، والعلة فيه ما سبق في شرط التنجيز؛ ولأن الخيار شرع للتروي والتفكير في عاقبة الأمر، وهذا إنما يكون في الأمر المتردد بين المصلحة والمضرة.

والوقف مصلحة محضة للواقف في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فصلة الأقارب وبر الأحاب إن كان الموقوف عليه معيناً، ونفع عموم المسلمين وتحقيق مصالحهم إن كان الوقف على جهة.

وما كان هذا شأنه فلا حاجة إلى التروي فيه، ومن هنا فلا

(١) إعلام الموقعين، ٣/٩٦، ٩٧.

يصح شرط الخيار فيه؛ ولأن شرط الخيار فيه تأجيل لمنفعة الوقف مدة الخيار، وربما تطول، وقد يحتاج الموقوف إلى نفقة أو رعاية أو ما أشبه ذلك، فلذلك كان شرط الخيار في الوقف يتنافى مع هدف الوقف ومصلحته فلا يصح.

(٥) أن تكون الصيغة دالة على التأييد في الموقف إما بصراحة لفظها، أو باقتضاء معناها، فلا يصح أن يقف مؤقتاً، كأن يقول: داري وقف سنة أو شهراً أو ما أشبه ذلك، وهذا ما عليه الجمهور من الحنفية والشافعية والحنابلة؛ وذلك لأن الواقف أخرج الموقوف عن ملكه على وجه القرية، ولا يجوز أن يرجع فيما أخرجه لله.

(٦) ألا يكون في صيغة الوقف شرط يناه في مقتضاه أو يعود عليه بالإيصال، فإذا شرط شرطاً محرماً أو شرطاً يناه في مقتضى الوقف فإنه يبطل الوقف، واستثنى الحنفية وقف المساجد لو وقع فيها الشرط، فإن الوقف يصح ويلغو الشرط^(١).



(١) ينظر لما سبق: حاشية ابن عابدين ٣٤٦/٤، روضة الطالبين، ٣١٤/٥، المغني:



المبحث الرابع:

أنواع الوقف

لوقف أنواع كثيرة حسب أقسام متعددة، فمن ذلك:

أولاً: أقسامه من حيث استحقاق المنفعة: ينقسم الوقف بهذا الاعتبار إلى قسمين:

القسم الأول: الوقف الأهلي أو الذري:

والمراد به الوقف على الأهل والذرية بحيث يستحق منفعة الموقوف من أراد الواقف برهم من أقاربه، سواء كان شخصاً أو جماعة معينة، ولا شك أنه يدخل في عموم الإحسان إلى الأقارب الذي أمر الله به في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (١).

والجمهور على جوازه، واعتبار شرط الواقف فيه.

القسم الثاني: الوقف الخيري:

وهو الوقف على جهة بر وخير، مما تتعلق به مصالح جميع الناس في بلد أو في بلدان، وذلك كالمساجد والمدارس والأربطة

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.



والمستشفيات وغيرها، وسمي خيراً؛ لأنه جالب للخير ولما فيه من تعميم الانتفاع به، فصار خيراً عاماً، وهذا النوع هو الغالب في الأوقاف، وهو الذي حصل من الصحابة - رضوان الله عليهم - وتسابق إليه المتسابقون وشمر إليه من يبتغون ما عند الله.

ثانياً: أقسام الوقف باعتبار المحل الموقوف، وفيه فروع:

الفرع الأول: وقف العقار.

الفرع الثاني: وقف المنقول.

الفرع الثالث: وقف النقود.

• أولاً: حكم وقف العقار:

اتفق العلماء القائلون بمشروعية الوقف على مشروعية وقف العقار، وأنه من القرب المندوب إليها، بل نقل إجماع الصحابة على ذلك جماعة من العلماء منهم القرطبي، وموفق الدين ابن قدامة المقدسي، والنووي وغيرهم^(١).

قال الترمذي في سننه: «والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، لا نعلم بين المتقدمين منهم في ذلك اختلافاً في إجازة وقف الأرضين وغير ذلك»^(٢).

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/٢١٩٠، المغني ٨/١٨٥، شرح صحيح مسلم ٨٦/١١.

(٢) سنن الترمذي ٣/٦٦٠.



• ثانياً: حكم وقف المنقول:

المنقول الذي وقع فيه الخلاف هو ما يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه كالحيوان والسلاح والأثاث والأجهزة وغيرها.

أما ما لا يمكن الانتفاع به إلا بتلف عينه كالطعام ونحوه فهذا لا يدخل في الخلاف، فجمهور العلماء على عدم الجواز، بل يكاد يكون اتفاقاً منهم على عدم جواز وقفه.

ومن نقل عنهم الجواز فلعلهم لم يريدوا حقيقة الوقف الشرعي، وإنما أرادوا أنه لا ينتفع به في غير تلك الجهة.

• ثالثاً: حكم وقف الدراهم والدنانير:

الذي يظهر رجحانه في هذه المسألة - والله أعلم - هو القول الذي يرى جواز ذلك مطلقاً مع عدم بقاء عينها إذا كان لمنفعة مقصودة شرعاً كإقراضها والمضاربة بها^(١).



(١) ينظر لما سبق: شرح السنة ٢٨٨/٨، روضة الطالبين ٣١٥/٥، المغني ٢٢٩/٨، الإنصاف ١٢/٧، شرح الزركشي ٢٩٤/٤.



المبحث الخامس:

الطرق والأساليب الداعمة للوقف

هناك جملة من الطرق والأساليب الداعمة للوقف وإرجاعه إلى دوره الرائد في دعم الأعمال الخيرية والعلمية والاجتماعية وغيرها، للوصول إلى ما يطمح إليه الجميع بإذن الله فمن ذلك:

١- تنفيذ حملة إرشاد وتوعية تهدف إلى إبراز قيمة الصدقات وأجر الإنفاق في سبيل الله، وبخاصة ما كان منها صدقة جارية (الوقف) للإقبال على إحياء هذا النظام وجعله يؤدي دوره.

٢- استمرار عقد الندوات العلمية المتخصصة في الأوقاف وطرحها بشكل موسع بحيث تكون المشاركات من دول العالم الإسلامي وعدم قصرها على المستوى المحلي.

٣- إبراز دور الوقف الاجتماعي في النهضة الإسلامية وطرحها عبر القنوات الإعلامية، مع التركيز على ضرورة التنوع في مصارف غلال الأوقاف وفق حاجات المجتمع كي تسد ثغراته الاجتماعية.

٤- طباعة أبحاث الندوات التي أقيمت عن الوقف في كتب



وطرحها في الأسواق للبيع وعدم الاقتصار على التوزيع المجاني لها.

٥- تحويل جميع عمليات الوقف من مبادرات فردية إلى عمل مؤسسي منظم من خلال إنشاء صناديق وقفية متخصصة يندرج ضمنها الأوقاف القائمة حالياً، وما يستجد من أوقاف في إطار واحد تحدده شروط الواقفين.

وتخصص هذه الصناديق المقترحة للقيام بالأنشطة الشرعية، والثقافية والصحية بالإضافة إلى الأنشطة الاجتماعية من خلال إنفاق ريع أموال الواقفين بما يحقق أغراضهم، وتتكون موارد كل صندوق من ريع الأموال والأعيان الوقفية ويقوم على إدارة كل صندوق لجنة متخصصة، وتساعد مثل هذه الصناديق على توفير رأس مال كبير من مجموع الأوقاف المتناثرة، مما يعطي فرصة أكثر لتنمية رؤوس الأموال وإنشاء مشاريع تحقق تنمية واسعة.

ويمكن لتلك الصناديق دعم المشاريع الخيرية التي تتوافق مع شروط الواقفين، بحيث تقوم أية جهة بتقديم مشروع متكامل من حيث الدراسة والتنفيذ ونوعية ومقدار المستفيدين منه، ليقوم الصندوق بدراسة المشروع وتحديد مدى إمكانية دعمه وفق معايير واضحة، بذلك نضمن تحقيق أكثر فائدة من الأوقاف في المجالات المختلفة.



- ٦- استصدار نظام للأوقاف يتضمن تعريفه، وتنظيمه، وحمايته، بنوعيه الخيري العام والذري (أو الأهلي) الخاص.
- ٧- حماية أموال الأوقاف الموجودة، من عقارات ومبان وأموال منقولة، والمحافظة عليها من الغصب والضياع والتعطيل، وحفظ سجلاتها.
- ٨- العمل على استرداد أملاك الأوقاف التي حوّلت إلى استعمالات أخرى بطرق غير مشروعة، ومراجعة السجلات القديمة للأوقاف في المحاكم والدوائر العقارية وغيرها لتحديد الأملاك الوقفية والبدء بإجراءات إعادتها إلى ميدانها الوقفي.
- ٩- إعادة النظر في إدارة أملاك الأوقاف، وبخاصة الأوقاف الاستثمارية، بما ينسجم مع إرادة الواقفين وشروطهم من جهة، ومع نصوص الشريعة ومقاصدها من جهة أخرى.
- ١٠- وضع النظم اللازمة للتعريف بالأوقاف الخيرية العامة والأهلية الخاصة، وبيان دورها في التنمية الاجتماعية والاقتصادية، وتشجيع قيام أوقاف جديدة، وإعادة إدخال الأوقاف الذرية في البلدان التي ألغتها، وبخاصة بعد أن اتجهت عدة مجتمعات معاصرة متطورة إلى تأكيد أهمية هذا النوع من الأوقاف وتشجيعها.



- ١١- تقديم المعونات المادية والفنية والتمويلية والإدارية للأوقاف،
بنوعيتها الخيري والأهلي.
- ١٢- وضع الخطط اللازمة لاستثمار الأملاك الموجودة للأوقاف
وتتميتها، التي تعطلت عن العطاء خلال العصور المتأخرة
لأسباب تاريخية كثيرة، وتوفير فرص التمويل المناسبة لها.
- ١٣- تكليف وزارة الأوقاف في كل بلد بالعمل على تشجيع
إنشاء أوقاف جديدة، وإقامة الهيكل المؤسسي اللازم
للمساعدة في إنشاء أوقاف جديدة، وتشجيع الأفراد على
إقامتها وتقديم التسهيلات الضريبية والإدارية وغيرها،
وكذلك الإعانات الإدارية والمالية لها حتى تتمكن من أداء
دورها الاجتماعي والاقتصادي.





المبحث السادس:

حاجة البشرية إلى نور القرآن وهدايته

إن رسالة القرآن عالمية، وهذا من مميزاتا وخصائصها، فليست مقصورة على قوم أو جنس أو عصر أو مكان، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) ^(١)، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (١) ^(٢)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ (٦١) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ^(٣) ﴿ (٧٠)

فمتى ما بلغت العبد رسالة القرآن ودعوته إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص العمل له والحذر من الشرك والقيام بفرائضه وأداء حقوقه فقد قامت عليه الحجة وزالت عنه المذرة، قال تعالى: ﴿ وَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَذِهِ الْقُرْآنِ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَهْلُكُمْ لِتَشْهَدُوا أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ^(٤)، قال ابن

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٣) سورة يس، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٩.



كثير في تفسير الآية: «هو نذير لكل من بلغه، وعن محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَنْ بَلَغٌ﴾ قال: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه، وكأنما أبلغه محمد ﷺ وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَا نَذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغٌ﴾ أن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله»^(١) ، وقال الربيع بن أنس: «حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا إليه رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذي أنذر»^(٢) .

ومع استمرارية رسالة القرآن وخلودها بحفظ الله تعالى لها كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣) ، فإنها تحتاج إلى جهود متواصلة لتبليغ رسالته للعالمين وبيان هداياته للناس أجمعين، والبشرية الآن أحوج ما تكون إلى نوره وهداه، لتخرج به من الظلمات بجميع صنوفها وأشكالها إلى نوره ورحمته وبركته، وأولى الناس بالقيام بذلك أهله المحبون له المعظمون إياه العاملون به.

وقد جاء في القرآن الكريم التعبير عن معنى تبليغ رسالته بكلمات كثيرة منها:

-
- (١) رواه عبدالرزاق في تفسيره ٢/١/٢٠٥، والطبري في تفسيره ١١/٢٩٠ وابن أبي حاتم في تفسيره ٤/١٢٧٢ عن قتادة مرسلًا.
- (٢) تفسير القرآن العظيم: ١٢٦/٢.
- (٣) سورة الحجر، الآية: ٩.

- ١- (أنذر) كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ ۝١ قُرْآنِذِرٌ ۝٢﴾ (١) ،
 وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٣١٤﴾ (٢) ، وقوله:
 ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۝٣﴾ (٣) .
- ٢- (ادع) قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
 الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۝٤﴾ (٤) ، وقوله: ﴿فَلِذَلِكَ
 فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۝٥﴾ (٥) .
- ٣- (اصدع) كقوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ
 ۝٩٤﴾ (٦) .
- ٤- (بين) كقوله تعالى: ﴿وَالزُّبُرُ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ
 لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٧﴾ (٧) ، وقوله:
 ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
 وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨﴾ (٨) .

(١) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢ .

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٣١٤ .

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩ .

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٥ .

(٥) سورة الشورى، الآية: ١٥ .

(٦) سورة الحجر، الآية: ٩٤ .

(٧) سورة النحل، الآية: ٤٤ .

(٨) سورة النحل، الآية: ٨٩ .



وهذه الكلمات على تفاوت معانيها الخاصة بها إلا أنها تتفق في معناها العام، وهو وجوب تبليغ القرآن وبيان هداياته ودعوة الناس إلى العمل به واتباعه، وإن كان الخطاب فيها موجهاً للرسول ﷺ فلأنه الأصل المبلغ عن الله سبحانه القدوة لأمته، وهم شركاء معه في هذه المهمة العظيمة، وبذلك نالوا الخيرية والفضل، قال تعالى:

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٤) ، وقال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٢).

وحدث رسول الله ﷺ المسلمين في كل زمان ومكان على تبليغ رسالة القرآن الكريم للناس كافة، فقال - عليه الصلاة والسلام: «بلغوا عني ولو آية» (٣) ، وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع» (٤) ، وعن أبي مسعود

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤٩٦/٦، برقم: ٣٤٦١، عن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما.

(٤) رواه أحمد في مسنده ٤٣٧/١، وابن حبان في صحيحه ٢٧١/١ برقم ٦٩، قال محققه شعيب الأرنؤوط: (إسناده حسن).

الأنصاري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»^(١) ، وحذر من التكاسل في ذلك بكتم ما أوجب الله بيانه وتعليمه، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(٢) ، وفي رواية لابن ماجه: «ما من رجل يحفظ علماً فيكتمه إلا أتى به يوم القيامة ملجماً بلجام من نار»^(٣) .

إن الإسلام لا يرضى من المسلم أن يكون صالحاً مهتدياً في نفسه، بل يريد منه أن يكون مصلحاً هادياً لغيره، فالنفع المتعدي أولى وأفضل من النفع الخاص، وإذا تخلى المسلمون عن حمل هذه الرسالة وتكاسلوا في أداء هذه الأمانة تفاقمت الشرور وظهرت الفتن واستشرى الفساد بجميع أنواعه وتكالب الأعداء على الأمة، والله تعالى يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٤) ، ويقول سبحانه:

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره ٣٨/١٣، ٣٩.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/٢٦٣، وأبو داود في سننه كتاب العلم، باب كراهية منع العلم ٣/٣٢١ برقم ٣٦٥٨، والترمذي في سننه كتاب العلم باب كراهية كتمان العلم ٥/٢٨ برقم ٢٦٤٩ وحسنه.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه أبواب المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه ٤٩/١، برقم ٢٦١، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٤٩/١.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.



﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) (١).

إن الداعي إلى القرآن المبلغ رسالته لا بد له كي يؤدي واجبه على الوجه الأكمل أن يكون عنده إيمان صادق بأن القرآن كلام الله عز وجل أفضل الكلام وأتمه وأصدقه، من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم، لا خير ولا فلاح ولا هدى إلا في اتباعه والعمل به والتحاكم إليه، يدرك أن رسالة القرآن هي الحق المهيمنة على ما قبلها المصدقة لها، وما عداها فهو باطل، مع وجوب تعظيم كتاب الله تعالى وإجلاله ومحبته بكل القلب والتفاني من أجله، فيعيش له ويموت في سبيله، يعلم علم اليقين أنه بالقرآن حاز كل شيء وبدونه فقد كل شيء، هو مصدر سعادته وقوته وطريقه الواحد لنيل رضا ربه ودخول جنته، ويحتاج مع هذا إلى الصبر الذي هو نصف الإيمان وقد ذكر في القرآن في أكثر من ثمانين موضعاً، وأمرنا أن نستعين به بعد الله عز وجل لتحقيق الأهداف ونيل المقاصد، فقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (٢)، ولأهله المعية الخاصة

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

المحبة الخالصة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١)، ويقول عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)، ومن لوازم تلك المعية الخاصة النصره والتأييد والتوفيق والتسديد، به وباليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٣).

بهذا كله وغيره يؤدي أهل القرآن المتأثرون به حقاً وصدقاً واجبه المنوط بهم تجاه كتاب ربهم ورسالته وهداياته ومقاصده في العالمين.

لقد وصف ربنا تعالى كتابه العزيز بأنه هدى في سبعة وأربعين موضعاً من القرآن، فهو هدى من الكفر والشرك إلى الإسلام والإيمان، وهو هدى من الظلم والجور والاعتداء إلى العدل والقسط والإنصاف، وهو هدى من الحيرة والشك والقلق إلى اليقين والطمأنينة، وهو هدى من العناء والشقاء إلى السعادة والراحة، وبهذا امتن الله تعالى على رسوله - عليه الصلاة والسلام - والأمة من بعده، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٢٤.



وَأِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ (١) ، كما أن هذه الهداية متى تحققت لم يضل صاحبها في الدنيا ولم يشق في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (٢) ، قال ابن عباس - رضي الله عنهما: «ضمن الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة» (٣) .

ولكن هذه الهداية خاصة بمن آمن به واتبعه وتمسك به، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ (٤) ، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ (٥) ، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ (٦) ، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَلْكَتَبُ لَا رَبَّ فِيهِ هُدًى لِّلشَّاقِينَ ﴿٢﴾﴾ (٧) ، يقول الإمام السعدي في

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٢٥٨/١١.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٩٧.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢.

تفسير الآية: «الهدى ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبهة وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال سبحانه (هدى) وحذف المعمول فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية ولا للشئ الفلاني، لإرادة العموم وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم»^(١).

إن هداية القرآن كما تكون لأهلها في الدنيا فهي الموصلة لهم أيضاً إلى جنات النعيم، يقول تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾^(٢)، فهداية القرآن لا

تتحقق ولا تحصل إلا لمن اتبعه وتمسك به، يقول الحافظ ابن كثير: (ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢٣.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.



كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ
 كَثِيرٍ قَدْ جَاءَ كُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾
 يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
 وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾^(١) ، أي: طرق النجاة والسلامة ومناهج
 الاستقامة، ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ
 وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٢) ، أي: ينجيهم من المهالك،
 ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور ويحصل لهم أحب
 الأمور، وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة^(٣) ، ويقول
 الإمام السعدي: «ثم ذكر من الذي يهتدي بهذا القرآن؟ وما هو
 السبب الذي من العبد لحصول ذلك؟ فقال: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ
 مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾^(٤) ، أي: يهدي من اجتهد
 وحرص على بلوغ مرضاة الله وصار قصده حسناً سبل السلام، التي
 يسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم
 بالحق والعمل به، إجمالاً وتفصيلاً، ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ

(١) سورة المائدة، الآية: ١٥، ١٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣٤/٢.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٦.

﴿ الظُّلْمَتِ ﴾ ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغفلة،
﴿ إِلِكِ النُّورِ ﴾ نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم والذكر.

وكل هذه من الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ
لم يكن، ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(١).

إن هداية القرآن الكائنة لمن انتفع به دالة على كل خير في
الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ
أَقْوَمُ ﴾^(٢)، يقول الإمام الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية
الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية
وأجمعها لجميع العلوم وآخرها عهداً برب العالمين جل وعلا يهدي
للتّي هي أقوم، أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب ... وهذه
الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من
الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على
وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما
فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة»^(٣)، ثم أطل في تفصيل ما
تضمنه القرآن من الهدايات في حوالي خمسين صفحة.

وقد ذكر الزرقاني أن هداية القرآن امتازت بأنها تامة وعامة
وواضحة حيث قال: وهداية القرآن تمتاز بأنها عامة وتامة وواضحة.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٨٨، سورة المائدة، الآية: ١٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٣) أضواء البيان: ٤٠٩/٣.



أما عمومها: فلأنها تنتظم الإنس والجن في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۗ ﴾^(١)، وقال جلت حكمته: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۗ ﴾^(٢)، وقال عز اسمه: ﴿ قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ۗ ﴾^(٣).

وأما تمام هذه الهداية: فلأنها احتوت أرقى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشر في العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذي يعيش فيه، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد.

وأما وضوح هذه الهداية: فلعرضها عرضاً رائعاً مؤثراً، توافرت فيه كل وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع، أسلوب فذ معجز في بلاغته وبيانه، واستدلال بسيط عميق، وأمثال خلاصة تخرج أدق

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.



المعقولات في صورة أجلى الملموسات، وحكم بالغات تبهر الأبواب
بمحاسن الإسلام وجلال التشريع، وقصص حكيم مختار يقوي
الإيمان واليقين ويهذب النفوس والغرائز، ويصقل الأفكار
والعواطف، ويصور له مستقبل الأبرار والفجار تصويراً يجعله كأنه
حاضر تراه الأبصار في رابعة النهار»^(١).



(١) مناهل العرفان، ٢/١٣٤، ١٣٥، بتصرف يسير.



المبحث السابع:

مشروعية الوقف في خدمة القرآن

يعد الوقف الخيري والأهلي من الصدقة الجارية التي يستمر أجر صاحبها حياً وميتاً، بل في أوليات ما حث النبي ﷺ، في الحديث الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (١).

ويعظم الأجر والثواب بعظم المقصود وإذاعته ونشره، ويتضاعف الأجر على قدر من ينتفع به، وتعليم أبناء المسلمين أمور الدين، وفي مقدمة ذلك القرآن الكريم من أعظم المقاصد الشرعية، بل هو أعظمها، وتعليمه الصغار من أفضل القرب وأجل الطاعات عند الله عز وجل.

يقول العلامة الفقيه أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني - رحمه الله - في شأن تعليم الأطفال، وترسيخ المعاني الفاضلة وأثرها في نفوسهم بدءاً بالقرآن الكريم العظيم: (اعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه، وأولى ما عني به الناصحون، ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير

(١) رواه مسلم - كتاب الوصية: ٨٥/١١.



إلى قلوب أولاد المؤمنين، ليرسخ فيها، وتنبههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة ليراضوا عليها، وما عليه أن تعتقده من الدين قلوبهم وتعمل به جوارحهم، فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الرب، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر..» (١).

إن لتعليم الصغار العلم ثواباً وأجرأً، ولتعليمهم القرآن مضاعفة الثواب قدر الحروف المقروءة منه، فقد قال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (٢)، وغير هذا من الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي فيها فضل العناية بالقرآن الكريم وقد ظل هذا الحافظ الأكبر للمسلمين في غابر الزمان وحاضره ومستقبله، ليصبح الإنفاق على خدمة القرآن أعظم الأعمال أجرأً وتقرباً إلى المولى جل وعلا.

إن التاريخ الإسلامي يحتفظ بصفحات مشرقة من سخاء الخلفاء، والملوك، والسلطين، وأثرياء المسلمين بما رصدوه من الأموال والعقارات على التعليم بعامة، وعلى تعليم القرآن ونشره بخاصة، فمنه يتشعب علم الأولين والآخرين، فهو الأحق بالعناية والاهتمام، وأجدد أن يسخو الموسرون بأموالهم لتعليمه، ونشره للمسلمين، خدمة له، وإذاعة لهديه وفضائله، ليستقيم أمر الأمة، ويعلو شأنها بين الأمم، فهو سبيل إسعادهم في الدنيا والآخرة.



(١) الرسالة مع حاشية العدوي ٢٩/١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ٦٦/٩، ٦٧.



المبحث الثامن:

مقاصد الواقفين على القرآن

أدرك المسلمون في وقت مبكر من تاريخهم أهمية الأوقاف لاستمرار أعمال البر وديمومتها، خصوصاً في المرافق التعليمية والدينية كالمدارس والمساجد، والاجتماعية كالملاجئ والمستشفيات.

هذه الأوقاف على تلك المرافق تكفل لها الاستمرار تبعاً لرغبات الواقفين ومقاصدهم المشروعة، فأهم مورد مالي رصد لحياة المسجد ليستمر بكل ما يتعلق بالشؤون الإسلامية، ودور تحفيظ القرآن الكريم هو الوقف، فمؤسسة (الوقف) كانت وما تزال أهم مورد لشؤون الدين، وللتعليم الإسلامي على الإطلاق، وأكثرها دخلاً وإداراً، وإليها يرجع الفضل في بقائه واستمراره أحقاباً وقروناً، وفي انتظام الحياة العلمية والدراسية في جامعات الإسلام وكيالاته ومؤسساته.

وثبت الاستقراء التاريخي أن مقاصد الواقفين على خدمة القرآن الكريم متنوعة ومتعددة، وهي لا تخلو أن تكون واحداً من المقاصد التالية:



أولاً: الوقف على المدارس القرآنية.

ثانياً: الوقف على القراء.

ثالثاً: الوقف على تعليم القرآن وتحفيظه.

وفيما يلي تفصيل القول في هذه المقاصد، من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: الوقف على المدارس القرآنية؛

الهدف الأساس من إنشاء المدارس القرآنية هو تعليم أبناء المسلمين للقرآن الكريم حفظاً، وتلاوة وتجويداً، وفهماً لمعانيه، ويكاد أن يكون هذا هو المقصد الوحيد والأمل المنشود من قبل المؤسسين لهذه المدارس طمعاً في الأجر والثواب من الله عز وجل.

انتشر هذا النوع من المدارس المتخصصة بالقرآن الكريم، وأسهم في تأسيسها القادرون من أبناء المجتمع الإسلامي، كل على قدر استطاعته وإمكاناته، وكان للعواصم العلمية الإسلامية: مكة، والمدينة المنورة، ودمشق، وبغداد، وقرطبة، والقاهرة، وفاس، وتونس، وغيرها الحظ الأوفر من هذه المدارس، وقد خصصت لها أوقاف من العقارات والضياع والقرى بما يغني القائمين عليها والدارسين فيها عن الحاجة، والانشغال بأمور المعاش.

وفي صدر الحديث عن هذا الجانب بالنسبة للحرمين الشريفين



في مكة والمدينة يمتلك المرء الإعجاب والتقدير لعظم الأموال الثابتة والمنقولة والموقوفة المخصصة لهذه المدارس في بلاد الحرمين الشريفين وخارجها في البلاد الإسلامية الأخرى.

يقول العلامة المؤرخ الأستاذ محمد عمر رفيع المكي، وشهادته في هذا الصدد عن رؤية ومشاهدة: « .. ولنعد الآن نذكر ما وفق الله إليه المسلمين وملوكهم، وأولي الثراء منهم من بناء المدارس، والمساكن لطلبة العلم، والمجاورين بمكة، بل ولمن يَفِدُ من ممالكهم ليسكنوها زمن أدائهم للفريضة مجاناً، ولو أردنا استيعاب ذلك كله لطال بنا القول، ولكن سأذكر بعض ما شهدته قائماً من دور شيدت لطلبة العلم، ونزل للحجاج، والمجاورين، وغير ذلك من أعمال البر والرعاية، وإنني لأعتقد جازماً أن جميع ما كان ملتقاً حول المسجد من مبان ودور كانت كلها أو جلها من الأوقاف التي خصصت للعناية بالعلم وطلبته .. »^(١).

وهذه الصورة من صور الاهتمام بالمدارس القرآنية في مكة المكرمة تماثلها تماماً بقية البلاد الإسلامية، ويمكن الاستشهاد على صحة هذا بما كتبه العلامة المحقق الأستاذ محمد صلاح الدين منجد تنويراً بسخاء الواقفين على المدارس القرآنية بدمشق،

(١) مكة المكرمة في القرن الرابع عشر الهجري، ص ٩٩.



وإشادة بمكرماتهم، وتجسيداً لعطائهم، حيث يقول: (وقد وقف أولئك جميعاً على هذه المدارس المتعددة المختلفة أوقافاً وافرة من الأموال، والقرى، والضياع، والبساتين، والحوانيت، والخانات، والقاعات حتى أصبحت دمشق وأرباضها أوقافاً لهذه المدارس المبنوثة في كل حي من أحيائها، بل في كل درب من دروبها، فكانت هذه الأوقاف تدرُّ المال عليها، وترغب الطلاب في التعلم بها، والشيخ في التعليم بها، لا يشغل بالهم أمر الدنيا، وطلب المعاش) (١).

المطلب الثاني: الوقف على القراء:

من مظاهر هذا الاهتمام نسخ القرآن بأيديهم، ومن ثم إهداؤه إلى البلاد المقدسة مكة المكرمة، والمدينة المنورة وبيت المقدس، ليس هذا فحسب بل إنهم يوقفون العقارات، ويقدمون المكافآت السخية للقراء والمدرسين، والمهتمين بتعليم القرآن وتعلمه.

ومكة المكرمة مهبط الوحي، جديرة بأن تهتم معاهدها ومؤسساتها بالقرآن ودارسيه، ولهذا لم يفت الخلفاء، والملوك، والسلاطين هذا المعنى، فكانوا يتسابقون إلى بناء المدارس القرآنية وغيرها، وتشجيع القائمين عليها من القراء، والمعلمين، والفقهاء،

(١) دور القرآن في دمشق، ص ٦.



وفي العهد القريب لمس المسلمون مزيد اهتمام الخلفاء العثمانيين، وكثرة القيام بخدمة الحرمين الشريفين، والبلدين المنيفين، والاعتناء بمصالحهما، وما يتعلق بهما، ويكثرون ذكرهما، ويبجلون أهلها، وقد سجل التاريخ لهم من هذا مكرمات رفيعة، كان هذا شأن من قبلهم ومن بعدهم ممن كانت لهم ولاية على الحرمين الشريفين.

وفيما يلي صور من عناية السلاطين المسلمين بالقرآن الكريم نسخاً بأيديهم، وتحبيس الضياع والعقارات على القراء، وتلاوة القرآن الكريم في مكة المكرمة:

فقد سجل التاريخ نماذج عديدة للملوك وسلاطين المسلمين وأمرائهم صفحات مشرقة، صريحة في اعتنائهم بالقرآن الكريم، واهتمامهم به.

ففي سنة ٧٣٨هـ بعث السلطات أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب صاحب فاس إلى مكة مصحفاً كتبه بخطه، وأخرج من خزائنه أموالاً عينها على شراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها.

قال الشيخ أحمد بن خالد الناصري السلاوي في كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: «انتسخ السلطان أبو الحسن



— نسخة — من المصحف الكريم بيده ليوقفه بالحرم الشريف، حرم مكة؛ قربة إلى الله تعالى وابتغاء للمثوبة، وجمع الوراقين لتتميقها وتذهيبها، والقراء لضبطها وتهذيبها، وصنع لها وعاءً مؤلفاً من الابنوس، والعاج، والصندل، فائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب، ورصع بالجواهر، والياقوت، واتخذ له أصنونة الجلد، ومن فوقها غلائف الحرير، والديباج، وأغشية الكتان، وأخرج من خزائنه أموالاً عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها»^(١).

ثم انتسخ السلطان أبو الحسن نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول، ووقفها على القراء بالمدينة، وبعث بها من تخيره لذلك العهد من أهل دولته سنة أربعين وسبعمائة، وفعل مثل ذلك بحرم بيت المقدس.

قال العلامة أبو العباس المقري في نفع الطيب: كان السلطان أبو الحسن المدني قد كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، ووقف عليها أوقافاً جليلة^(٢).

ومن هذه النماذج الرفيعة في العناية بالأوقاف في خدمة القرآن

(١) إفادة الأنام، ٦/٣.

(٢) إفادة الأنام، ٦٩/٣.



الكريم أوقاف السلطان مظفر شاه الكجراتي على القراء بمكة المكرمة في مدرسة شاهية المظفر، فقد كتب المصحف الشريف بخط يده ثم أودعه في المدرسة المظفرية، وبيان ذلك:

أنه في عام ٩٢٥هـ اشترى وكيل السلطان مظفر شاه الكجراتي بمكة المكرمة بيوتاً عديدة بلغت قيمة جميعها ستة آلاف ومائتين وخمسين ديناراً، وأوقفها على القراء في مدرسة شاهية المظفر.

وبعث السلطان مظفر شاه الكجراتي بنسخة المصحف الشريف التي نسخها بيده مع وفد رفيع المستوى من رجال دولته، وما إن وصل خبر وصول مراكب الهند إلى جدة وفيهم وفد السلطان حتى فرح الناس فرحاً شديداً، واحتفل بمقدمهم في ثاني يوم دخولهم، ونزل حاملاً على رأسه المصحف الشريف الذي وصل به، بخط السلطان مظفر شاه صاحب الصدقة العظيمة .. وأمر بوضع المصحف في المسجد الحرام.

يقول العلامة جار الله بن العز بن فهد: (وأما الصدقة الواصلة صحبتهم فهي عظيمة لم يسبق صاحبها، وهي كل لك^(١) بخمسة آلاف أشرفي، فمجموعها نحو ستين ألف دينار، ومنها ستة لكوك ونصف لأهل مكة، وأربعة لكوك ونصف لأهل المدينة المشرفة، غير قماش وبضائع. وهدايا للشريف.

(١) اللك معناه مائة ألف، وجمعه لكوك. وهو تعريب (لاكه) بالهندية. والأشرفي: اسم عملة ذهبية.



وقرر في خدمة المصحف بمكة كاتب هذه الرسالة، وجعلوا له في كل عام معلوم ستين ديناراً، ويوضع في المدرسة التي أمر السلطان بعمارها بمكة، وأرسل السلطان لكين تنكة غير الأحد عشر لكاً يشتري بها بيوت، وتعمر، وتوقف على المدرسة، ويقرر فيها عشرة أنفس شيخهم إمام الحنفية السيد عبدالله البخاري، وعشرة أنفس من الحنفية يدرسون بها، وشيخهم القاضي الحنفي .. وعشرة أنفس يقرأون القرآن، وشيخهم إمام الحنفية، ورتب لكل واحد منهم اثني عشر أشرفياً، ولشيخهم عشرين أشرفياً، وللداعي عشرة أشرفية) (١).

المطلب الثالث: الوقف على تعليم القرآن وتحفيظه؛

إن تعلم القرآن الكريم والقيام بتعليمه وبيان معانيه وأحكامه للناس من أفضل الأعمال وأجل القرب، يحظى متعلمه ومعلمه بالخير والفضل في الدنيا والآخرة، عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وفي رواية أخرى: «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه» (٢).

وقد حرص نبينا ﷺ على تبليغ هذا الدين ونشره بين العالمين،

(١) نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الوري، القسم الأول، ص ١٣٨-١٤٠.

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن: ٧٤/٩.



وبذل الجهود وصرف الأوقات من أجله، امتثالاً لأمر الله عز وجل بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(١)، وما أنزل إليه هو القرآن الكريم، وأوتي مثله معه وهي السنة المطهرة.

ولعنايته - عليه الصلاة والسلام - بتعليم الصحابة القرآن الكريم ورعايتهم صور متعددة وأمثلة متنوعة، ثم حرص سلفنا الصالح - رحمهم الله تعالى - ومن بعدهم ممن رغب في هذا الخير والفضل على تعلم القرآن وتعليمه، فاستثمروا أوقاتهم في ذلك وعملوا به مجالسهم وبذلوا جهودهم من أجله، وأوقفوا الأوقاف العظيمة من أجل استمرارية عطائه، وصور ذلك في سيرهم كثيرة.

ومن أشهر المؤسسات العلمية الرفيعة في العصر الحديث دار الحديث الحسنية بالمغرب، ففي عام ١٢٨٨هـ وقف الحاج إدريس بن الحاج محمد البجراوي قصره الرائع الأنيق على القرآن والحديث^(٢)، وقد جاء نص خطابه لدى إعلان الوقفية:

«إنني أحبس هاته الدار على القرآن والحديث، ولا أريد أن تكون في المستقبل إلا لهاته الغاية، ولا تحول إلى أية غاية أخرى، بحيث تركت الحق للورثة بالرجوع في هذا التحبيس فيما إذا أريد تحويلها عن غايتها».

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) الوقف في الفكر الإسلامي، ج ١، ص ٣٥٨.



قوبلت هذه الوقفية بالاستحسان، تجاوب فيها الملك الحسن ملك المغرب - رحمه الله، (وقد أجابه على لسانه الوزير المفضل الفقيه السيد الحاج أحمد بركاش بتأثر بالغ، وانفعال مثير، وهو يتسلم مفاتيح دار الحديث الحسنية بيد الشكر والتقدير، وقال: إنني جئت مرسلًا من قبل صاحب الجلالة الملك المعظم جلاله الحسن الثاني حفظه الله لأتسلم الدار، وأنه يعدكم بأن الدار ستبقى موقوفة على القرآن، والسنة، والحديث، ولا تتحول إلى أي هدف آخر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين»^(١).



(١) الوقف في الفكر الإسلامي، ج ١، ص ٣٥٨.



الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

ففي نهاية هذا البحث أوجز ما مضى فيما يلي:

- اختلف الفقهاء في تعريف الوقف وسبب ذلك اختلافهم في تحديد طبيعة الوقف ولزومه أو عدم لزومه ونحو ذلك.
- الأدلة على مشروعية الوقف من الكتاب والسنة كثيرة، متنوعة الدلالة، حاثّة عليه مرغبة فيه.
- تطبيقات الوقف العملية في عهد النبي ﷺ، وما بعده كثيرة، فقد وقف - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه من بعده، حتى قال جابر: «لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف».
- للوقف في الإسلام خصوصية لا توجد في غيره، من حيث امتداد خيره ونفعه، وعدم اقتصره على أماكن العبادة فقط، بل امتد نفعه إلى عموم أوجه الخير في المجتمع، وشملت منافعه غير المسلمين كأهل الذمة.
- أقبل المسلمون عبر تاريخهم الطويل على إقامة الأوقاف المتنوعة في مجالات مختلفة ابتغاء ما عند الله ونفعاً لإخوانهم المسلمين.



- شرع الوقف لمصالح لا توجد في سائر الصدقات؛ لأنها تفنى فيما تنفق فيه، بعكس الوقف فإن عطاءه دائم وخيره متدفق، تنتفع منه الأجيال على مر السنين.
- الوقف أحد أبرز سمات المجتمع المسلم، ومن أسباب ترابطه وتلاحمه، وإحساس كل بمسؤوليته تجاه الآخر.
- لعب الوقف دوراً هاماً في مكافحة الفقر ومساعدة الفقراء والمساكين وعمارَة المساجد وصيانتها وإنشاء المدارس والمستشفيات والطرق، وكفالة طلبة العلم والأيتام، وفي خدمة القرآن الكريم من جميع الجوانب وغير ذلك، والدارس للوقف في الحضارة الإسلامية يرى صوراً من هذا التنوع المبارك.
- للوقف أركان أربعة لا يتم إلا بها: الواقف والموقوف والموقوف عليه والصيغة.
- لكل ركن من هذه الأركان شروط معتبرة، لا بد من مراعاتها والالتزام بها، وقد بين أهل العلم ذلك وضرّبوا له الأمثلة الكثيرة من واقع الأوقاف في أزمنتهم.
- للوقف أنواع كثيرة حسب أقسامه المتعددة، فمن حيث استحقاق المنفعة ينقسم إلى الوقف الأهلي (الذري) والوقف الخيري العام، ومن حيث اعتبار المحل الموقوف ينقسم إلى وقف العقار، ووقف المنقول، ووقف النقود، وقد بين أهل



- العلم حكم هذه الأقسام، وتفاصيل ذلك.
- هناك الكثير من الطرق والأساليب الداعمة للوقف وإرجاعه إلى دوره الرائد في دعم الأعمال الخيرية، ولكل مكان وزمان ما يناسبه منها، كما أنها تشترك في جملة منها.
 - من مميزات رسالة القرآن وخصائصها أنها عالمية، فليست مقصورة على قوم أو جنس أو زمان أو مكان، بل هي هداية ونور للعالمين، وهذا يستوجب على حملته والمعتنين به تبليغ رسالته وبيانها للناس ودعوتهم إليها.
 - وصف الله كتابه القرآن الكريم بأنه هدى في سبعة وأربعين موضعاً من القرآن، فهو هدى من الكفر والشرك إلى الإسلام والإيمان، وهو هدى من الظلم والجور إلى العدل والقسط، ومن الحيرة والشك والقلق إلى اليقين والطمأنينة.
 - البشرية الآن في أمس الحاجة إلى هداية القرآن والاستضاءة بنوره، لما تعانيه من ظلم وقلق، وحيرة واضطراب، فالواجب كبير تجاه أداء هذه الأمانة والقيام بهذه المسؤولية.
 - إذا كانت مجالات الوقف متعددة فإن أولها وأهمها ما جعل في تعليم القرآن الكريم وتحفيظه وإقامة المدارس والحلقات من أجله.



- احتفظ التاريخ الإسلامي بصفحات مشرقة من سخاء الخلفاء والسلاطين وأثرياء المسلمين بما رصدوه من الأموال والعقارات على التعليم بعامة، وعلى تعليم القرآن خاصة.
- تنوعت مقاصد الواقفين على القرآن الكريم، إما على تلاوته وقراءته، وإما على تعليمه وتحفيظه، وإما على مدارسه وحلقاته ومعلميه.





ثبت المصادر والمراجع

- الأحكام السلطانية، للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي، صححه وعلق عليه الشيخ محمد حامد الفقي، من مطبوعات الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المملكة العربية السعودية - طبعة دار الوطن، الرياض.
- الأحكام السلطانية والولايات المدنية للقاضي أبي الحسن علي بن محمد حبيب الماوردي - طبعة مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين المختار الشنقيطي - طبعة صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبدالعزيز - المطابع الأهلية للأوقفت - الرياض ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين - أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، راجعه وقدم له وعلق عليه، طه عبدالزؤوف سعد، طبعة دار الجيل، بيروت: ١٣٩٧م.
- إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام - عبدالله غازي -



مصور خاص.

- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام
المبجل أحمد بن حنبل الشيباني، للشيخ علاء الدين أبي
الحسن المرदाوي - تصحيح وتحقيق محمد حامد الفقي. طبعة
مكتبة السنة المحمدية - مصر - الطبعة الأولى: ١٣٤٧هـ.
- تفسير القرآن - عبدالرزاق بن همام الصنعاني - تحقيق
مصطفى مسلم محمد - مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة
الأولى: ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- تفسير القرآن العظيم - عبدالرحمن بن محمد بن أبي حاتم -
تحقيق أسعد محمد الطيب - مكتبة الباز - مكة المكرمة
- الرياض - الطبعة الثانية: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء إسماعيل بن كثير - دار
المعرفة - بيروت، بدون.
- تهذيب اللغة - محمد بن أحمد الأزهرى - تحقيق عبدالسلام
هارون، الدار المصرية، مطابع سجل العرب، بدون.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن - أبو جعفر محمد بن جرير
الطبري، دار المعرفة بيروت، الطبعة الرابعة: ١٤٠٠هـ -
١٩٨٠م.



- الجامع لأحكام القرآن، للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ.
- حاشية علي العدوي على شرح الخرخشي على مختصر خليل - طبعة دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.
- حاشية رد المحتار شرح تنوير الأبصار، للشيخ محمد أمين الشهير بابن عابدين، طبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثالثة: ١٤٠٤هـ.
- دور القرآن في دمشق - محمد صلاح الدين منجد - الطبعة الثالثة، دار الكتاب الجديد - بيروت، سنة: ١٩٨٢م.
- روضة الطالبين وعمدة المفتين، للإمام أبي زكريا النووي، أشرف على طبعه زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثالثة: ١٤١٢هـ.
- سنن أبي داود - أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني - عناية محيي الدين عبدالحميد - دار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون.
- سنن الترمذي الجامع الصحيح؛ لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر - طبعة دار



- الكتب العلمية، بيروت، لبنان - بدون.
- شرح الزركشي على مختصر الخرقى في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، للشيخ شيخ شمس الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق د. عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين - طبعة دار أولي النهى - بيروت - الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ.
 - شرح السنة، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش - طبعة المكتب الإسلامي - الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ.
 - شرح النووي على صحيح الإمام مسلم - طبعة دار الريان للتراث - القاهرة - الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ.
 - الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) إسماعيل بن حماد الجوهري - دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
 - صحيح البخاري، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري - ضبط وترقيم وتخرىج د. مصطفى ديب البغا، طبعة دار ابن كثير - دمشق، دار اليمامة، الطبعة الخامسة: ١٤١٤هـ.
 - صحيح سنن ابن ماجه - محمد ناصر الدين الألباني_إشراف



- زهير الشاويش - مكتب التربية العربي لدول الخليج -
الطبعة الثالثة: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري
النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء
التراث العربي، بيروت، لبنان.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن حجر
العسقلاني، طبعة دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى:
١٤٠٧هـ.
- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن
منظور الإفريقي - طبعة دار صادر ودار الفكر، بيروت،
الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ.
- المسند - أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي، بيروت،
الطبعة الخامسة: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- المغني، لموفق الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة،
تحقيق د. عبدالله التركي، ود. عبدالفتاح الحلو، دار هجر
للطباعة، الطبعة الثانية: ١٤١٢هـ.
- مكة المكرمة في القرن الرابع عشر الهجري، محمد عمر
رفيع المكي، الطبعة الأولى، نادي مكة الثقافى: ١٤٠٤هـ -
١٩٨٤م.



- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد بن عبدالعظيم الزرقاني، دار الفكر ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى - جار الله بن السفر - تحقيق محمد الحبيب الهيلة - مؤسسة الفرقان - لندن، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- الوقف في الفكر الإسلامي - محمد بن عبدالعزيز بن عبدالله - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- الوقف وأثره في تنمية موارد الجامعات - أ.د/ سليمان بن عبدالله أبا الخيل - مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.





نداء الله نبيه الكريم في آي الذكر الحكيم^(١)

(١) بحث محكم منشور في مجلة البحوث الإسلامية الصادرة عن الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء، العدد: (٦١) سنة ١٤٢١هـ..



المقدمة

الحمد لله رب العالمين إله الأولين والآخرين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن الله عز وجل قد أنعم على هذه الأمة وامتنَّ عليها بأن أرسل إليها أفضل رسله وخيرته من خلقه وأنزل عليه القرآن الكريم هدى ونوراً، ضياءً وشفاءً، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

بعثه الله عز وجل بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً، وجعله رحمته المهداة ونعمته المسداة، ففتح الله به أعيناً عمياً وقلوباً غلفاً وآذاناً صماً، أنار به الطريق وأوضح به المحجة، وأوجب على الأمة محبته وطاعته واتباع سنته وألا يُعبد جل وعلا إلا بما شرع. وقد بذل - عليه الصلاة والسلام جهده ووقته وما يملك في بيان الدين ودعوة الناس إليه، حتى تركهم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.



وقد عظم الله عز وجل منزلة رسوله - عليه الصلاة والسلام - عنده وأعلى قدره، وخصه بفضائل ومحاسن تدل على شرفه ورفعة مكانته، وأثنى عليه بها وأثابه عليها الجزاء الأوفى، وإن العلم بما خصه الله به من الفضائل الكريمة والمحاسن الجميلة والأخلاق الحميدة وتأييده بالمعجزات الباهرة والبراهين الواضحة ليغرس في القلوب محبته والإيمان به، ويوجب على الأمة طاعته والتمسك بسنته، والسير على نهجه واقتفاء أثره، والتحاكم إليه وإلى سنته في كل شأن من شؤون الحياة، عن إيمان راسخ وحب صادق، يقول تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١).

ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢).

وفي القرآن الكريم آيات بينات دالة على عظيم قدره وعلو منزلته عند ربه جل وعلا، منها أن الله عز وجل نادى أنبياءه بأسمائهم، أما هو فقد ناداه بوصفه الشريف «الرسول» في موضعين من القرآن، و«النبي» في ثلاثة عشر موضعاً، وناداه بوصف مشتق من حالته التي كان عليها «المزمل»، «المدثر» لطفاً به وتأنيساً له وشفقة عليه.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣١.



فجاء هذا البحث لدراسة هذه الآيات الكريمات التي تضمنت نداءه - عليه الصلاة والسلام - وما فيها من أحكام شرعية وأسباب نزول، وذكر أقوال المفسرين في معانيها والمراد بها وما اشتملت عليه من نكات بلاغية ولطائف أسلوبية، دالة على سمو مكانته وعلو مرتبته عند الله عز وجل، وجعلت عنوانه: «نداء الله نبيه الكريم في آي الذكر الحكيم». وقد سرت في كتابته حسب الخطة التالية:

- مقدمة.
- تمهيد وفيه مبحثان.
- المبحث الأول: رفعة قدره - عليه الصلاة والسلام - عند ربه عز وجل.
- المبحث الثاني: النداء في القرآن.
- الفصل الأول: أساليب نداء الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام.
- وفيه أربعة مباحث:
 - المبحث الأول: النداء بصفة الرسالة.
 - المبحث الثاني: النداء بصفة النبوة.
 - المبحث الثالث: النداء بصفات أخرى.



- المبحث الرابع: ما قيل إنه نداء للنبي ﷺ وهو ليس كذلك.
- الفصل الثاني: ما يعقب نداءه - عليه الصلاة والسلام - والمعاني التي تضمنها.
وفيه ثلاثة مباحث:
 - المبحث الأول: ما يعقب النداء في القرآن.
 - المبحث الثاني: ما يعقب نداءه - عليه الصلاة والسلام - في القرآن.
 - المبحث الثالث: المعاني التي تضمنها نداؤه - عليه الصلاة والسلام - في القرآن.
 - الفصل الثالث: خصائص نداء النبي ﷺ في القرآن.
وفيه ثلاثة مباحث:
 - المبحث الأول: نداؤه - عليه الصلاة والسلام - بالوصف لا باسمه العلم.
 - المبحث الثاني: التزام ندائه - عليه الصلاة والسلام - بـ ﴿يَا أَيُّهَا﴾.
 - المبحث الثالث: الفرق بين ندائه - عليه الصلاة والسلام - والإخبار عنه.
 - الخاتمة:



- ثبت المصادر والمراجع.

وقد قمت في هذا البحث بعزو الآيات إلى سورها وتخريج الأحاديث والآثار والحكم عليها بكلام أئمة العلم في ذلك، ووثقت الأقوال بعزوها إلى مصادرها وتركت تراجم الأعلام خوفاً من إطالة البحث مما هو عليه الآن.

أسأل الله عز وجل التوفيق والسداد والإخلاص في القول والعمل.
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



التمهيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول:

رفعة قدره – عليه الصلاة والسلام – عند ربه عز وجل:

لقد منَّ الله عز وجل على هذه الأمة بأن أرسل إليهم أفضل رسله وخيرته من خلقه، سيد الأولين والآخرين، المبعوث رحمة للعالمين والمخصوص بالشفاعة العظمى يوم الدين، إمام الأنبياء وخاتم الرسل – عليهم السلام – صاحب اللواء المعقود والحوض المورود والمقام المحمود، هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة، بعثه الله عز وجل رحمة للعالمين، فألزم جميع الخلق الإيمان به وطاعته واتباع سنته واقتفاء أثره إلى يوم الدين.

اصطفى الله سبحانه نبينا محمداً ﷺ من خلقه وأعلى قدره وعظم منزلته، وفضله على خلقه، وخصه بفضائل لم تكن لغيره، وكرمه بخصائص انفرد بها ﷺ عن غيره من الأنبياء والرسل – عليهم السلام – فمما جاء في القرآن مما يدل على عظيم قدره ورفعة منزلته عند ربه.



- أن الله عز وجل أخذ العهد له على جميع الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - إن بعث هو - عليه الصلاة والسلام - وهم أحياء أو أحد منهم وجب عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه، وأن يأخذوا هذا العهد على جميع أممهم إن بعث - عليه الصلاة والسلام - وجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ (١)

قال بعض المفسرين: «ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه» (٢).

- أنه - عليه الصلاة والسلام - أول المسلمين وخاتم النبيين، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣٧٨/٢.



الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (٢)، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلاً وضعت هذه اللبنة، قال: فإننا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (٣).

- كونه - عليه الصلاة والسلام - منة الله عز وجل على عباده، فلا هداية لهم إلا على يديه وعن طريقه الداعي إليه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤).

- أن طاعته ومبايعته - عليه الصلاة والسلام - هي طاعة

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح - كتاب المناقب - باب خاتم النبيين ﷺ ٥٥٨/٦، برقم: ٣٥٣٥، واللفظ له، ورواه مسلم في صحيحه - كتاب الفضائل - باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين: ٦٤/٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.



الله عز وجل ومبايعته، وقرن بين طاعته سبحانه وطاعة رسوله - عليه الصلاة والسلام - وجعل اتباعه - عليه الصلاة والسلام موجبا لمحبهه سبحانه، والأدلة على هذه كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (٨٠) ^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (٢) ^(٢)، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتُّمَّ تَسْمَعُونَ﴾ (٣٠) ^(٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣١) ^(٤).

- أن الإيمان به - عليه الصلاة والسلام - مقرون بالإيمان بالله تعالى، فلا يصح إيمان من لم يؤمن برسول الله ﷺ وإن ادعى الإيمان بالله تعالى، بل لا بد من وجود الإيمان بالله تعالى والإيمان برسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (٥) ^(٥)، وقال

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٣٦.



تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢).

- أن الله جعله رحمة مهداة للعالمين مؤمنهم وكافرهم، كما جعله رؤوفاً رحيماً بأمتة خاصة، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣)، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤).

- أن الله عز وجل جعل وجوده - عليه الصلاة والسلام - بين أمتة أمنة لهم من العذاب والهلاك، بخلاف ما حصل لبعض الأمم السابقة حيث عذب بعضهم وأهلك آخرون مع وجود أنبيائهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٥).

- أن الله عز وجل جعل رسالته - عليه الصلاة والسلام -

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

(٢) سورة التباين، الآية: ٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.



عامة لكل الناس، بخلاف ما كان عليه الأنبياء والرسل السابقون - عليهم وعليه الصلاة والسلام - فقد كانوا يرسلون إلى أقوامهم خاصة، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٢)، وعن جابر - رضي الله عنه - عنه ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يُعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحرر وأسود - وفي البخاري - وبعثت إلى الناس عامة - وأُحلت لي الفنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجُعِلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأبما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة» (متفق عليه واللفظ لمسلم) (٣).

- أن الله عز وجل تكفل بحفظه وعصمته، كما كفاه المستهزئين فلا يصلون إليه، وتكفل أيضاً بحفظ دينه من التبديل والتحريف، ليكون باقياً سليماً معجزاً، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح كتاب «التيمم»، الباب الأول: ١/ ٤٣٥، برقم: ٣٣٥، ورواه مسلم في صحيحه «كتاب المساجد ومواضع الصلاة»، ٢/ ٦٣.



فَفَعَلَ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿١﴾ ،
 وقال تعالى: ﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ إِنَّا
 كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ
 نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ ﴾ .^(٣)

- القسم بحياته، ولا يعرف هذا لغيره من الأنبياء، قال
 تعالى: ﴿ لَعَنَّاكَ إِنَّهُمْ لَغِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ .^(٤)

كما أن الله تعالى أقسم له ﷺ وهذه غاية التعظيم والتقدير،
 قال تعالى: ﴿ وَالصُّحْحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
 وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْحَمَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ .^(٥)
 وقال سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾
 وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ .^(٦)

- أن الله عز وجل غفر له - عليه الصلاة والسلام - ما
 تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو حي صحيح يمشي على
 الأرض، قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧ .

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٩٤، ٩٥ .

(٣) سورة الحجر، الآية: ٩ .

(٤) سورة الحجر، الآية: ٧٢ .

(٥) سورة الضحى، الآيات: ١-٥ .

(٦) سورة النجم، الآيات: ١-٤ .



مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكُمْ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِئْسَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيُضْرِكُ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴿١﴾

- شهادة الله عز وجل وملائكته له ﷺ أنه أنزل عليه الكتاب بالحق وأنه المرسل للناس كلهم، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٣٨﴾ ﴿٢﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٣﴾.

- أن الله عز وجل لم يناده باسمه كما نادى غيره من الأنبياء وإنما ناداه بوصفه الشريف «الرسول» أو «النبي»، أو ما هو مشتق من حالته التي كان عليها وهما «المزمل»، «المدثر».

وهذا هو محل الدراسة في هذا البحث، لبيان معاني الآيات التي تضمنت نداء الله عز وجل إياه وتفسيرها ومعرفة الأحكام التي تضمنتها، وما اشتملت عليه من نكات بلاغية ولطائف بيانية وأسرار أسلوبية.



(١) سورة الفتح، الآيات: ١-٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٦.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٨.



المبحث الثاني:

النداء في القرآن الكريم

للنداء مكانة بارزة في اللغة، فله دوره في الحياة البشرية ووظيفته في التواصل بين الناس، إما للحوار بينهم وإما لأغراض أخرى تفهم من السياق، وافتتاح الكلام بالنداء دليل على الاعتناء بما سيلقى على المخاطب، وكأنه يعد نفسه ويهيئها لتلقي ما يقال له.

وتعريفه - كما يقول النحويون: «هو طلب المتكلم إقبال المخاطب بواسطة أحد حروف النداء، ملفوظاً كان حرف النداء أو ملحوظاً»^(١).

وحروفه ثمانية: الهمزة المقصورة مثل: أمحمد، الهمزة الممدودة مثل: أمحمد، أي المقصورة، أي الممدودة، يا، أيا، هيا، وا، وتستعمل في الندبة لا غير.

و(يا) أكثر حروف النداء استعمالاً، وقد ذكر بعض العلماء أنه لم يأت في القرآن نداء بغير يا، ولذلك لا يقدر غيرها من حروف النداء عند الحذف، قال ابن إياز: «القرآن المجيد مع كثرة النداء

(١) ينظر: شرح التصريح على التوضيح: ١٦٣/٢.



فيه لم يأت فيه نداء بغير (يا)» (١) ، وذكر نحوه ابن هشام (٢) .

لكن ذكر الشيخ محمد عبدالخالق عضيمة آيتين، احتملت بعض القراءات فيها أن تكون الهمزة للنداء، وذلك في قوله تعالى:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ ۖ إِنَّآءَ الْبَلِّ سَاجِدًا ۖ وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ۖ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ ﴾ (٣) ،

حيث قرأ ابن كثير ونافع وحمزة (آمن) بتخفيف الميم، وقرأ الباقر بتشديدها (٤) .

قال الفراء: «وفسروها، يريد: يا من هو قانت، وهو وجه حسن. العرب تدعو بألف كما تدعو بيا، فيقولون: يا زيد أقبل وأزيد أقبل» (٥) .

وأيضاً قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ زَيْنَ لَّهُمْ سَوْءَ عَمَلِهِمْ ۖ فَرَّآهُ حَسَنًا ۗ ﴾ (٦) ،

حيث قرأ طلحة (آمن) بغير فاء، قيل: «يجوز أن تكون بمعنى حرف النداء» (٧) .

لكن رد هذا والذي قبله بأنه ليس في التنزيل نداء بغير يا، ولا يخلو من تكلف وكثرة حذف.

(١) ينظر: الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي: ١٣١/٢ .

(٢) ينظر: مغني اللبيب: ١٣/١ .

(٣) سورة الزمر، الآية: ٩ .

(٤) ينظر: كتاب السبعة ٥٦١، التبصرة في القراءات السبع ٦٥٨، النشر ٣٦٢/٢ .

(٥) معاني القرآن: ٤١٦/٢ .

(٦) سورة فاطر، الآية: ٨ .

(٧) ينظر: البحر المحيط: ٣٠١/٧ .



ويرى بعض الباحثين أن السر في إثارة القرآن لحرف النداء (يا) هو «أن هذه الأداة الوسيلة الطبيعية في النداء، إذ هي أكثرها استعمالاً عند الخاصة العامة؛ ولأنها أمّ الباب، ولأنها أخف أحرف النداء في النطق؛ لأنها تبدو في خفة حركتها كأنها صوت واحد، لانطلاق اللسان بها دون أن يستأنف عملاً»^(١)، وقد ذكر الشيخ محمد عبدالخالق عزيمة أنه بعد استقراء الآيات التي ورد فيها النداء ظهر له ما يلي:

- ١- نادى الله تعالى جميع أنبيائه ورسوله بأسمائهم، ونادى نبينا محمداً ﷺ بوصفه الشريف، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّزِيقُ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدْرِزُ﴾ .
- ٢- المنادى المضاف هو أكثر الأنواع في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿يَتَاهَلْ الْكِتَابَ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾^(٢) .
- ٣- جاء نداء النكرة المقصودة في بضع مواضع، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْرَضُ أَبْلَى مَاءٍ كِ وَنَسَمَاءٍ أَقْلَى﴾^(٣) ، أما نداء النكرة غير المقصودة فقد جاء في موضع واحد على الاحتمال،

(١) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ٨/٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٤.

وكذلك نداء الشبيه بالمضاف جاء في موضع واحد على الاحتمال، وهو قوله تعالى: ﴿يَحْضَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٠) (١)، فإنه محتمل لهما ولغيرهما.

٤- الكثير في القرآن حذف (يا) النداء مع نداء (رب)، وقد ذكرت (يا) في موضعين، هما قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠) (٢)، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلِ يَا رَبِّ إِنَّ هَذَا قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) (٣)، وحذفت (ياء) في نداء الرب في خمسة وستين موضعاً.

٥- وقع المنادى بالياء في أثناء الجملة وفي ختامها، كقوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤). وكقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَمِيرِيُّ﴾ (٩٥) (٥) (٦).

(١) سورة يس، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٨.

(٤) سورة النور، الآية: ٣١.

(٥) سورة طه، الآية: ٩٥.

(٦) دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٣/١، ٦٢٤، ٦٢٥.



إن النداء له وجوهه البلاغية وأسواره الأسلوبية، يتبين ذلك فيما يلي:

(١) في النداء إقامة علاقة مع شخص آخر، إما للحوار معه وإما لأغراض أخرى تفهم من سياق الكلام.

(٢) فيه حث على الاهتمام بموضوع الكلام ودعوة للتبصر فيه، مما يعطي المضمون قيماً رُمى إليها المنادى، قال العز بن عبدالسلام: «النداء تنبيه للمنادى ليسمع ما يلقي إليه بعد النداء من الكلام ليعمل بمقتضاه، ولذلك كثر النداء في القرآن»^(١).

(٣) فيه توجيه الأنظار إلى المنادى وتركيز الاهتمام حوله.

(٤) أن فيه ضرباً من الإيجاز واختصاراً للكثير من الكلام.

(٥) أن فيه تلويحاً للكلام والتفاتاً بليغاً يرغب في استمالة المخاطب، ويبعث الاطمئنان في نفس السامع^(٢).

وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي إلى معانٍ أخرى تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال، ومما ورد في القرآن:

(١) ينظر: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، ص ٣٣٣.

(٢) ينظر: النداء في اللغة والقرآن: ١٦٠، ١٦١.



- ١- إظهار التحسر، كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ (١).
- ٢- الإهانة، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَأَنكُم أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمَكِيدُونَ ﴾ (٢).
- ٣- إظهار الشفقة والعطف، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَأْتُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُم مِّنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (٣).
- ٤- التأنيس والتلطف، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرِّمَالُ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَرِّرُ ﴾ ، وغير ذلك.



(١) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٥١.

(٣) سورة الصف، الآية: ٥.

الفصل الأول:
أطيب نداء الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام



المبحث الأول:

النداء بصفة الرسالة

جاء في آيتين:

١- قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّر قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ (١).

جاء في سبب نزول الآية أقوال منها:

أولاً: عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: «مرّ على النبي ﷺ بيهودي محمماً (٢) مجلوداً فدعاهم ﷺ، فقال: «هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم»، قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على

(١) سورة المائدة، الآية: ٤١.

(٢) عمماً: مسوداً وجهه بالفحم، القاموس (حم) ١٠١/٤.

موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثير في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم»، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: اثبتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١)، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢)، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣)، في الكفار كلها»^(٤).

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

(٤) رواه مسلم مع شرح النووي في صحيحه «كتاب الحدود» باب حد الزنا، ٢٠٩/١١.



ثانياً: أنها نزلت في أقوام من اليهود قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا نتحاكم إلى محمد، فإن حكم بالدية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه^(١)، قاله ابن عباس.

ثالثاً: أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر بقوله لبني قريظة حين حاصرهم النبي ﷺ: «إنما هو الذبح فلا تنزلوا على حكم سعد» قاله السدي^(٢)، والصحيح القول الأول.

في هذه الآية نداء من الله عز وجل لنبيه - عليه الصلاة والسلام ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾، تشریفاً له ورفعاً لقدره وبياناً لعلو منزلته، حيث لم يناده باسمه العلم، وفي هذا تعليم وتأديب للمؤمنين، يتضمن النهي عن مخاطبته باسمه، والأمر بأن يخاطبوه بوصفه، وهكذا كان يدعو الصحابة. ولما جهل هذا الأدب بعض الأعراب لما كانوا عليه من خشونة البادية وجفائها فكانوا ينادونه باسمه (يا محمد) أنزل الله عز وجل: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ لِيُنَادِيَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾^(٣) .. الآية^(٤).

وقد نهى الله عز وجل رسوله ﷺ في هذه الآية عن الحزن والأسى

(١) ينظر: جامع البيان ٦/ ١٥٠، تفسير القرآن العظيم: ٥٨/٢، الدر المنثور ٣/ ٧٤، ٧٥.

(٢) ينظر: جامع البيان ٦/ ١٤٩، ١٥٠، الدر المنثور ٣/ ٧٨.

(٣) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٤) ينظر: لباب القول ١٦٢، التفسير الكبير: ١١/ ٢٣٨، البحر المحيط: ٣/ ٤٨٧.



على كفر هاتين الطائفتين، المنافقين ﴿الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ (١)، أي: أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، فإن الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يبيع به بدلا.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ ، أي: اليهود ﴿سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ﴾ ، أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم وأئمتهم، المبني أمرهم على الكذب والضلال والغي، وهؤلاء الرؤساء والأئمة المتبعون ﴿لَمْ يَأْتُواكَ﴾ بل أعرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ ، أي: يتأولونه على غير تأويله الحق، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِينَا هَذَا فَخُدُّوه وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ ، أي: يقول بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق هواكم فاقبلوا حكمه، وإن لم يحكم لكم به فاحذروا أن تتبعوه على ذلك.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٢)، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾

(١) سورة المائدة، الآية: ٤١.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٦.



فلذلك صدر منهم ما صدر من اتباع الهوى والإعراض عن الحق، ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ﴾ أي: فضيحة وعار، ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، أي: النار وما فيها (١).

٢- قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧) (٢).

جاء في سبب نزول هذه الآية أقوال منها:

أولاً: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً نظروا أعظم شجرة يرونها فجعلوها للنبي ﷺ فينزل تحتها، وينزل أصحابه بعد ذلك في ظل الشجر، فبينما هو نازل تحت شجرة وقد علق السيف عليها إذ جاء أعرابي فأخذ السيف من الشجرة، ثم دنا من النبي ﷺ وهو نائم فأيقظه، فقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال النبي ﷺ: «الله»، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧) (٣).

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم: ٥٨/٢، ٥٩، تفسير التحرير والتنوير: ٦/١٩٤، ١٩٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٣) رويت هذه القصة بالفاظ متقاربة في: جامع البيان ٦/١٩٨، ١٩٩، تفسير القرآن العظيم: ١٩/٢، الدر المنثور، ٣/١١٩، ١٢٠، وقد حسن الشيخ مقبل الوداعي إسناد هذه الرواية بهذا اللفظ في الصحيح المسند من أسباب النزول: ٦٠.



ثانياً: عن عائشة - رضي الله عنهما - قالت: «سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقلت: يا رسول الله ما شأنك؟ قال: «ألا رجل صالح يحرسنا الليلة؟» فبينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح، فقال: من هذا؟ قال سعد وحذيفة: جئنا نحرسك، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطة، ونزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة آدم، وقال: «انصرفوا يا أيها الناس، فقد عصمني الله» (١).

ثالثاً: ما رواه الحسن البصري ومجاهد وابن جريح: أن النبي ﷺ كان يهاب قريشاً ويخشى تكذيبهم إياه، فأنزل الله هذه الآية (٢).

في هذه الآية نادى ربنا عز وجل نبيه ﷺ بوصفه ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ ، ثم أمره بتبليغ ما أنزل إليه، فكان نداؤه بهذا الوصف في غاية المناسبة، حيث اصطفاه الله عز وجل وشرفه وأعلى قدره، وحمله تبليغ هذا الدين ودعوة الناس إليه، معتصماً به سبحانه، واثقاً بنصره وإعانتته، معرضاً عما سواه.

(١) جاء الحديث بهذا اللفظ في أسباب النزول للواحد ٢٣٣، ٢٣٤، ورواه الطبري مختصراً في تفسيره ١٩٧/٦، وكذا الحاكم في المستدرک «كتاب التفسير» ٣١٣/٢، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، والحديث في صحيح مسلم كتاب «فضائل الصحابة - رضي الله عنهم» باب فضل سعد بن أبي وقاص ١٢٤/٧، لكن بدون ذكر نزول الآية.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٩٨/٦، أسباب النزول للواحد ٢٣٢، ٢٣٣، الدر المشور: ١١٧، ١١٦/٣.



والمراد بقوله: ﴿يَلْبِغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الديمومة في ذلك وألا يتوقف عند أي عارض، غير مراقب في ذلك أحداً، ولا خائف أن يناله مكروه أبداً^(١).

قال ابن عاشور: وفي الإتيان بمضير المخاطب في قوله: ﴿إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إيماء عظيم إلى تشریف الرسول ﷺ بمرتبة الوساطة بين الله والناس، إذ جعل الإنزال إليه ولم يقل إليكم أو إليهم، كما قال في آية آل عمران: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ﴾^(٢)، وقوله: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٣). وفي تعليق الإنزال بأنه من الرب تشریف للمنزل.

والإتيان بلفظ الرب هنا دون اسم الجلالة؛ لما في التذكير بأنه ربه من معنى كرامته، ومن معنى أداء ما أراد إبلاغه كما ينبغي من التعجيل والإشاعة، والحث على تناوله والعمل بما فيه.

وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(٤)، أي: إذا لم تبلغ جميع ما أنزل إليك، فتركت بعضه لم تكن مبلغاً رسالته؛ لأن كتمان البعض مثل كتمان الجميع في الاتصاف بعدم التبليغ، وجاء

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/١٥٤، ١٥٥، البحر المحيط: ٣/٥٢٨، روح المعاني: ٦/١٨٨، تفسير التحرير والتنوير ٦/٢٥٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩.

(٣) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٧.



الشرط ب(إن) التي شأنها في كلام العرب عدم اليقين بوقوع الشرط؛ لأن عدم التبليغ غير مضمون به ﷺ وإنما فرض هذا الشرط ليبنى عليها الجواب، وهو قوله: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ، افتتح باسم الجلالة للاهتمام به؛ لأن المخاطب والسامعين يترقبون عقب الأمر بتبليغ كل ما أنزل إليه أن يلاقي عنثاً وتكالباً عليه من أعدائه، فافتتح تطمينه بذكر اسم الله؛ لأن المعنى هذا ما عليك، وأما ما علينا فالله يعصمك، والعصمة هنا: الحفظ والوقاية من كيد أعدائه، وقد جاء الوعد بها في القرآن أيضاً، قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ﴾ (١)(٢).

وقد يقال: أين ضمان العصمة وقد شج وجهه - عليه الصلاة والسلام - في غزوة أحد وكسرت ربايعيته (٣) ؟

قيل: المراد أنه يعصمه من القتل وأما ما دون ذلك من أنواع الأذى فذلك مما ناله - عليه الصلاة والسلام - ليكون قدوة وأسوة لأُمَّته. وفيه التنبيه على أنه يجب عليه أن يتحمل كل ما دون النفس من أنواع البلاء، وقيل: إن الآية نزلت بعد يوم أحد (٤).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٢٥٩/٦، ٢٦٢، بتصرف.

(٣) روى ذلك البخاري في صحيحه مع الفتح، كتاب: «الغزاي» باب قوله تعالى: ﴿لَيْسَ

لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ، ٣٦٥/٧، ومسلم في صحيحه - كتاب الجهاد والسير - باب

غزوة أحد: ١٧٨/٥، ١٧٩.

(٤) ينظر: الكشاف ١/٦٣١، التفسير الكبير: ٥٣/١٢، تفسير التحرير والتنوير: ٢٥٧/٦.



وقد أعيد افتتاح الخطاب لنبينا ﷺ بوصف الرسول إشعاراً بمنتهى شرفه، ولهذا الوصف في هذا الخطاب الثاني موقع زائد على موقعة في الخطاب الأول^(١)، فكما ثبت جناحه بالخطاب الأول ألا يهتم بمكائد أعدائه ومسارعتهم في الكفر وإعراضهم عنه، حذر بالخطاب الثاني من ملاينتهم في إبلاغهم قوارع القرآن وأحكامه وشرائعه، خشية إعراضهم أو أذاهم^(٢).

وهنا ذكر بعض الباحثين: أنه يتجه النداء في القرآن الكريم إلى رسولنا - عليه الصلاة والسلام - بصيغة (يا أيها الرسول) حينما يكون الحديث عن رسالته العامة، أو عما يعترضها من معوقات، وذلك كما في هاتين الآيتين، ويتجه النداء بصيغة (يا أيها النبي) فيما عدا الحالين السابقين ذكرهما، وذلك حينما يكون الغرض توجيه الرسول - عليه الصلاة والسلام - في شأن عام أو خاص به وبأهله، وذلك في ثلاث عشرة آية^(٣).



(١) وهو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ سورة المائدة، الآية: ٤١.

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير ٦/ ٢٥٧.

(٣) ينظر: مجلة كلية اللغة العربية العدد الثامن ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، نداء المخاطبين في القرآن أسرارهِ وبلاغته للدكتور علي عبدالواحد وافي ٩١.



المبحث الثاني:

النداء بصفة النبوة

جاء ذلك في ثلاث عشرة آية:

١- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّوْءُ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤) (١)، في هذه الآية نداء للنبي ﷺ بوصف النبوة إشعاراً برفعة قدره وعلو منزلته، واعتناء بمضمون الخطاب وما يدل عليه من أوامر وتعاليم عظيمة، مهد لقبولها وتسهيلها بما سبق في السورة من التذكير بعجيب صنع الله والامتنان بعنايته برسوله والمؤمنين، وأن الفلاح والخير في طاعة الله عز وجل وطاعته (٢).

وفي معنى الآية قولان:

أحدهما: أن الله كافيك وحافظك وناصرك ومؤيدك وكافي أتباعك المؤمنين وناصرهم فلا تحتاجون مع الله إلى أحد، وهذا قول جمهور السلف والخلف، وهو اختيار المحققين من أهل العلم (٣)،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

(٢) ينظر: روح المعاني ٣٠/١٠، تفسير التحرير والتنوير ٦٥/١٠.

(٣) ينظر: جامع البيان ٢٦/١٠، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٩٣/١-٣٠٦، تفسير القرآن العظيم: ٣٢٤/٢، المفردات ١١٧.



وهذا القول هو مقتضى كمال التوحيد، وهو كفاية الله له ولهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١)، فالحسبة مقتضى التوكل، وإنما يكون التوكل على الله وحده، كما قال لنبيه: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٢)، أي: عليه وحده، بدلالة تقديم الظرف، ومثله في هذا الحصر آيات كثيرة (٣).

الثاني: أن المعنى: حسبك الله، وحسبك من اتبعك من المؤمنين، فإن الله ينصرك بهم، وهذا قول مرجوح لما سبق (٤).

٢- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٥).

تكرر النداء مرة أخرى لنبينا ﷺ على هذا الوجه؛ تكريماً له ورفعة لقدره، وللتنويه بشأن الكلام الوارد بعد النداء، وإظهاراً

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

(٣) ينظر: تفسير المنار ١٠/٧٤.

(٤) ينظر: البحر المحیط ٤/٥١٥، ٥١٦، تفسير التحرير والتنوير ١٠/٦٥، تفسير المنار

١٠/٧٥، فتح المجيد ٣٦٣.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.



لكمال الاعتناء بشأن المأمور به، وهو المبالغة في الحث على القتال^(١)

خر لا يؤمن بالمعاد، والسعادة عنده ليست إلا هذه الحياة الدنيا فيشج بها، ولا يعرضها للزوال بمزاولة الحروب واقتحام موارد الخطوب، فيميل إلى ما فيه السلامة فيفر فيغلب، وأما من اعتقد أن لا سعادة في هذه الحياة الفانية، وإنما السعادة في الحياة الباقية فلا يبالي بهذه الحياة الدنيا، ولا يلتفت إليها، فيقدم على الجهاد بقلب قوي وعزم صحيح، فيقوم الواحد من مثله مقام الكثير^(٢).

ثم نسخ هذا الأمر في الآية بالآية التي بعدها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾^(٣).

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾^(٤) شق ذلك على المسلمين، حين فرض عليهم ألا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف، فقال: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ

(١) ينظر: روح المعاني ٣٠/١٠، تفسير التحرير والتنوير ٦٦/١٠.

(٢) ينظر: جامع البيان ٢٧/١٠، التفسير الكبير ١٩٩/١٥، روح المعاني ٣٠/١٠، ٣١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.



صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ﴿١﴾ ، قال: «فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم» (٢) .

٣- قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا تُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ (٣) .

هذه الآية والتي تليها: ﴿وَأَنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ (٤) ، متمتان للكلام في أسرى بدر، حيث أمر النبي ﷺ أن يرغبهم في الإسلام وبيان ما فيه من خيري الدنيا والآخرة، وبتهديدهم وإنذارهم على بقائهم على الكفر وخيانتهم ﷺ، ويتضمن ذلك البشارة بحسن العاقبة والظفر له ولن اتبعه من المؤمنين (٥) .

وقد جاء في سبب نزولها في أسارى بدر عدة ألفاظ، منها ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما قال: قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ﴾ ، كان العباس أسير يوم بدر فاقتدى

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٦ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح «كتاب التفسير» باب ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّكُمْ سَاعِقُونَ﴾ الآية: ٣١٢/٨ ، برقم: ٤٦٥٣ .

أَنَّكُمْ سَاعِقُونَ﴾ الآية: ٣١٢/٨ ، برقم: ٤٦٥٣ .

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٠ .

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٧١ .

(٥) ينظر: التفسير الكبير ٢١١/١٥، تفسير المنار: ١٠٠/١٠ .



نفسه بأربعين أوقية^(١) من ذهب، فقال العباس حين نزلت هذه الآية: لقد أعطاني الله خصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا، إني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية فأتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله^(٢)، والخطاب للعباس ولغيره^(٣).

أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول للأسرى الذين في يده وأيدي أصحابه ممن أخذوا منهم الفداء: إن يعلم الله في قلوبكم إسلاماً وتصديقاً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم من الفداء ويغفر لكم جرمكم الذي أجرتموه بقتالكم نبي الله وأصحابه وكفركم بالله، وإن يريدوا غدراً وخيانة بإظهار خلاف ما في أنفسهم، فقد خانوا الله من قبل حيث خالفوا أمره من قبل وقعة بدر، فأمكن منهم المؤمنون ببدر، والله عليم بما يقولون بألسنتهم ويضمرونه في نفوسهم، حكيم في تدبير أمور خلقه^(٤).

٤- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾^(٥).

في هذه الآية يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين

(١) أوقية: سبعة مثاقيل وأربعون درهماً، القاموس (وقى) ٤/٤٠١.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٠/٣٥، أسباب النزول ٢٧٦، ٢٧٧، الدر المنثور ٤/١١١-١١٣.

(٣) ذكر الرازي في التفسير الكبير ١٥/٢١١، ٢١٢ ستة أوجه من الآية للدلالة على أنها عامة.

(٤) ينظر: جامع البيان ١٠/٣٤-٣٦.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٧٣.



مع الغلظة والشدّة عليهم وعدم اللين معهم، وسبب أمره ﷺ بهذا؛ لأنه جُبل على الرحمة والرأفة بالأمة، فأمر بأن يتخلى عن جبلته في حق الكفار والمنافقين، وأن لا يفضي عنهم ويتسامح معهم كما كان شأنه من قبل، وجمع في الآية جهاد هاتين الفئتين لإلقاء الرعب في قلوبهم، فإن كل واحد منهم يخشى أن يظهر أمره فيعامل معاملة الكفار والمحاربين، فيكون ذلك قاطعاً لدابرههم ومستأصلاً لشوكتهم^(١).

أما جهاد الكفار فظاهر، وأما جهاد المنافقين فمختلف في المراد به؛ لأنهم غير مظهرين للكفر بل ظاهرهم الإسلام، وهم مع المسلمين في غالب أحوالهم، قال ابن عباس: «أمره الله بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم»^(٢).

وقال الحسن وقتادة: «جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحدود، أقم حدود الله عليهم»^(٣)، واستشكل هذا القول بأن إقامة الحدود واجبة على غيرهم أيضاً، فلا يختص ذلك بهم^(٤).

وقيل: جاهد الكفار والمنافقين معاً باليد واللسان وبكل ما أطاق جهادهم، روى الطبري عن عبدالله بن مسعود في قوله تعالى:

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير ١٠/٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) رواه الطبري في تفسيره ١٠/١٢٦.

(٣) رواه عنهما الطبري في تفسيره ١٠/١٢٦، ١٢٧.

(٤) ينظر: روح المعاني ١٠/١٣٧.



﴿جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ، قال: «بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلمه، فإن لم يستطع فليكفره في وجهه»^(١) ، واختار هذا القول الطبري ثم قال: «فإن قال قائل: فكيف تركهم ﷺ مقيمين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم؟

قيل: إن الله تعالى ذكره إنما أمر بقتال من أظهر منهم كلمة الكفر، ثم أقام على إظهاره ما أظهر من ذلك، وأما من إذا اطلع عليه منهم أنه تكلم بكلمة الكفر وأخذ بها أنكرها ورجع عنها وقال إني مسلم، فإن حكم الله في كل من أظهر الإسلام بلسانه أن يحقن بذلك له دمه وماله، وإن كان معتقداً غير ذلك، وتوكل هو - جل ثناؤه - بسرائرهم، ولم يجعل للخلق البحث عن السرائر»^(٢) .

فلا غرو إذاً أن يكون جهاد المنافقين فيه مشقة عظيمة؛ لأنه موقف وسط وخرج بين رحمته ﷺ ودينه مع المؤمنين المخلصين، وبين شدته في قتاله الأعداء الحربيين، مما يجب فيه إقامة العدل واجتتاب الظلم^(٣) .

٥- قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ

(١) ينظر: جامع البيان: ١٠/١٢٦.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٠/١٢٧، وذهب إلى هذا ابن كثير في تفسيره ٢/٣٧١.

(٣) ينظر: تفسير المنار: ١٠/٥٥١.



إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ (١)

في هذه الآية نداء من الله عز وجل لنبيه ﷺ بوصفه الشريف (النبي) وترك نداءه باسمه كرامة له وتشريفاً وإعلاءً لمحلّه وتبويهاً بفضلّه وجلالته قدره - عليه الصلاة والسلام - ولأن مواجهة العظماء بأسمائهم في النداء لا تليق بخلاف الإخبار عنهم (٢).

وهذا هو النداء الأول في هذه السورة، افتتح به؛ لأن غرضه والمراد منه هو الأصل، حيث تضمن الأمر بالتقوى وواجب تأدية رسالة ربه على أكمل وجه، دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله، سيراً على منهج الله مع التوكل عليه وحده، وما بعده من النداءات الأربعة مندرجة أغراضها في هذا الغرض الأساس (٣).

وقد اختلف في المراد بأمره ﷺ بالتقوى مع أنه خير المتقين على الإطلاق، أعرف الناس بالله وأشدهم له خشية، فقيل: المراد واضب على ما أنت عليه من التقوى وأثبت عليه وازدد منه، وذلك؛ لأن التقوى باب عظيم لا يبلغ آخره، وقيل: المراد الازدياد من التقوى فإن مراتبها لا تنتهى، فكان - عليه الصلاة والسلام - يزداد علمه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١.

(٢) ينظر: الكشف ٣/٢٤٨، البحر المحیط ٧/٢١٠، روح المعاني ٢١/١٤٣، حاشية الشهاب ٧/٤٥٧.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير ٢١/٢٤٩، ٢٥٠.



وتقواه واستغفاره، وتتجدد له هذه المقامات، على حد قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، واني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»^(١).

وقيل: إن هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بتقواه وهو خير المتقين، فلأن يأتى من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى^(٢)، وأمره ﷺ بتقوى الله عز وجل مانع له من طاعة الكافرين والمنافقين ومتابعتهم، وخص الكافرين والمنافقين بالذكر هنا ليشمل من هو معلن كفره مصرح به، أو من هو متستر باسم الإسلام وهو مبطن للكفر، سواء قرب أم بعد، ثم أمره باتباع ما يوحى إليه في كل ما يأتي ويذر من أمور الدين، قال تعالى: ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢٠٠ ﴾^(٣)، ثم أمره بالتوكل عليه وتفويض الأمور إليه، وهو خير حافظاً موكولاً إليه كل الأمور، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٢٠١ ﴾^(٤). وجاء

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٧٢/٨، عن الأغر المزني - رضي الله عنه.

(٢) ينظر لما سبق: الكشاف ٢٤٨/٣، التفسير الكبير ١٩٠/٢٥، ١٩١، البحر المحیط ٢١٠/٧، تفسير القرآن العظيم: ٤٦٥/٣.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣.

الإظهار في لفظ الجلالة مقام الإضمار للتعظيم والتقدير (١).

٦- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسْرِخَكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ (٢).

ذكر الرازي وجه تعلق هذا النداء بما قبله من النداء الأول، وهو: «أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين، التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهَ﴾، ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة، وبدأ بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولهذا قدمهن في النفقة (٣).

وافتح هذه الأحكام بنداء النبي ﷺ بـ ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ تنبيه على أن ما سيذكر بعد النداء له مزيد اختصاص به، وهو غرض تحديد سيرة أزواجه معه سيرة تناسب مرتبة النبوة ومقام الرسالة (٤). وقد ثبت في الصحيحين في قصة اعتزال النبي ﷺ نساءه شهراً

(١) ينظر: التفسير الكبير ٢٥/١٩١، ١٩٢، البحر المحيط ٧/٢١٠، ٢١١، روح المعاني ٢١/١٤٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(٣) التفسير الكبير ٢٥/٢٠٦، وانظر: روح المعاني ٢١/١٨٢.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢١/٣١٥.



قول عائشة: «فأنزل آية التخيير فبدأ بي أول مرة، فقال: إني ذاكر لك أمراً، ولا عليك ألا تعجلي حتى تستأمرني أبويك، قالت: قد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، ثم قال: إن الله قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًا لِأَزْوَاجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قالت: فقلت ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءه فقلن مثل ما قالت عائشة (١).

فقد خير النبي ﷺ نساءه بأمر الله له أن يقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، أي: السعة والتنعيم فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾، أي: زخرفها ومباهجها، ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾، أي: أقبلن بإرادتكن واختياركن ﴿أَمْتَعَنَّ﴾، أي: أعطكن متعة الطلاق ﴿وَأَسْرَحَنَّ سَرًا جَمِيلًا﴾ التسريح في الأصل مطلق الإرسال ثم كني به عن الطلاق ﴿جَمِيلًا﴾ أي: ذا حسن كثير، بأن يكون سنيًا لا ضرار فيه كما في الطلاق البدعي، وقيل: الطلاق الخالي عن الخصومة والمشاجرة والإيذاء (٢).

وفي تقديم التمتع على التسريح مع أنه في الواقع بعده، ما يدل

(١) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح كتاب التفسير باب تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًا لِأَزْوَاجِكَ﴾

قُلًا لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أَمْتَعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرًا جَمِيلًا

﴿١٨﴾ ، ٥١٩/٨ ، برقم: ٤٧٨٥ ، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الطلاق، باب بيان

أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية: ٤/١٨٥، ١٨٦.

(٢) ينظر: جامع البيان ٢١/٩٩، ١٠٠، روح المعاني ٢١/١٨١، ١٨٢.



على كرمه - عليه الصلاة والسلام - وحسن خلقه، وفي ذلك إيناس لهن وقطع لمعاذيرهن من أول الأمر، حيث سألته ثياب الزينة وزيادة النفقة وتوسعة الحال^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلِنْ كُنْتُن تَرُدْنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالَّذَارُ الْآخِرَةَ﴾^(٢) أي: تردن رضا الله لما يريد رسول الله وهو البقاء في عصمته، ونعيم الدار الآخرة الباقي، وتؤثرن ذلك على هذه الدنيا الفانية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ﴾ أي: هيا ويسر ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ﴾ ، جزاء إحسانهن ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا تحصى كثرتة ولا تستقصى عظمتها، قال الرازي: «الأجر العظيم: الكبير في الذات، الحسن في الصفات، الباقي في الأوقات»^(٣).

ولما اخترن رسول الله ﷺ رؤي الفرح في وجهه مسروراً بذلك، فشكرهن الله على ذلك فجعلهن أمهات المؤمنين، وقصره عليهن فلم ينكح بعدهن، قال تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾^(٤).

فرفع الله محلهن وأجل قدرهن، وجعلهن أزواجه في الدنيا

(١) ينظر: البحر المحوط ٧/٢٢٧، أنوار التنزيل للبيضاوي ٤/٦١، روح المعاني ٢١/١٨١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٩.

(٣) التفسير الكبير ٢٥/٢٠٧.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٢.

والآخرة، وشاهدن من أحواله وأفعاله وأقواله بالليل والنهار ما لم يكن لغيرهن، فكن أشد تعلقاً برسول الله ﷺ وأحرص الناس على اقتفاء أثره والتمسك بسنته، وقد ذكرهن الله ذلك تذكيراً بديعاً بقوله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا بُثِّنَ فِي يَوْمِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٢١) (١) (٢).

٧- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً (٦١) (٣).

هذا هو النداء الثالث للنبي ﷺ في هذه السورة، فإن الله تعالى لما أبلغه بالنداء الأول: ما هو متعلق بذاته، وبالنداء الثاني: ما هو متعلق بأزواجه، ناداه بأوصاف أودعها سبحانه فيه تنويهاً بشأنه وزيادة رفعة في قدره، وبين له أركان رسالته، ذكر له هنا خمسة أوصاف هي: شاهد، مبشر، نذير، داع إلى الله، سراج منير، فهذه الأوصاف تتطوي على مجامع الرسالة وعليها تقوم الدعوة إلى هذا الدين، ولذلك اقتصر عليها من بين أوصافه الكثيرة (٤).

وقيل: إن السورة فيها تأديب وتعليم للنبي ﷺ من ربه، فقوله في ابتدائها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٤.

(٢) ينظر: روح المعاني ١٨٢/٢١، حاشية زاده على البيضاوي ٦٢/٤، تفسير التحرير والتنوير ٣١٧/٢١.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٥٢/٢٢.



مع ربه، وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيَا لَهَا﴾ إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع أهله، وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه مع عامة الخلق (١).

فأول أوصافه: أنه شاهد، وقد اختلف في المراد به، فقيل: يكون شاهداً على الخلق يوم القيامة بما بلغهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (٢)، وقيل: إنه شاهد أن لا إله إلا الله، وقيل: شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط، وشاهد في الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد وبأعمال الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ (٣).

الوصف الثاني والثالث: قوله: ﴿وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ فيه ترتيب حسن فإن النبي ﷺ أرسل شاهداً مبلغاً لا إله إلا الله، مرغباً في ذلك يبشرهم بالجنة إن صدقوه وآمنوا به وعملوا بما جاءهم به من ربه، ونذيراً من النار أن يدخلوها إن هم كذبوه ولم يؤمنوا به وخالفوا ما جاءهم به، وقدم التبشير على الإنذار لشرف المبشرين وعظيم ثوابهم؛ ولأنه المقصود الأصلي، إذ هو ﷺ رحمة للعالمين.

الوصف الرابع: ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي: يدعو الناس إلى

(١) ينظر: التفسير الكبير: ٢٥/٢١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤١.



توحيده سبحانه وإلى سائر ما يجب الإيمان به وطاعته والحدز من معصيته والوقوع في نواهيه، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بأمره إياك بذلك.

الوصف الخامس: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أي: ضياء ينير لمن استضاء بضوئه، وهو النور الذي أتى به الخلق من عند الله، فهو يهدي به من اتبعه من أمته، مؤمناً به عاملاً بما يأمرهم به، تاركاً ومجانباً ما حذرهم منه، وما أتاهم به مبرهن عليه، مُظْهِرٌ على غيره بأوضح الحجج وأصدق الأدلة.

وبولغ في الوصف بالإنارة؛ لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سليطه ودق فتيله، فهو كوصف الشيء بالمشتق من لفظه كقولهم: شعر شاعر وليل أليل، أو من معناه كآلية، لإفادة قوة معنى الاسم في الموصوف به، فإن هدي النبي ﷺ أوضح الهدى وإرشاده أبلغ الإرشاد، فهو كالسراج الوقاد الذي يضيء ظلمة المكان، فهديه ودعوته واضحة لا لبس فيها، لا تترك باطلاً إلا فضحته ولا شبهة إلا أزالتها^(١)، وهو القائل: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(٢).

(١) ينظر لما سبق: جامع البيان ١٤/٢٢، التفسير الكبير ٢٥/٢١٨، البحر المحيط ٧/٢٣٨،

روح المعاني ٢٢/٤٧، ٤٨، تفسير التحرير والتنوير ٢٢/٥٣-٥٥.

(٢) جزء من حديث العرياض بن سارية - رضي الله عنه - رواه الإمام أحمد في مسنده

١٢٦/٤، وابن ماجه في سننه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين،

وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١٣/١، ١٤، وفي السلسلة الصحيحة

٦٤٧/٢، ٦٤٨، برقم: ٩٣٧.



عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمم، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً (١).

٨- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّذِينَ آمَنَتْ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأُمَّرَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِنَّ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢).

قال ابن عاشور: «نداء رابع خوطب به النبي ﷺ في شأن خاص به، هو بيان ما أحل له من الزوجات والسراري، وما يزيد عليه وما

(١) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح «كتاب التفسير» باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٨/ ٥٨٥، برقم: ٤٨٣٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.



لا يزيد، مما بعضه تقرير لتشريع له سابق وبعضه تشريع له للمستقبل، ومما بعضه تقرير لتشريع له سابق وبعضه تشريع له للمستقبل، ومما بعضه يتساوى به النبي - عليه الصلاة والسلام - مع الأمة وبعضه خاص به، أكرمه الله بخصوصيته مما هو توسعة عليه، أو مما روعي في تخصيصه به علو درجته»^(١).

فالآية امتنان وتذكير بنعمه على نبيه ﷺ، فإنه عز وجل قد اختار لرسوله - عليه الصلاة والسلام - الأفضل الأولى واستحبه بالأطيب الأزكى، كما اختصه بغير ذلك من الخصائص، وآثره بما سوى ذلك، مما فيه رفعة قدره وعلو منزلته، ومما جاء في الآية على وجه الإجمال:

قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ النَّبِيَّاءَ أَيَّتَ اجُورَهُنَّ﴾

أي: أعطيتهن مهورهن، وتسمية المهر في العقد واجب، وسوق المهر إليها عاجلاً أفضل من أن يسميه ويؤجله، وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم، لا يعرف بينهم غيره، وفي التعجيل بإعطاء المهر براءة الذمة وطيب النفس، وأولى الناس بذلك رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: الجارية

التي سبها الرجل بنفسه وغنمها في الحرب أحل وأطيب من التي

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٦٢/٢٢.



اشتراها من غيره؛ لأنه لا يدري كيف حالها، ولأن الله قال: ﴿ وَمِمَّا
 آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ ﴾ وفيه الله لا يطلق إلا على الطيب دون الخبيث،
 كما أن رزق الله يطلق على الحلال دون الحرام، وأولى الناس بذلك
 رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ وَنِسَاءِ عَمِكَ وَنِسَاءِ عَمَّتِكَ وَنِسَاءِ خَالَكَ وَنِسَاءِ
 خَلَّتِكَ أَلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ ، أي: نكاح اللاتي هاجرن مع رسول
 الله ﷺ من أقاربه غير المحارم أفضل من غير المهاجرات معه،
 والمراد بالمعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة والمقارنة فيها،
 يقال: دخل فلان معي في كذا، أي: كان عمله كعملي وإن لم
 يقتربا في الزمان.

قال الحافظ ابن كثير: «هذا عدل وسط بين الإفراط
 والتفريط، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه
 وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت
 أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط
 النصارى، فأباح بنت العم والعمة وبنت الخال والخالة، وتحريم ما
 فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا شنيع فظيع» (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ أي: وأحللنا

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤٩٩/٣.

لك من وقع لها أن تهب لك نفسها، ولا تطلب مهراً من النساء المؤمنات، وهذا خاص بالنبي ﷺ، ولذا قال: ﴿ خَالِصَةٌ لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك تكرامة لنبيه وإجلالاً لقدره، وجاء الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ للإيدان والإعلام بأن هذا الحكم مما خص به تكرامة له، لأجل النبوة، وتكريره تفخيم له، وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته وفي ذلك تزكية لفعل المرأة التي تهب نفسها له بأنها راغبة لكرامة النبوة وجليل قدر الرسالة، فأرادت أن تكون في عداد أهل بيته ومن يشرف بخدمته، ويقرب من هديه وحاله.

أما قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ فجملة اعتراضية، معناها: أن ما ذكر فرضك وحكمك مع نسائك، وأما حكم أمتك فغندنا علمه ونبينه لهم، وإنما ذكر هذا لئلا يحمل أحد المؤمنين نفسه على ما كان للنبي ﷺ، فإن له في النكاح وغيره خصائص ليست لغيره.

أما قوله: ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ فتعليل لما شرعه الله تعالى في حق نبيه ﷺ في الآية من التوسعة في الازدياد مما خص به عن أمته وفيما ساواهم فيه، فلم يضيق عليه، وهذا تعليم وامتنان، وقد سلك - عليه الصلاة والسلام - في الأخذ بهذه التوسعات والعيش مع هذه المنن والكرامات التي رفع الله بها قدره مسلك



الكمل من عباده وهو أكملهم، فكان عبداً شكوراً لما خص به من اختيار وإباحة ما هو أولى وأفضل.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: كثير المغفرة فيغفر ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ﴿رَحِيمًا﴾ أي واسع الرحمة، ومن رحمته سبحانه أن وسع الأمر في مواقع الحرج، ولم يعاقبهم على سالف ذنب منهم بعد توبتهم منه (١).

٩- قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢).

قال أبو حيان: «كان دأب الجاهلية أن تخرج الحرة والأمة مكشوفتي الوجه في درع وخمار، وكان الزناة يتعرضون إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيطان (٣) للإماء، وربما تعرضوا للحرة بعلقة الأمة، يقولون: حسبناها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زوي الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس

(١) ينظر: الكشاف ٣/٢٦٧، ٢٦٨، التفسير الكبير ٢٥/٢٢١، البحر المحيط ٧/٢٤١، روح المعاني ٢٢/٥٢-٦١، حاشية زادة على تفسير البيضاوي ٤/٦٩، تفسير التحرير والتنوير ٢٢/٦٩-٧١، حاشية الشهاب ٧/٥٠٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٣) الغيطان: جمع غائط، وهو المطنن الواسع من الأرض، القاموس (غوط) ٢/٣٧٦.



والوجوه ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن .. وقوله: ﴿وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يشمل الحرائر والإماء، والفتنة بالإماء أكثر، لكثرة تصرفهن بخلاف الحرائر، فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح»^(١).

وقد جاء في سبب نزول الآية عدة روايات منها:

ما روته عائشة - رضي الله عنها - أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع^(٢) وهو صعيد أفيح فكان عمر - رضي الله عنه - يقول للنبي ﷺ: أحجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فنادها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة، حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله آية الحجاب^(٣).

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال عمر - رضي الله عنه - قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات

(١) البحر المحيط، ٧/ ٢٥٠.

(٢) المناصع: جمع منصع، مواضع يتخلى فيها لبول أو حاجة، القاموس (نصع) ٣/ ٨٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح: «كتاب الوضوء»، باب خروج النساء إلى البراز ١/ ٢٤٨، برقم: ١٤٦، ومسلم في صحيحه بشرح النووي كتاب السلام، باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان ١٤/ ١٥٢.



المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب (١).

وكان البدء بأزواجه وبناته - عليه الصلاة والسلام - لشرفهن ورفعة قدرهن، فأفردهن بالذكر اهتماماً بذلك، فهن من أهل بيته (٢)، والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٣).

ومعنى قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِنُ﴾ أي: ذلك أقرب أن يعرفن ويميزن لتسترهن بالحجاب والعفة، فلا يتعرض لهن أحد ولا يلقين ما يكرهن؛ لأن المرأة إذا كانت في غاية من التستر لم يقدم عليها فاسق، بخلاف المتبرجة، فإنه مطموع فيها (٤).

وقد كان من المؤمنات الامتثال والانقياد لأمر الله والاستجابة له ولرسوله - عليه الصلاة والسلام - تقول عائشة - رضي الله عنها: «رحم الله تعالى نساء الأنصار، لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ زَوَّجَكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الآية.. شققن مروطهن (٥) فاعتجرن (٦)

(١) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح، كتاب: «التفسير»، باب تفسير، ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الرِّجَالِ﴾ ٥٢٧/٨، برقم: ٤٧٩٠.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ٥١٨/٣، تفسير التحرير والتنوير: ١٠٦/٢٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٤) ينظر: البحر المحيط، ٢٥٠/٧، روح المعاني: ٨٩/٢٢.

(٥) المروط: جمع مروط، كساء من صوف أو خز، القاموس (مروط) ٣٨٥/٢.

(٦) اعتجرن: لبسة للمرأة كالالتحاف ويطلق على لف العمامة على الرأس ليس شيء منها تحت ذقته، اللسان (عجر) ٥٤٤/٤.



بها، فصلين خلف رسول الله ﷺ كأنما على رؤوسهن الغربان»^(١)، وعن أم سلمة - رضي الله عنهما - قالت: «لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْرِيكَ عَلَيْنَ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسناها»^(٢).

١٠- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

اشتملت الآية على بيان بيعة النساء النبي ﷺ، وقد تعددت مواضع ذلك، فوقع ذلك بعد فتح مكة، ووقع أيضاً في المدينة، وكان - عليه الصلاة والسلام - يتعاهد النساء بذلك بعد صلاة العيد وغيرها^(٤).

مع شفقتة - عليه الصلاة والسلام - ورحمته بهن وعدم تكليفهن ما لا يطقنه، والعمو عما كان منهن قبل ذلك، وكان لا يضافهن بل كانت بيعتهن من وراء حجاب.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٦٠، عنها وعزاه لابن مردويه، ورواه أبو داود برقم: ٤١٠٠ في اللباس.

(٢) رواه عبدالرزاق في تفسيره ٢/١٢٣.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٤) ينظر: جامع البيان ٥١/٢٨، تفسير القرآن العظيم: ٤/٣٥٢ - ٣٥٦.



عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا وعمر أسفل منه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنعة متكبرة بين النساء، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها، فقال - عليه الصلاة والسلام: «أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً»، فرفعت هند رأسها وقالت: والله لقد عبدنا الأصنام، وإنك لتأخذ علينا امرأة ما رأيناك أخذته على الرجال، تباع الرجال على الإسلام والجهاد. وفي رواية: قالت هند: وكيف نطمع أن يقبل منا ما لم يقبله من الرجال؟ تعني أن هذا بين لزومه، فقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإنني أصبت من ماله هنات، فما أدري أتحل لي أم لا؟

فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة»؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك، فقال: ﴿وَلَا يَزِينَنَّ﴾ فقالت: أوتزني الحرة؟ فقال - عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾، فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً، فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ فقال:

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ ، فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: ﴿وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ ، فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء» (١) .

وعن أميمة بنت رقيقة، قال: دخلت على رسول الله ﷺ في نسوة، فقلن: يا رسول الله، ابسط يدك نصافحك، فقال: «إني لا أصافح النساء، ولكن سأخذ عليك»، فأخذ علينا حتى بلغ ﴿وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ ، فقال: «فيما أطقن واستطعتن»، فقلن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا (٢) .

فقد جاء في الآية أنه بايعهن على هذه الأمور الستة، وقدم الأقيح على ما هو الأدنى منه في القبح، ثم ما بعده إلى آخرها، وقيل: قدم

(١) ينظر: الكشاف ٤/٩٥، التفسير الكبير ٢٩/٣٠٨، الدر المنثور ٨/١٤٠، ورواه الطبري في تفسيره مختصراً عن ابن عباس من طريق العوفي ٢٨/١٥، وهو إسناد ضعيف فيه ضعفاء ومجاهيل كما بحث ذلك الشيخ أحمد شاکر في تحقيقه تفسير الطبري ١/٢٦٣، ٢٦٤، حاشية رقم (١)، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/٣٣٥٠ عن مقاتل بن حيان فذكره، وهذا إسناد معضل، ولهذا قال الحافظ ابن حجر في الكاف الشاف ٤/١٦٩: «لم أره بسياقه» ثم ذكر ما تقدم وسكت عنه، فالأثر لم يثبت وهو على ضعفه الشديد فيه غرابة ونكارة في بعض ألفاظه، وقد استغربه الزيلعي فقال: «غريب بهذا اللفظ»، تخريج الأحاديث والآثار الواردة في تفسير الكشاف ٣/٤٦٢ .

(٢) ينظر: جامع البيان ٢٨/٥١، ٥٢، الدر المنثور ٨/١٣٨، ١٣٩ .



من الأشياء المذكورة ما هو الأظهر فيما بينهم^(١) .

وقوله: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهُتَيْنِ يَفْقَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْنِ وَأَرْجُلِيْهِ﴾ قال الفراء: «كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفتري»^(٢) ، وذلك أن الولد إذا أرضعته الأم سقط بين يديها ورجليها، وليس المعنى النهي عن الزنا؛ لأن النهي عن الزنا قد تقدم^(٣) .

وقوله: ﴿وَلَا يَعْصِيْكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: فيما تأمرهن به من معروف، وتهاهن عنه من منكر، والتقيد بالمعروف مع أن الرسول ﷺ لا يأمر إلا به للتمييز على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق، ويدخل في هذا عموم ما نهى عنه النساء من النياحة وشق الجيوب ووصل الشعر وغير ذلك من أوامر الشريعة^(٤) .

١١- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ

(١) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/٣١٠.

(٢) معاني القرآن: ٣/١٥٢.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/٩٥، التفسير الكبير ٢٩/٣٠٩، روح المعاني ٢٨/٨٠.

(٤) ينظر: تفسير البيضاوي ٤/٤٨٧، روح المعاني ٢٨/٨٠، الكشاف ٤/٩٥، الجامع

لأحكام القرآن ١٨/٧٤، ٧٥.

وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ (١).

خص النبي ﷺ بالنداء ثم جاء الخطاب عاماً له ولأمته؛ لأن النبي إمام أمته وقودتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه، وأنه إمام قومه ولسانهم، والذي يصدر عن رأيه، ولا يستبدون بأمر دونه، فكان وحده في حكم كلهم، وساداً مسد جميعهم وجاء اختيار لفظ ﴿النَّبِيُّ﴾ لما فيه من الدلالة على علو مرتبته ورفعته قدره - عليه الصلاة والسلام - وهذا كقوله حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ (٢).

فأفرد موسى - عليه السلام - بالنداء؛ لأنه كان أجل الاثنين والمقدم فيهما - عليهما السلام - ثم عمهما بالخطاب (٣)، وقيل: المعنى يا أيها النبي قل لهم إذا طلقتم النساء، فأضمر القول، فالله عز وجل خاطبه وجعل الحكم للجميع، كما يقال للرجل: ويحك أما تتقون الله أما تستحون منه، تذهب إليه وإلى أهل بيته، على

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٢) سورة طه، الآية: ٤٩.

(٣) ينظر: الكشاف وحاشية الإنصاف عليه: ١١٧/٤.



سبيل تلوين الخطاب (١) .

وقيل: النداء له ولأتمته، فحذف نداء الأمة، والتقدير: يا أيها النبي وأمة النبي إذا طلقتم، فالخطاب له ولهم، أي: أنت وأمتك (٢) .
وقيل: إنه بعدما خاطبه - عليه الصلاة والسلام - بالنداء صرف سبحانه الخطاب عنه لأتمته، تكريماً له ﷺ؛ لما في الطلاق من الكراهة، فلم يخاطب به تعظيماً وإجلالاً لقدره (٣) .
وقد اختلف في سبب نزول الآية:

فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة - رضي الله عنها - فأنت أهلها فأنزل الله تعالى: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن) فقيل له: راجعها فإنها صوامة قوامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة (٤) .

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه طلق امرأته وهي حائض، فقال له النبي ﷺ: «ليراجعها». فردها، وقال: «إذا طهرت

(١) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/٣٠، تفسير القرآن العظيم: ٤/٣٧٧، البحر المحيط، ٨/٢٨١.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٨/٢٨١، روح المعاني، ٢٨/١٢٨، ١٢٩.

(٣) ينظر: روح المعاني ٢٨/١٢٨.

(٤) رواه ابن كثير في تفسير ٤/٣٧٩، وعزاه لابن أبي حاتم في تفسيره هكذا موصولاً، ورواه الطبري في تفسيره ٥٨/٢٨ مرسلأ عن قتادة، وذكره السيوطي في لباب النقول ٢١٥، والدر المنثور ٨/١٨٩، وعزاه لابن المنذر عن ابن سيرين مرسلأ.

فليطلق أو ليمسك»، قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ (١)(٢).

وعن مقاتل قال: بلغنا في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾. أنها نزلت في عبدالله بن عمرو بن العاص، وطفيل بن الحارث، وعمرو بن سعيد بن العاص (٣).

ومعنى الآية: إذا أردتم الطلاق فالتمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، بل طلقوهن لأجل عدتهن، بأن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه أو وهي حامل، وهذا هو طلاق السنة، أما طلاق البدعة فإن يطلقها وهي حائض، أو في طهر جامعها فيه.

(١) قال النووي: «هذه قراءة ابن عباس وابن عمر وهي شاذة، لا تثبت قرأنا بالإجماع»، شرح صحيح مسلم ٦٩/١٠.

(٢) رواه مسلم في صحيحه مع شرح النووي بهذا اللفظ، كتاب الطلاق ٦٩/١٠، والحديث قد جاء بعدة الفاظ منها ما رواه البخاري في صحيحه مع الفتح، كتاب الطلاق، باب قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ الآية .. ٣٤٥/٩، ٣٤٦، برقم: ٥٢٥١، ومسلم في صحيحه مع شرح النووي، كتاب «الطلاق» ١٠/٥٩-٦١، عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما: «أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء».

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨/١٨٩، ولباب النقول ٢١٥، وعزاه لابن أبي حاتم عنه.



ثم أمر بإحصاء العدة وذلك ضبطها إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض وليست حاملاً، وذلك لما يترتب عليها من الحقوق، فلا بد من معرفة بدايتها لتعرف نهايتها، والخطاب موجه للزوج وللمرأة إن كانت مكلفة أو لوليها، وأمر بتقواه جل وعلا والخوف منه، وأمر بعدم إخراجها من بيتها زمن العدة بل تلزم بيتها زوجها ولا يجوز لها أن تخرج منه، فإن لها الحق في النفقة والسكنى، وتستمر على تلك الحال إلا أن تأتي بفاحشة مبينة، أي: بأمر قبيح واضح موجب لإخراجها، قيل: هو الزنا، وقيل: إدخال الضرر على أهل البيت بأذيتها لهم بالقول والفعل، فهي التي تسببت في إخراج نفسها، وقد كان سكنها جبراً لخاطرها ورفقاً بها، وهذا في المعتدة الرجعية، أما المطلقة البائن فلا نفقة لها ولا سكنى.

وما سبق من هذه الأحكام من حدود الله التي شرعها لعباده، فالواجب التزامها والوقوف عندها ولا يجوز تعديها، ففيها الخير والمصالح، ومن ذلك أن في بقاء المطلقة طلاقاً رجعيّاً في بيت زوجها مصلحة عظيمة، فلعله يحدث في قلب زوجها الرحمة والمودة لها، ولعله أن يرى منها ما يعجبه فتميل نفسه إليها، ولعل السبب الموقع للطلاق يزول، ونحو ذلك^(١)، وصدق الله القائل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/٣٧٨، تيسير الكريم الرحمن ٨٠٥، ٨٠٦.

اللَّهُ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١﴾ (١)

١٢- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّوِيُّ لِمَ تُحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلِغِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ (٢)

جاء في سبب نزول الآية ثلاثة أقوال:

أولاً: أنها نزلت في تحريمه - عليه الصلاة والسلام - على نفسه العسل، وذلك في قصة مخرجة في الصحيحين بعدة ألفاظ، منها ما روته عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير^(٣) ؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: لا، ولكنني كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً»^(٤).

ثانياً: أنها نزلت في تحريمه - عليه الصلاة والسلام - على نفسه وطء جاريته مارية، عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١.

(٣) مغافير: جمع مُغْفور، شيء ينضحه شجر العرطف حلوا له ريح كريهة منكرة، النهاية (غفر) ٣/٣٧٤.

(٤) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح واللفظ له كتاب «التفسير»، باب ﴿لِمَ تُحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ ، ٦٥٦/٨ ، برقم: ٤٩١٢ ، ومسلم في صحيحه مع النووي (كتاب الطلاق) ٧٥، ٧٤/١٠.



الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرماها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتِ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١)

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن عمر - رضي الله عنه: «أن أم إبراهيم القبطية أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها، فوجدته حفصة، فقالت: يا نبي الله لقد جئت إلي شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك بمثله، في يومي وفي دوري وعلى فراشي، قال: ألا ترضين أن أحرماها فلا أقرها، قالت: بلى، فحرماها وقال: لا تذكرني ذلك لأحد، فذكرته لعائشة فأظهره الله عز وجل عليه، فأنزل الله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتِ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١)، فبلغنا أن نبي ﷺ كفر يمينه وأصاب جاريته (٢).

ثالثاً: أنها نزلت في الواهبة التي جاءت النبي ﷺ، فقالت: إني وهبت لك نفسي، فلم يقبلها، روي هذا عن ابن عباس -

(١) رواه الحاكم في المستدرک کتاب (التفسیر) تفسیر سورة التحريم ٤٩٣/٢، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وذكره ابن كثير في تفسيره ٣٨٦/٤، والحافظ في الفتح ٦٥٧/٨ وعزياه للنسائي وصححه السيوطي في لباب النقول ٢١٧، والدر المنثور ٢١٤/٨.

(٢) رواه الطبري في تفسيره ١٠٢/٢٨، وقال ابن كثير في تفسيره ٣٨٦/٤ بعد أن ذكر له طريقاً آخر: «هذا إسناد صحيح، ولم يخرج به أحد من أصحاب الكتب الستة»، وقال عنه الحافظ في الفتح ٦٥٧/٨، بعد أن ذكر بعض طرقه: «وهذه طرق يقوي بعضها بعضاً»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٢٦/٧: «رواه البزار بإسنادين، والطبراني، ورجال البزار رجال الصحيح، غير مبشر بن آدم وهو ثقة».



رضي الله عنهما ^(١) - قال ابن العربي: «أما من روى أن الآية نزلت في الموهوبة فهو ضعيف في السند وضعيف في المعنى، أما ضعفه في السند؛ فلعدم عدالة رواته، وأما ضعفه في معناه؛ فلأن رد النبي ﷺ للموهوبة ليس تحريماً لها؛ لأن من رد ما وهب له لم يحرم عليه، وإنما حقيقة التحريم بعد التحليل» ^(٢).

قال الحافظ ابن حجر - بعد أن ذكر قصتي العسل ومارية: «فيحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معاً» ^(٣) ، وقال الشوكاني: «فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين، قصة العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي كل واحد منهما أنه أسر الحديث إلى بعض أزواجه» ^(٤) ، فافتتاح السورة بنداء النبي ﷺ تنبيه على أن ما سيذكر بعده، مما يهتم به النبي ﷺ والأمة؛ لما اشتمل عليه من بيان الأمور وذكر الأحكام والتوجيهات المناسبة لها؛ ولأن سبب

(١) ذكره السيوطي في لباب النقول ٢١٨، والدر المنثور ٢١٧/٨، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه عنه.

(٢) أحكام القرآن ٤/١٨٤٥، وعن قال بضعفه السيوطي في لباب النقول ٢١٨، والدر المنثور ٢١٧/٨، والشوكاني في فتح القدير ٥/٢٥٢.

(٣) فتح الباري: ١٠/٦٥٧.

(٤) فتح القدير ٥/٢٥٢، وانظر: جامع البيان ٢٨/١٠٢.



النزول كان مرتبطاً به - عليه الصلاة والسلام - وفي بيته (١) .

وقد أساء الزمخشري الأدب مع مقام النبي ﷺ، وزل لسانه بما ينبغي أنه يطهر عنه ويكرم من أعلى الله عز وجل مقامه ورفع من قدره، حيث قال: «وكان هذا زلة منه؛ لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله؛ لأن الله عز وجل إنما أحل ما أحل لحكمة أو مصلحة عرفها في إحلاله، فإذا حرم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة، ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾، قد غفر لك ما زلت فيه، ﴿رَجِيمٌ﴾ قد رحمتك فلم يؤاخذك به» (٢) .

وقد شنع بعض المفسرين على الزمخشري إساءته الأدب وزلل لسانه في حق النبي ﷺ، فما أطلقه في حق النبي ﷺ تقول وافتراء، والنبي ﷺ منه براء، وإذا كان آحاد المؤمنين يتحاشى أن يعتقد تحريم ما أحل الله له، فكيف لا يربأ بمنصب النبي ﷺ عما يرتفع عنه منصب عامة الأمة.

وذلك أن تحريم الحلال على وجهين:

الأول: اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه، وهو كاعتقاد ثبوت حكم التحليل في الحرام، وهذا محظور يوجب الكفر،

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٨.

(٢) الكشاف ١٢٥/٤، وقد تبعه في هذا: البيضاوي والشيخ زاده، ينظر: حاشية زاده على البيضاوي: ٥١٠/٤، ٥١١.

فلا يمكن صدوره من النبي ﷺ أصلاً.

الثاني: الامتناع من الحلال مطلقاً أو مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله، وهذا مباح صرف، وحلال محض، وما وقع منه ﷺ كان من هذا النوع، فإذا أراد الحنث فيه والعود إليه كفر كفارة يمين، وإنما عاتبه الله تعالى عليه؛ رفقاً به وتوياً بقدره وإجلالاً لمنصبه - عليه الصلاة والسلام - أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى به؛ لرفعة منزلته وسمو مكانته عنده جل وعلا.

وفي ندائه ﷺ ب ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ في مفتاح العتاب من حسن التلطف به والتوياً بشأنه ما لا يخفى، ونظير ذلك تقديم العفو على العتاب في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾ (١).

أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ففيه تعظيم لشأنه ﷺ؛ وذلك لأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي الكريم يعد كالذنب، وإن لم يكن في نفسه كذلك، وأن عتابه ﷺ ليس إلا لمزيد الاعتناء به، والإيناس له مما حصل (٢).

١٢- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

(٢) ينظر: البحر المحيطة ٢٨٩/٨، حاشية الإنصاف ٤/١٢٥، ١٢٦، وروح المعاني



وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ ﴿٩﴾^(١)

سبق الحديث عن هذه الآية عند الآية التي مثلها في سورة التوبة^(٢) ، ومناسبة النداء للذي قبله في أول السورة، أن هذا النداء الثاني للنبي ﷺ يأمره بإقامة صلاح عموم الأمة بتطهيرها من الخبثاء الكفار والمنافقين بعد أن أمره بإفاقة من عليهما الغفلة عن شيء من واجب حسن المعاشرة مع الزوج^(٣) .



(١) سورة التحريم، الآية: ٩.

(٢) ينظر ما سبق، ص ١١٢.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير ٢٨/٣٤٧.



المبحث الثالث:

النداء بصفات أخرى

١- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَرْمَلُ ① قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَيْلًا ②﴾ (١).

افتتح خطاب النبي ﷺ بالنداء تنبيهاً وإعلاماً بأهمية وعظم شأن ما سيوجه إليه ويكلف القيام به، والمزمل اسم فاعل من تزل، أي: تلفف في الثوب (٢). فالمزمل أصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي، وبها قرأ أُبَيُّ (المتزمل) على الأصل (٣).

ففي مستهل هذه السورة يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يترك التزمل وهو التغطي والتلفف، وينهض للقيام لربه سبحانه ويستعد للأمر العظيم الذي كلف به وهو إبلاغ الرسالة للناس كافة، فالمزمل صفة له - عليه الصلاة والسلام - اشتقاقاً من الحالة التي كان عليها، وليس اسماً من أسمائه، كما ظن السيوطي (٤).

(١) سورة المزمل، الآيتان: ١، ٢.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣/١٩٦، معاني القرآن وإعرابه ٥/٢٣٩، البحر المحيط ٣٦٠/٨.

(٣) ينظر: مختصر في شواذ القرآن ١٦٤، البحر المحيط ٣٦٠/٨.

(٤) ينظر: الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة ٢٣٨.



وروي عن عكرمة أن المراد بالتزمل هو تزمل النبوة والرسالة^(١)، وهو معنى مجازي بعيد عن ظاهر الآية^(٢).

ونداؤه - عليه الصلاة والسلام - بهذا الوصف ﴿يَأْتِيهَا الرِّزْلُ﴾ في هذا المقام يراد به تأنيسه وملاطفته والتودد إليه، وقد يعدل عن نداء الشخص باسمه إلى صفة متلبس بها إيناساً وملاطفة له وتهيئة لنفسه للقيام بمهمة يكلف بها، كقوله - عليه الصلاة والسلام - لحذيفة - رضي الله عنه: «قم يا نومان»^(٣)، وكقوله لعلي - رضي الله عنه: «قم أبا تراب»^(٤). قال السهيلي: «وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبه سمّوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي ﷺ لعلي حيث غاضب فاطمة - رضي الله عنهما - فأتاه وهو نائم، وقد لصق بجنبه التراب، فقال له: «قم يا أبا تراب»، وكذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - لحذيفة - رضي الله عنه: «قما يا نومان»، وكان نائماً ملاطفة له وإشعاراً لترك العتب والتأنيب،

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ٧٨/٢٩، ورجح المعنى الأول.

(٢) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٧١، الجامع لأحكام القرآن ١٩/٣٣.

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب «الجهاد والسير» باب غزوة الأحزاب ٥/١٧٧.

(٤) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح كتاب فضائل الصحابة باب مناقب علي بن أبي طالب ٧/٧٠، برقم ٣٧٠٣، ورواه مسلم في صحيحه كتاب «فضائل الصحابة» باب من فضائل علي بن أبي طالب ٧/١٢٤.

قوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ①﴾ فيه تأنيس وملاطفة، ليستشعر أنه غير عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التشبيه لكل متزمل راقد ليله لينتبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل، واتصف بتلك الصفة (١).

وقال ابن عاشور: «والأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم إذا كان معروفاً عند المتكلم، فلا يعدل من الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض يقصده البلغاء، من تعظيم أو تكريم نحو ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾، أو تल्प وتقرّب نحو يا بني ويا أبت، أو قصد تهكم نحو: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ②﴾، فإذا نودي المنادى بوصف هيئته من لبسة أو

جلسة أو ضجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه ولهيئته، فنداء النبي ﷺ بـ ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ①﴾ نداء تल्प وارتفاق، ومثله قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدِيرُ ③﴾.

وهنا أساء الزمخشري الأدب كعادته مع مقام سيد الأولين والآخرين ﷺ؛ وذلك لسوء معتقده، معرضاً نفسه لعقوبة الله عز

(١) التعريف والإعلام ١٧٨، وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٣/١٩، البحر المحيط ٣٦٠/٨.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٢٩/٢٥٥-٢٥٧، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي ٣٠٤/٩، روح المعاني ١٠١/٢٩.



وجل، ثم للوم العلماء ونقدهم وردهم عليه، حيث زعم أن النبي ﷺ لم يُنادَ بذلك إلا تهجيناً للحالة التي كان عليها من التزمل في قטיפفة، واستعداده للاستثقال في النوم، كما يفعل من لا يهمله أمر ولا يعنيه شأن، ثم استشهد على ذلك بأبيات قيلت ذمماً في جفاة حفاة من الرعاء^(١)، كما يقول ابن المنير. ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى له في الإكرام والاحترام فإنه يربأ بمقام النبي ﷺ عما قاله الزمخشري^(٢).

وقال السكوني بعد أن ذكر كلام الزمخشري: «هذا التفسير هو الذي يليق بعقول المعتزلة في الإلهية والنبوة، ولم يعلم الزمخشري ولا شيعته المعتزلة مقام النبي ﷺ، ولم يزل من أتى الله عليه وخصمه بالتأهل للرسالة، للثقلين الإنس والجن لكسل كما أشار إليه، ولا للاستثقال في النوم، وقول الزمخشري سوء أدب مع النبوة، وبالجملة فهذا كله كلام من خذل الله عقله»^(٣).

وقد حاول بعضهم^(٤) الدفاع عن الزمخشري وتوجيه عبارته بأن

(١) ينظر: الكشاف ٤/١٧٤، وتبعه في هذا البيضاوي والشيخ زاده ٤/٥٦٢، وأبو السعود في تفسيره ٩/٤٩.

(٢) ينظر: حاشية الإنصاف على الكشاف ٤/١٧٤.

(٣) التمييز لما أوردته الزمخشري من الاعتزال في تفسيره للكتاب العزيز (مخطوط) ٢/ق، ٣٠٩/أ، ب وانظر فيمن رد على الزمخشري: البحر المحيط ٨/٣٦٠، روح المعاني ٢٩/١٠١، حاشية الشهاب، ٩/٣٠٤.

(٤) نقل ذلك عنهم في روح المعاني ٢٩/١٠١، حاشية الشهاب ٩/٣٠٤.



يكون التهجين المذكور محمولاً على ما يفهم من معنى الآية من لطيف العتاب الممزوج بالرأفة، ولينشطه ويجعله مستعداً لما وعده تعالى بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا نَفِيلاً ﴾ (١)، ولا يربأ برسول الله ﷺ عن مثل هذا النداء، فقد خوطب بما هو أشد منه في قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ (٢).

قال العلامة الألوسي راداً عليهم: «ولا يخفى أنه لا يندفع به سوء أدب الزمخشري في تعبيره، فإنه تعالى وإن كان له أن يخاطب حبيبه بما شاء، لكننا نحن لا نجري على ما عامله سبحانه به، بل يلزمنا الأدب والتعظيم لجنابه الكريم، ولو خاطب بعض الرعايا الوزير بما خاطبه به السلطان طرده الحُجَّاب، وربما كان العقاب هو الجواب» (٣).

ولا جرم أن رسول الله ﷺ قد امتثل أمر ربه مع أصحابه - رضي الله عنهم - فأحيوا ليلهم بالصلاة وقراءة القرآن، والدعاء والاستغفار، رافضين الدعة والرقاد، وجاهدوا أنفسهم في ذلك.

عن سعد بن هشام بن عامر قال: قلت لعائشة - رضي الله عنها: «يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: ألسنت تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن، قال:

(١) سورة المزمل، الآية: ٥.

(٢) سورة عبس، الآية: ١.

(٣) روح المعاني ١٠١/٢٩، وانظر: حاشية الشهاب ٣٠٤/٩.



فهمت أن أقوم ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت، ثم بدا لي، فقلت: أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: ألسنت تقراً ﴿يَأْتِيهَا الْمَرْمَلُ ١﴾؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام النبي ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة» (١) إلخ.

٢- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدْتَرُّ ١ قُرْآنُذِرٌ ٢﴾ (٢).

ثبت في الصحيحين عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدْتَرُّ﴾، قلت: يقولون: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١﴾، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله عن ذلك وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: «جاورت بحراء» (٣) فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر

(١) رواه مسلم في صحيحه شرح النووي كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»، باب صلاة الليل ٢٦/٦، ٢٧.

(٢) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢.

(٣) حراء: جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال، كان رسول الله ﷺ يتعبد فيه قبل أن يأتيه الوحي، معجم البلدان «حراء» ٢/٢٣٣.

شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا عليّ ماءً بارداً، قال: فدثروني وصبوا عليّ ماءً بارداً، قال: فنزلت: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيُنُ ۝١ قُرْآنًا نَزَّ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ

(٢)(١) ﴿٣﴾

فهذا الحديث يقتضي أن أول ما نزل من القرآن سورة ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيُنُ ۝١﴾، وأنها قبل نزول: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، والمروي في الصحيحين وغيرهما وهو المشهور عند علماء الأمة أن أول ما نزل: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾^(٣) قالت عائشة - رضي الله عنها: «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم» إلى قولها: «حتى فجئته الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «ما أنا بقارئ»، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: «ما أنا بقارئ»، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ خَلَقَ

(١) سورة المدثر، الآيات: ١-٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح كتاب «التفسير» باب تفسير سورة المدثر ٨/٦٧٦، ٦٧٧، برقم: ٤٩٢٢، واللفظ له، ومسلم في صحيحه بشرح النووي كتاب الإيمان (باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٢/٢٠٧، ٢٠٨).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٤/٤٤٠، روح المعاني ٢٩/١١٥.



الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الآيات، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره» (١) الحديث (٢).

ولصحة الحديثين ذكر العلماء وجوهاً في الجمع بينهما منها:
 أولاً: أن السؤال لجابر - رضي الله عنه - عن نزول سورة كاملة، فبين أن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة العلق، فإن أول ما نزل منها صدرها، ويؤيد هذا ما في الصحيحين أيضاً عن جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجلت (٣) منه رعباً، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فذرني. فأنزل الله ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ (٤)، فقوله: «إذا الملك الذي

(١) بوادره: جمع بادرة وهي لحمه بين المنكب والعتق، النهاية «بدر» ١/١٠٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح كتاب التفسير باب تفسير سورة «اقرأ» ٨/٧١٥، برقم: ٤٩٥٣، ورواه مسلم في صحيحه بشرح النووي كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ: ٢/١٩٧-٢٠٤.

(٣) فجلت: أي فرغت ورعبت، شرح النووي لصحيح مسلم ٢/٢٠٧.

(٤) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح كتاب التفسير باب ﴿وَيَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾، ٨/٦٧٨، برقم: ٤٩٢٥، ورواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٢/٢٠٦.



جاءني بحراء» يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ .

ثانياً: أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي، لا أولية مطلقة، ويدل على هذا ما جاء صريحاً في رواية أخرى من حديث جابر: «ثم فتر عني الوحي فترة، فبينما أنا أمشي» (١) .

ثالثاً: أن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار، فأول ما نزل للنبوة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ وأول ما نزل للرسالة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ﴾ .

رابعاً: أن المراد أول ما نزل بسبب متقدم، وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب، وأما ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فنزلت ابتداء من غير سبب متقدم (٢) .

و(المدثر) اسم فاعل من تدثر، أي: لبس الدثار وهو الثوب الذي فوق الشعار، والشعار الثوب الذي يلي الجسد، فالأصل المتدثر فأدغم التاء في الدال لتقاربهما في النطق (٣) ، وبها قرأ أبي على الأصل (المتدثر) (٤) .

(١) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ٦/٣١٤، برقم: ٣٢٣٨، ومسلم في صحيحه بشرح النووي، كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٢/٢٠٦ .

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/٤٤٠، فتح الباري ١/٢٨، ٨/٦٧٨، الإتيان: ١/٧٨، ٧٩، روح المعاني: ٢٩/١١٥ .

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣/٢٠٠، البحر المحيط: ٨/٣٧٠ .

(٤) ينظر: مختصر في شواذ القرآن ١٦٤، الجامع لأحكام القرآن ١٩/٥٩ .



نودي النبي ﷺ بوصف مشتق من حاله التي كان عليها ، تأنيساً له وملاطفة في الخطاب معه ، ولم يناد باسمه ليستشعر اللطف والتكريم من ربه ^(١) ، وقد سبق مثل هذا في الحديث عن نداءه بـ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّمَلُ﴾ .

وقوله: ﴿قَرَأَنِّيْرُ﴾ ، قيل: المراد قم قيام عزم وتصميم ومبادرة وامتنال ، وقيل: بل المعنى على الحقيقة فإنه كان مضطجعاً متدثراً بثوب أو رداء ، ولا مانع أن يراد هنا المعنى الحقيقي مع المعنى المجازي ، الذي يحصل منهما القيام بهذا الأمر والنشاط فيه ، وجاء الفاء في قوله: ﴿فَأَنِّيْرُ﴾ : لإفادة التعقيب للشروع في الإنذار المأمور به ، ولم يقل هنا: وبشر؛ لأنه كان في ابتداء النبوة؛ لأن غالب أحوال الناس يومئذ محتاجة إلى الإنذار والتحذير، أو هو من باب الاكتفاء؛ لأن الإنذار يلزم منه ما يقابله وهو التبشير ^(٢) .



(١) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٨٥ ، الجامع لأحكام القرآن ٦١/ ١٩ ، البحر المحيط ٨/ ٣٧٠ ، روح المعاني ٢٩/ ١١٦ ، تفسير التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٩٤ .

(٢) ينظر: حاشية الخفاجي ٩/ ٣٢٠ ، روح المعاني ٢٩/ ١١٦ ، تفسير التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢٩٤ ، ٢٩٥ .



المبحث الرابع:

ما قيل: إنه نداء للنبي ﷺ وهو ليس كذلك

ومما قيل إنه نودي فيه قوله تعالى: ﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾^(١)، حيث ذهب بعض^(٢) المفسرين إلى أن ﴿ طه ﴾ اسم للنبي ﷺ، نودي به في هذه الآية ومثله ﴿ يَسَّ ﴾. روي هذا عن سعيد بن جبير ومحمد بن الحنفية^(٣)، وعزاه السيوطي لخلائق من المفسرين والمحدثين^(٤)، كأنه يقول لنبيه: يا طاهراً من الذنوب، يا هادي الخلق إلى علام الغيوب، وقيل: (طاء) يا طامع الشفاعة للأمة، (هاء) يا هادي الخلق إلى الله، وقيل: (طاء) يا طيب، (هاء) يا هادي.

أما ﴿ يَسَّ ﴾ فقيل: يا سيد مخاطباً ومنادياً رسوله ﷺ، فالياء للنداء، والسين إشارة إلى لفظ (سيد) وقد قال - عليه الصلاة

(١) سورة طه، الآيات: ١-٣.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٣/٢٢، الجامع لأحكام القرآن ١١/١٦٦، التكملة والإتمام ١٢٦، ١٥٩، تفسير التحرير والتنوير ١٦/١٨٣.

(٣) ينظر لقولهما: نسيم الرياض وشرح الشفا ١/١٩١، الجامع لأحكام القرآن ٤/١٥، ٥، النكت والعيون: ٥/٥.

(٤) ينظر: الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٧٢.



والسلام: «أنا سيد الناس يوم القيامة»^(١) ، فاكتفي بفاء الكلمة لدلالاتها على باقيها ، وهذا مذهب العرب في كلامهم وأشعارهم.

حكى سيبويه عن بعض العرب «من يقول ألا تا ، بلى فا» فإنما أرادوا: ألا تفعل ، بلى فافعل»^(٢) وفي الأثر: «كفى بالسيف شا»^(٣) أي شاهداً.

وقيل المراد من ﴿ طه ١ ﴾ ، ﴿ يس ﴾ يا إنسان ، ولما كان الإنسان اسماً لعموم أفراد الإنس ، أراد به محمداً : ﷺ ، لأنه أكملهم وأفضلهم^(٤) .

واستدلوا بما رواه أبو الطفيل عنه ﷺ قال: «لي عند ربي عشرة أسماء» وعد منها: ﴿ طه ﴾ ، ﴿ يس ﴾^(٥) . وقد جاء في الشعر ما

(١) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح كتاب الأنبياء ، باب قول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ٦ / ٣٧١ ، برقم: ٣٣٤٠ واللفظ له ، ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ٧ / ٥٩ ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٢) الكتاب: ٣ / ٣٢١ .

(٣) ينظر: نسيم الرياض وشرح الشفا ١ / ١٩٠ غير معزو .

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٤ / ٢٧٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١١ / ١٦٥ ، ١٦٦ ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٣١٦ ، ٣٣٦ ، نسيم الرياض وحاشيته شرح الشفا للقاري ١ / ١٨٩-١٩٢ .

(٥) رواه أبو نعيم في الدلائل ١ / ٦٨ ، وذكره الخفاجي في نسي الرياض والقاري في شرح الشفا ١ / ١٨٩ ، والسيوطي في الرياض الأنيقة ٢٩ وعزوه لابن مردويه في تفسيره ، والدبلي في تفسيره وذكر نحوه الماوردي في تفسيره ٥ / ٥ ، عن علي - رضي الله عنه - مرفوعاً ، وقال محققه: «لم يصح هذا الحديث» .



يعضده، وهو قول الشاعر (١) :

يا نفس لا تمحضي بالنصح جاهدة

على الوداة إلا آل ياسينا

يريد: إلا آل محمد ﷺ.

ولا يخفى أن هذا القول في غاية الضعف والتكلف، ولا دليل عليه، وما استدلوا به وهو حديث أبي الطفيل موضوع، في سنده وضاع وضعيف (٢).

وقيل ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾ اسمان من أسماء الله تبارك وتعالى، روي هذا عن ابن عباس (٣). وقيل: هما بمعنى يا رجل، كلمة

(١) قائله: السيد الحميري، ينظر نسيم الرياض وشرح الشفا ١/١٨٩ ولم أقف عليه في ديوانه بعد البحث بتحقيق شاكر هادي شكر، منشورات مكتبة الحياة - بيروت.

(٢) أما الوضاع فإسماعيل بن يحيى التميمي، قال أبو حاتم: يروي الموضوعات عن الثقات لا تحل الرواية عنه. وقال الدار قطني: كذاب متروك، وقال الأزدي: ركن من أركان الكذب لا تحل الرواية عنه. أما الضعيف سيف بن وهب، قال الإمام أحمد: ضعيف الحديث، وقال يحيى: كان هالكاً من الهالكين، وقال النسائي: ليس بثقة، ينظر: إتحاف السادة المتقين ٧/١٦٣، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ٣/١٤٨٣. وينظر فيمن حكم على الحديث بأنه ضعيف أو موضوع لا يصح: الرياض الأنيقة ٣٠، نسيم الرياض وشرح الشفا ١/٣١٦، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ٣/١٤٨٢، ١٤٨٣.

(٣) رواه عنه الطبري في تفسيره ١٦/١٠٣، ٢٢/٩٧، وانظر نسيم الرياض وشرح الشفا ١/٢٣١، الرياض الأنيقة ٢٠٥، تفسير التحرير والتنوير ١٦/١٨٣، الجامع لأحكام القرآن: ١١/١٦٦، ٤/١٦.



معروفة في عك، معناها عندهم: يا رجل، قال الشاعر^(١) :

هتفت ببطه في القتال فلم يجب

فخفت عليه أن يكون مؤانلا

وقال آخر^(٢) :

إن السفاهة طه من خلانقكم

لا ببارك الله في القوم الملاءمين

واختار هذا القول ابن جرير الطبري وعزاه إلى جماعة من الصحابة والتابعين^(٣) .

وقيل: هما من الحروف المقطعة التي في أوائل السور، وهي مما استأثر الله بعلمه^(٤) ، وقال بعضهم: بل كل حرف منها يدل على معنى، ف(ط) شجرة طوبى، والهاء الهاوية، أراد الجنة والنار، وقيل: الطاء: طهارة أهل البيت، والهاء: هدايتهم، وقيل: الطاء: طبول

(١) قائلة: متمم بن نويرة، كما نسبه إليه الطبري في تفسيره ١٠٣/١٦ .

(٢) لم أقف على قائله بعد البحث، ينظر: جامع البيان: ١٠٣/١٦، الكشاف: ٥٢٨/٢ .

(٣) ينظر جامع البيان ١٠٣/١٦، ٩٧/٢٢، وانظر: معاني القرآن وإعرابه ٣/٣٤٩، ٤/٢٧٧، التكملة والإتمام ١٢٦، ١٥٩، التفسير الكبير ٣/٢٢، الجامع لأحكام القرآن ٤/١١٦٥، ١٦٦، ٤/١٥ .

(٤) ينظر: جامع ألبان ١٠٣/١٦ معاني القرآن وإعرابه: ٣/٣٤٩، ٤/٢٧٧، البحر المحيط ٦/٢٢٤، التفسير الكبير ٢/٢٢، الجامع لأحكام القرآن ١١/١٦٥ . روح المعاني ١٦٨/١٦ .



الغزاة، والهاء: هيبتهم في قلوب الكفار، قال تعالى: ﴿سَكُنْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^(١)، وقيل: الطاء طرب أهل الجنة في الجنة، والهاء هوان أهل النار في النار، وقيل معنى طه: طوبى لمن اهتدى^(٢).

وقيل: هما اسمان من أسماء القرآن^(٣)، وقيل هما اسمان لهاتين السورتين^(٤).

وقيل: روي أنه - عليه الصلاة والسلام كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، ويرفع الأخرى من طول القيام، فأمر أن يطاء الأرض بقدميه معاً، ولا يتعب نفسه بالاعتماد على قدم واحدة، وكان الأصل طأ، فقلبت همزته هاء، كما قالوا: هياك في إياك، وهرقت في أرقت، ويجوز أن يكون الأصل من وطى على ترك الهمزة فيكون الأمر أصله: ط يا رجل، ثم أثبت الهاء فيها للوقف^(٥).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥١.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٣/٢٢، نسيم الرياض، وشرح الشفا ١/٢٣٢، الجامع لأحكام القرآن ١١/١٦٦، ١٦٧.

(٣) رواه الطبري عن قتادة ٩٧/٢٢، وانظر: النكت والعيون ٥/٥.

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٤/٢٧٧، التكملة والإتمام ١٢٦، روح المعاني ١٦/١٤٨، تفسير التحرير والتنوير ١٦/١٨٣.

(٥) ينظر معاني القرآن وإعرابه ٣/٣٤٩، التفسير الكبير ٣/٢٢.



والذي يظهر لي أن ﴿ طه ﴾ و ﴿ يس ﴾ من الحروف المقطعة التي استأثر الله بعلمها، مما افتتح بها بعض سور القرآن.

أما القول بأنها معلومة المعنى فظاهر فيه التكلف، وليس لهم دليل على صحة ما ادعوه، وليس اسمين للنبي ﷺ، قال ابن القيم: «وأما ما يذكره العوام أن يس وطه من أسماء النبي ﷺ فغير صحيح، ليس ذلك في حديث صحيح ولا حسن ولا مرسل، ولا أثر عن صحابي، وإنما هذه الحروف مثل: ﴿ آء ﴾، ﴿ حم ﴾، ﴿ آلر ﴾، ونحوها (١).

• مسألة:

ومما جاء فيه نداء النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٦) (٢).

قال مقاتل: «نزلت في عبد الله بن أمية والنضر بن الحارث ونوفل بن خويلد والوليد بن المغيرة» (٣) خاطبوا النبي ﷺ بهذا الوصف مع

(١) تحفة الودود بأحكام المولود ١١٦، ١١٧، واختار هذا القول أبو حيان في البحر المحيط ٢٢٤/٦، وابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير ١٨٣/١٦، وانظر: معجم المناهي اللفظية لبكر أبو زيد ٣٦٠.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٦.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٤٤٦/٥، روح المعاني ١٢/١٤.



أنهم كفره لا يعتقدون نزول شيء عليه استهزاء وتهكماً وسخرية،
كما قال عز وجل - حكاية عن فرعون: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي
أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٣٧) (١)(٢)

ومرادهم من قولهم: ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي: يا من تدعي مثل هذا
الأمر العظيم الخارق للعادة إنك بسبب تلك الدعوى متحقق جنونك
على أتم الوجوه، وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاماً
يستبعده: أنت مجنون، وقيل: حكمهم هذا لما كان يظهر عليه ﷺ
من شبه الغشي حين ينزل عليه القرآن (٣).

وذهب بعضهم إلى أن المقول هو الجملة المؤكدة فقط ﴿ إِنَّكَ
لَمَجْنُونٌ ﴾ دون النداء، أما النداء فهو من كلام الله تعالى، تبرئة
له - عليه الصلاة والسلام - عما نسبوه إليه، لكن رد هذا بأنه
خلاف الظاهر، فالكل من كلامهم، ولأن فيه تفكيكاً للكلام
واعترافاً لا دليل عليه، وقد سبقهم في هذا فرعون بقوله في حق -

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٧.

(٢) ينظر: الكشاف ٢/٣٨٧، التفسير الكبير ١٩/١٦٢، الجامع لأحكام القرآن ١٠/٤،
تفسير التحرير والتنوير ٦/١٤.

(٣) ينظر الكشاف ٢/٣٨٧، التفسير الكبير ١٩/١٦٢، حاشية الخفاجي ٥/٤٩٧، ٤٩٨،
روح المعاني ١٤/١٢.



موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾^(١).

قيل: وتقديم الجار والمجرور (عليه) على نائب الفاعل (الذكر):

لأن إنكارهم متوجه إلى كون النازل ذكراً من الله تعالى، لا إلى

كون المنزل عليه رسول الله ﷺ، كما في قوله سبحانه: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ

هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٢)، فإن الإنكار هنا

متوجه إلى كون المنزل عليه رسول الله - عليه الصلاة والسلام^(٣).



(١) ينظر: حاشية الخفاجي ٤٩٨/٥، روح المعاني ١٢/١٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

(٣) ينظر: روح المعاني ١٢/١٤.

الفصل الثاني :

ما يعقب نداءه – عليه الصلاة والسلام – والمعاني التي تضمنها



المبحث الأول:

ما يعقب النداء في القرآن الكريم

يعقب النداء غالباً الأمر والنهي والاستفهام، وكأنه يعد النفس ويهيئها لتلقي تلك الأساليب وما تتضمنه من المعاني؛ لأن النداء يوقظ النفس ويلفت الذهن وينبه المشاعر، فإذا جاء بعده الأمر أو النهي أو الاستفهام صادف نفساً مهياً يقظة مستعدة للقبول والامتثال، كما أنه دليل على اهتمام المتكلم وعنايته بهذا الطلب وحرصه الأكيد على تنفيذه وأدائه.

لذا فقد كثر في القرآن الكريم مصاحبة النداء لهذه الأساليب، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَأْمْوَالُكُمْ وَلَا ءَأَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ ءَأَذَكُم مِّنْ عَجْرٍ تُجِئِكُمْ مِّنْ عِلَاقِ ءَأَلِيمٍ﴾^(٣).

وقد بالغ الكوفيون حين ادعوا أن النداء لا ينفك عن الأمر أو ما

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٩.

(٣) سورة الصف، الآية: ١٠.



جرى مجراه من الطلب والنهي، قالوا: «ولذلك لا يكاد يوجد في كتاب الله تعالى نداء ينفك عن أمر أو نهي، ولهذا لما جاء بعده الخبر في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ﴾^(١)، شفعه الأمر في قوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾^(٢).

ومما يبطل قولهم كثرة مجيء الخبر مع النداء دون أن يشفعه أمر، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِي إِيَّيْهِ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَأْتِي إِيَّيْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغِيكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٥).

(١) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٢) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف ١/١٠٣.

(٣) سورة مريم، الآية: ٤٥.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٤.

(٥) سورة يونس، الآية: ٢٣.



وأحسن من قول الكوفيين وأكثر دقة قول الزمخشري: «كل نداء في كتاب الله تعالى يعقبه فهم في الدين، إما من ناحية الأوامر والنواهي التي عقدت بها سعادة الدارين، وإما مواعظ وزواجر وقصص لهذا المعنى، كل ذلك راجع إلى الدين الذي خلق الخلق لأجله، وقامت السموات والأرض به، فكان حق هذه أن تدرك بهذه الصيغة البليغة» (١) (٢).



(١) هو بهذا اللفظ في البرهان في علوم القرآن، ٢/ ٣٢٤، وانظر: الكشاف ١/ ٢٢٦.

(٢) ينظر لما سبق: أسلوب الإنشاء في سور المفصل ٣٦٥، ٣٦٦.



المبحث الثاني:

ما يعقب نداءه - عليه الصلاة والسلام - في القرآن

جاء نداء الله عز وجل نبيه - عليه الصلاة والسلام - في القرآن في سبعة عشر موضعاً جاء في غالبها بعد النداء الطلب، ففي عشرة مواضع منها جاء عقيب ندائه - عليه الصلاة والسلام - الأمر، وهي قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٍ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا بِأَنْتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ

(١) سورة المائدة، الآية: ١٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٠.

جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ (١) ، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُ
لَا زَوْجِكَ إِن كُنْتَن تَرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْن أُمَتَّعَنَّ
وَأُزَوِّجَنَّ سَرَلًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ (٢) ، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُ
لَا زَوْجِكَ وَنَنَّا نِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ آدَفَا
أَن يُعْرَفَنَّ فَلَا يُوَدِّنُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣١﴾ (٣) ، وقوله تعالى:
﴿يَأْتِيهَا الْمُرْسَلُ ﴿١﴾ قُرْ أَلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ (٤) ، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا
الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾ قُرْ فَانذِرْ ﴿٢﴾ (٥) .

وفي موضعين جاء عقيب نداءه النهي، إما مباشرة، وهو قوله
تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي
الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ
الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ
يَأْتُوكَ يَحْزِنُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِن أُوتِيتُمْ هَذَا
فَخُذُوهُ وَإِن لَمْ تُؤْتُوهُ فَاخْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ
مِنَ اللَّهِ شَيْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ هُمْ

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٤) سورة المزمل، الآيتان: ١، ٢.

(٥) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢.

فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ (١). وإما معطوفاً على الأمر، وهو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ أُنْتَى اللَّهِ وَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ﴾ (٢)، وفي موضع واحد جاء عقيب نداءه - عليه الصلاة والسلام - الاستفهام، وذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣).

فمجموع هذه المواضع على وجه الإجمال اثنا عشر موضعاً جاءت وفق ما قررته آنفاً من أن النداء يعقبه غالباً الأمر - وهو الأكثر - والنهي والاستفهام، وكأن النداء يهيئ النفس ويعددها لقبول ما يطلب منها وامثالها بعد ذلك، وكل هذه الأوامر التي طلب من النبي ﷺ امتثالها والقيام بها أوامر عظيمة، وهو الإمام والقدوة فيها لأُمَّته، كما أنه الحقيق والجدير بالنهوض بها وأدائها كما أمر، فلا غرو حينئذ أن يأتي النداء بوصفه الشريف (النبي) أو (الرسول) أو ما يناسب حاله التي كان عليها، (المزمل)، (المدثر)، على سبيل العطف عليه والتلطف معه، مما يدل على رفعة قدره وعظيم منزلته عند ربه.

ومثل ذلك حين يأتي ما ينهى عنه، وهو الحزن بسبب مسارعة

(١) سورة المائدة، الآية: ٤١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١.

(٣) سورة التحريم، الآية: ١.



الكفار في كفرهم وتعلقهم بدينهم الباطل، أتى النداء بوصفه الشريف (الرسول) تأكيداً عليه وتذكيراً له للقيام بأداء مهمة الرسالة ودعوة الناس إلى هذا الدين، ولا يحزن إن قوبل بما ذكره الله عز وجل عنهم في الآية بعده، ومثله أيضاً تقديم ندائه - عليه الصلاة والسلام بـ ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ في مفتتح عتابه وسؤاله ﴿لِمَ لَمْ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ ، وفي هذا من حسن التلطف معه والتبويه بشأنه ما لا يخفى، ونظير هذا تقديم العفو على العتاب في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ (١).

أما المواضع التي جاء فيها عقيب ندائه - عليه الصلاة والسلام - الخبر فخمسة، اثنان منها جاء جملة شرطية، وهما قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَيَّ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِفْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ (٣) والثلاثة الأخيرة هي: قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ١.

أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴿١﴾ . وقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٢﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتُ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِنَّمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَنِجَاتٍ عِمَّكَ وَنِجَاتٍ عَمَّنْكَ وَنِجَاتٍ خَالِكَ وَنِجَاتٍ خَلَلَيْكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٣﴾ .

وبالتأمل في هذه الآيات الخمس تبين لي أن لها ارتباطاً وثيقاً بما سبق، فبيعة النساء النبي ﷺ على ما ذكر في الآية هو رسالة النبي ﷺ التي أمر بإبلاغها وعدم التواني في دعوة الناس إليها، ويناسب هذا أيضاً ما ذكر في سورة الأحزاب من أركان رسالته وبعض صفاته التي تناسب هذا المقام العظيم، أعني: مقام النبوة وإبلاغ الرسالة.

أما قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٤﴾ ، فمناسب غاية المناسبة لما بعده من الحث

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.



على الجهاد في سبيل الله وذكر بعض أحكامه، مهد لقبولها وامتثالها التأكيد على أن الله كاف وحافظ وناصر رسوله ﷺ واتباعه المؤمنين، وهذا مما يسبغ عليهم الثقة بموعود الله، والطمأنينة بنصره إياهم على أعدائهم.

أما الآيتان اللتان تضمنتا ذكر بعض أحكام النساء، سواء ما يختص به - عليه الصلاة والسلام - كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ ، أو ما يشترك معه أفراد أمته كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ ، فقد تضمنتا بعض أحكام هذه الشريعة السماوية التي أمر بتبليغها ودعوة الناس إليها.





المبحث الثالث:

المعاني التي تضمنها نداءه ﷺ

يمكننا بعد النظر في الآيات التي نادى فيها ربنا جل وعلا نبيه المصطفى وحبيبه المجتبى ﷺ، أن نجمع معانيها التي تضمنتها فيما يلي:

أولاً: الأمر بإبلاغ الرسالة وما يتعلق بها، كالحذر من معوقاتها، مع بيان أركان هذا الرسالة وصفات المرسل بها، والبيعة عليها، دل على ذلك الآيات الكريمة التالية:

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (١).
- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ ۝١ قُرْآنًا نَزِيرًا ۝٢﴾ (٢).
- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكَلِمِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢.



فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا
خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ (١)

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
﴾ ﴿٤٥﴾ (٢)

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَّكَ عَلَىٰ أَنْ لَا
يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
بِهْتِنٍ يُفْتَرِيهَنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ
فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ (٣)

ثانياً: الحث على الجهاد في سبيل الله عز وجل وما يتصل به،
كبيان بعض أحكامه، مع التصديق بموعود الله والثقة
بنصره وتأييده لرسوله والمؤمنين وكفايته ورعايته لهم، يدل
على ذلك الآيات الكريمة التالية:

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ
عَلَيْهِمْ وَمَا وَدَّعْتُمْ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ (٤)

(١) سورة المائدة، الآية: ٤١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ حَرِيصِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) (١)

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ قُل لِّمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٠) (٢)

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٤) (٣)

ثالثاً: الأمر بتقوى الله عز وجل ورعايتها بنوافل الطاعات والقربات، والبعد عما يعارضها ويخالف مقتضاها، دل على ذلك الآيات الكريمة التالية:

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِغِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١) (٤)

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٠.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١.



- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾﴾ (١).

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَرْزُوقُ ﴿١﴾ وَالْأَيْلُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ (٢).

رابعاً: بيان بعض الأحكام المتعلقة بالنساء، سواء ما كان خاصاً به - عليه الصلاة والسلام - مع أهله، كتخييرهن بين البقاء معه أو تخلية سبيلهن، وبيان ما أحل الله له من النساء وما اختاره له وخصه به، أو ما يشترك فيه معه أفراد الأمة، كالأمر بالحجاب وبيان بعض أحكام الطلاق، دل على هذا الآيات الكريمة التالية:

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَرِيضَتُهَا مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُكُمْ وَأَسْرِحُكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٣﴾﴾ (٣).

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي

(١) سورة التحريم، الآية: ١.

(٢) سورة الزمل، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٨.



أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ (١)

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ
يُدْنِينَ عَنْ يَمِينٍ مِنْ جَلْبَيْبِهِنَّ﴾ (٢)

- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُهُنَّ لِإِعْدَّتِهِنَّ
وَإِحْصَاءِ الْعِدَّةِ وَأَتَقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ
وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ
يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ
ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (٣)

وقد سبق في الفصل الأول بيان معاني هذه الآيات وما تضمنته

من أحكام شرعية ولطائف بيانية ونكات بلاغية.



(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ١.

الفصل الثالث:

خصائص نداء النبي ﷺ في القرآن



المبحث الأول:

نداؤه - عليه الصلاة والسلام - بالوصف لا باسمه العلم

إن افتتاح الكلام بالنداء يدل على الاعتناء بما سيلقى على المخاطب، وكأنه يعد نفسه ويهيئها لذلك، فيقع منها موقع الإصابة، حيث تتلقاه بحس واع وذهن منتبه، ثم إن نداء المخاطب بوصفه الشريف دليل على سموه وفضله على غيره.

وهذا ما اختص به النبي ﷺ عن غيره حيث نودي بوصفه (الرسول) في آيتين، و(النبي) في ثلاث عشرة آية؛ تشريفاً وتكريماً له، ودلالة على رفعة قدره وعظيم منزلته عند ربه، وحثاً له على تبليغ رسالة ربه ودعوة الناس إلى هذا الدين، وغيره من الأنبياء نودي باسمه العلم.

قال العز بن عبدالسلام: «نداء النبي بالنبوة فيه فائدة التفضيم والإكرام، والحث على الطاعة والإذعان؛ شكراً لنعمة النبوة. والنداء بالرسالة فيه الفائدتان المذكورتان في النداء بالنبوة، مع التأكيد بذكر الرسالة، وهي من النعم الجسم؛ لأنها تستلزم النبوة وتحت على تبليغ الرسالة، فما أحسن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (١).

(١) ينظر: الإشارة إلى الإيمان، ص ٣٣٣.

ونودي أيضاً بوصفين مشتقين من حالته التي كان عليها؛ تأنيساً وملاطفة له، وتثبيتاً وتقوية لفؤاده، وهما (المزمل)، (المدثر)، ولا يخفى ما ينطوي عليه العدول عن ندائه باسمه إلى ندائه بهذه الصفات من دلالة على سمو مكانته عند من يخاطبه، وتعريفاً لجلالة قدره وعظيم منزلته عند غيره.

وقد أبان هذا بعض المفسرين فيما سبق وقرروه، وذكروا ما تضمنته تلك الآيات من لطائف بيانية ونكات بلاغية تقوي هذا الغرض وتؤكد هذا المعنى^(١).

وقد أمر الله تعالى المؤمنين ألا ينادوا الرسول ﷺ باسمه، كما ينادي بعضهم بعضاً، فلا يقولوا له: (يا محمد) بل يقولوا: (يا رسول الله) أو (يا نبي الله)، وحتى في هذا الأمر نفسه لم يجئ في القرآن ذكر اسمه، بل استبدل به صفة الرسول، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢)، وقد جاء سبب نزول الآية

(١) ينظر: نداء المخاطبين في القرآن أسراره وبلاغته للدكتور علي عبدالواحد وافي ضمن مجلة كلية اللغة العربية - بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض - العدد الثامن ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، ص ٨٥، ٩٠-٩٢، وينظر الإشارة إلى الإيجاز، ص ٣٣٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٦٣.



ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فأنزل الله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾^(١)، فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله»^(٢).

ففي هذا تعظيم وتوقير له - عليه الصلاة والسلام - مع التواضع وخفض الصوت بذلك، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٣).

قال بعض المفسرين: أمرهم الله أن يدعوه: يا رسول الله يا نبي الله في لين وتواضع ولا يصيحوا به من بعيد يا أبا القاسم، ولا ينادوه: يا محمد في تجهم^(٤)، بل أمر الله سبحانه أن يبجل ويعظم ويفخم ويشرف، بأن يتعلم الأدب في مناداته والحديث معه - عليه الصلاة والسلام^(٥).



(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) ذكره السيوطي في باب النقول: ١٦٢، الدر المنثور ٦/٢٣٠، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل عنه.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٢.

(٤) تجهم: أي في وجه غليظ كربه، القاموس (جهم) ٩٢/٤.

(٥) روي هذا عن مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والحسن وعكرمة وغيرهم، ينظر: تفسير القرآن العظيم ٣/٣٠٦، ٣٠٧، الدر المنثور ٦/٢٣٠، ٢٣١.



المبحث الثاني:

التزام ندائه - عليه الصلاة والسلام - ب: (يا أيها)

كثيراً ما يجيء النداء في القرآن ب(يا) المتلوة ب(أيها) ^(١) ، وللزمخشري تحليل بديع وكشف عن سر كثرة هذا التركيب في القرآن، حيث يقول: «وأي وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام .. وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه، يتصف به حتى يضح ^(٢) المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو أي، والاسم التابع له صفته، كقولك: يا زيد الظريف، إلا أن أيا لا يستقل بنفسه استقلال زيد، فلم ينفك من الصفة.

وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد، وكلمة التثبية المقحمة بين الصفة وموصوفها، لفائدتين: معاضدة حرف النداء ومكانفته ^(٣) بتأكيد معناه، ووقوعها عوضاً مما يستحقه، أي: من الإضافة.

(١) ينظر في الحديث عنها: مغني اللبيب ١/ ٧٨، الإتيان ١/ ٥٠١.

(٢) من الوضوح، أي: يتضح.

(٣) مكانفته: إعانته وحفظه، القاموس (كنف) ٣/ ١٩٢.



فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد^(١) وأسباب من المبالغة؛ لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعدته ووعيده واختصاص^(٢) أخبار الأمم الدراجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام^(٣) وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالأكّد الأبلغ^(٤).

وللرازي تفريق دقيق بين النداء بـ(يا) و(يا أيها)، وبين السر البياني في اختصاص ندائه - عليه الصلاة والسلام - بـ(يا أيها) والمراد منه، حيث يقول: «قول القائل: يا رجل يدل على النداء، وقوله: يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضاً، وينبئ عن خطر خطب المنادى له أو غفلة المنادى .. ولأن قوله: (يا أي) جعل المنادى غير معلوم أولاً، فيكون كل سامع متطلعاً إلى المنادى، فإذا خص

(١) قال صاحب حاشية الإنصاف على الكشاف: «هي تكرر الذكر، والإيضاح بعد الإبهام واختيار لفظ البعيد وتأكيد معناه بحرف التنبيه» ٢٢٦/١.

(٢) هكذا في الكشاف، وفي الاتقان، ٢/٨٩٧ فيما نقله عنه (وإختصاص).

(٣) خبر (لأن) السابقة.

(٤) الكشاف ١/٢٢٥، ٢٢٦.



واحداً كان في ذلك إنباء الكل لتطلعهم إليه، وإذا قال: يا زيد أو يا رجل لا يلتفت إلى جانب المنادى إلا المذكور، إذا علم هذا فنقول: (يا أيها) لا يجوز حمله على غفلة النبي ﷺ؛ لأن قوله: (النبي) يناه في الغفلة؛ لأن النبي -عليه السلام - خبير فلا يكون غافلاً، فيجب حمل على خطر الخطب»^(١).



(١) التفسير الكبير ٢٥/ ١٩٠، وانظر: المصدر نفسه ٢/ ٩٢، تفسير أبي السعود ١/ ٥٨، حاشية زاده على تفسير البيضاوي ١/ ١٧٧، ١٧٨.



المبحث الثالث:

الفرق بين نداءه - عليه الصلاة والسلام - والإخبار عنه

جاء نداء النبي ﷺ بوصفه الشريف (الرسول) أو (النبي) تكريماً وتقديراً له وتنويهاً بفضله ودلالة على رفعة مكانته وعلو منزلته عند ربه، وليربأ بمقامه الشريف عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره. وهذا بخلاف الإخبار عنه، فقد يجيء بهذا الوصف كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾^(٥).

وقد يجيء الإخبار عنه باسمه العلم مع إضافة صفة الرسول إليه وذلك في آيتين، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ

(١) سورة التحريم، الآية: ٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٤١.



الرُّسُلُ ﴿ (١) ، وقال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) .

وقد يجيء الإخبار عنه باسمه العلم مع الإشارة إلى رسالته، وذلك في آيتين، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٣) . وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (٤) .

وفي بيان سبب إثارة نداء الرسول - عليه الصلاة والسلام - بوصفه الشريف وعدم التزام ذلك في الإخبار عنه، يقول الزمخشري: «قلت: إن لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الإخبار، في قوله: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ (٥) ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ (٦) . قلت: ذلك لتعليم الناس بأنه رسول الله، وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به، فلا تفاوت بين النداء والإخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الإخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤ .

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩ .

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠ .

(٤) سورة محمد، الآية: ٢ .

(٥) سورة الفتح، الآية: ٢٩ .

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤ .



النداء، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾^(١)، ﴿وَقَالَ
الرَّسُولُ يَرْبِّ ﴿٢﴾﴾، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٣)،
﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾^(٤)، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ
أَنْفُسِهِمْ﴾^(٥)، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(٦)، ﴿وَلَوْ
كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾^{(٧) (٨)}.

مراده: أن تلك المقامات يقصد فيها تعليم الناس بأن صاحب هذا
الاسم هو رسول الله الواجب الإيمان به واتباعه، أو تلقين لهم بأن
يسمونه بهذا الوصف وينادوه به.

وقد تُعقب الزمخشري فيما ذكر بأن أمر التعليم والتلقين في
قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ظاهر، أما في قوله تعالى: ﴿وَمَا
مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فلا، على أن قوله تعالى: ﴿وَمَا آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ
مُحَمَّدٍ﴾ ينقض ما بناه.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٦٢.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٧) سورة المائدة، الآية: ٨١.

(٨) الكشاف ٣/٢٤٨، وانظر: البحر المحيط: ٧/٢١٠، تفسير التحرير والتنوير ٢١/٢٥٠.



نعم النداء يناسب التعظيم، وربما يكون نداء سائر الأنبياء - عليهم السلام - في كتبهم أيضاً على نحو منه، وجاء في القرآن بأسمائهم دعفاً للإلباس^(١).

واختار الطيبي أن النداء بهذا الوصف الشريف؛ للاحتراس وجبر ما يوهمه الأمر والنهي الذي يعقب هذا النداء، كتقديم العفو قبل العتاب في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهْمُ﴾^{(٢)(٣)}.

لكن ما ذكره لا يشمل جميع نداءاته - عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾^(٥).. الآية. وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٦)؛ لأن ما بعد هذه النداءات أخبار.



(١) ينظر: روح المعاني ١٤٣/٢١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

(٣) ينظر: روح المعاني ١٤٣/٢١.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.

(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.



الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإنني بعد الفراغ من كتابة هذا البحث عن نداء الله عز وجل نبينا - عليه الصلاة والسلام - في القرآن، وقفت على الكثير من الثمرات المباركة والنتائج الطيبة، أجملها فيما يلي:

- أن الله عز وجل امتن على هذه الأمة ببعثة نبينا - عليه الصلاة والسلام - وأنزل عليه أفضل كتبه القرآن الكريم، وأوجب على الأمة الإيمان به ومحبته وطاعته.
- عظم الله سبحانه منزلة رسوله - عليه الصلاة والسلام - عنده وأعلى قدره، وخصه بفضائل ومحاسن تدل على شرفه ورفعة مكانته، وأثنى عليه بها، والعلم بهذا يزيد القلب إيماناً به ومحبة وطاعة وتوقيراً له.
- وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على سمو مكانته، وعلو مرتبته عند ربه، ومن ذلك نداؤه بوصفه الشريف (الرسول) في موضعين، و(النبي) في ثلاثة عشر موضعاً، كما نودي أيضاً بوصفين مشتقين من حالته التي كان عليها؛ تأنيساً ولطفاً به، وهما: المزمّل، المدثر.
- رجحت ما اختاره المحققون من أهل العلم من أن (طه) و(يس)



ليسا اسمين للنبي ﷺ، إنما هما من الحروف المقطعة التي استأثر الله بمراده منها.

• جاء نداء الكفار لنبينا ﷺ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾^(١)، استهزاءً وتهكماً وسخرية به، أما قول من قال: إن النداء من الله، وإنما قولهم هو: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ فتفكيك للكلام، ظاهر فيه التكلف.

• تضمنت الآيات التي نودي فيها - عليه الصلاة والسلام الكثير من الأحكام الشرعية مما هو خاص به عليه الصلاة والسلام، أو ما يشترك معه فيه أفراد أمته.

• في العلم بأساليب ندائه عليه الصلاة والسلام وما تضمنته في هذه الآيات من نكات بلاغية ولطائف بيانية تخدم هذا الغرض - وجوب الأدب معه - عليه الصلاة والسلام - واحترامه وتوقيره، فلا ينادى باسمه المجرد، ولا يرفع الصوت فوق صوته، ولا يتقدم على سنته برأي أو هوى، بل لا بد من محبته واتباعه وإجلاله ودعوة الناس إلى سنته.

• جاء في سبب نزول بعض الآيات جملة من الأقوال، ولا شك أن العلم بها ومعرفتها معين على فهم الآية، فالعلم بالسبب معين على معرفة المسبب.

• الغالب في القرآن الكريم إتيان الأمر والنهي والاستفهام بعد

(١) سورة الحجر، الآية: ٦.



النداء، خلافاً للكوفيين الذين يرون وجوبه، وسبب كثرته أنه يعد النفس ويهيئها لتلقي ما يقال لها، فإذا جاء بعده الأمر - وهو الأكثر - والنهي والاستفهام قابل نفساً مستعدة للقبول والانقياد، ومن ذلك ما جاء في نداء الله نبيه - عليه الصلاة والسلام.

● جاء نداء نبينا - عليه الصلاة والسلام بوصفه الشريف، وكذا في معظم الإخبار عنه، وقد يجيء الإخبار عنه باسمه العلم مع إضافة صفة الرسول إليه، أو الإشارة إلى رسالته، وقد سبق بيان هذا.

● ظهر فيما سبق جرأة الزمخشري ومن تبعه على مقام النبوة، وسوء تعبيره مع النبي ﷺ، واتهامه بما يبرأ عنه آحاد أمته، فكيف به - عليه الصلاة والسلام.

● تبين لنا أن المعاني التي تضمنها نداؤه - عليه الصلاة والسلام - تجتمع في أربعة أمور: الأمر بإبلاغ الرسالة وما يتعلق بها. الحث على الجهاد في سبيل الله عز وجل وما يتصل به. الأمر بتقوى الله سبحانه ورعايتها. بيان بعض الأحكام المتعلقة بالنساء، سواء كان خاصاً به عليه الصلاة والسلام مع أهله، أو ما يشترك معه فيه أفراد أمته.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





ثبت المصادر والمراجع

- الإبتقان في علوم القرآن - عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي
- بعناية مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير - دمشق وبيروت
- الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- أحكام القرآن - محمد بن عبدالله بن العربي - تحقيق علاء محمد البجاوي - دار الفكر - بيروت.
- أسباب النزول - علي بن أحمد الواحدي - تحقيق أحمد صقر
- دار القبلة - جدة - مؤسسة علوم القرآن - بيروت - الطبعة
- الثالثة: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- أسلوب الإنشاء في سور المفصل - رسالة ماجستير مقدمة من
- المعيد عبدالمحسن العسكر لكلية اللغة العربية بالرياض:
- ١٤١٣هـ.
- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز - عبدالعزيز
- عبدالسلام - تحقيق محمد بن الحسن بن إسماعيل - دار
- الكتب العلمية - الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- الأشباه والنظائر في النحو - عبدالرحمن السيوطي - دار
- الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.



- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين - أبو البركات عبدالرحمن بن محمد الأنباري -
- بعناية محي الدين عبدالحميد - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- أنوار التنزيل مطبوع بحاشية الشيخ زاده - القاضي البيضاوي. دار: إحياء التراث العربي - بيروت.
- البرهان في علوم القرآن - بدر الدين محمد الزركشي - تحقيق محمد إبراهيم - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثانية.
- التبصرة في القراءات السبع - مكّي بن أبي طالب القيسي - تحقيق محمد غوث - الدار السلفية - الهند - الطبعة الثانية - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- تحفة الودود بأحكام المولود - محمد بن أبي بكر المشهور بابن القيم - تحقيق عبدالغفار البدراني - دار الريان - القاهرة.
- تخريج أحاديث إحياء علوم الدين - محمود الحداد - دار العاصمة - الرياض - الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - ١٩٧٨م.
- تخريج الأحاديث والآثار الواردة في تفسير الكشاف - عبدالله بن يوسف الزيلعي - بعناية سلطان بن فهد الطبيشي



- دار ابن خزيمة الطبعة الأولى: ١٩٩٠م.
- التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام -
عبدالرحمن السهيلي - تحقيق عبدالله النقراط منشورات
كلية الدعوة - طرابلس - الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ -
١٩٩٢م.
- تفسير القرآن العظيم - عبدالرحمن بن أبي حاتم - تحقيق
أسعد الطيب - الناشر مكتبة نزار بالباز - الطبعة الأولى:
١٤١٧هـ.
- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا
القرآن الكريم - محمد بن محمد العمادي أبو السعود - دار
إحياء التراث العربي - بيروت.
- تفسير البحر المحيط - أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي -
دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- تفسير التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - مطبعة
عيسى البابي الحلبي - ١٩٦٤م.
- التفسير الكبير - الفخر الرازي - دار الكتب العلمية -
طهران - الطبعة الثانية.
- تفسير القرآن عبدالرزاق بن همام الصنعاني - تحقيق



مصطفى مسلم - مكتبة الرشد - الرياض - الطبعة الأولى:
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

- تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء إسماعيل ابن كثير - دار
المعرفة - بيروت.

- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار - محمد رشيد
رضا - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية.

- التكملة والإتمام لكتاب التعريف والإعلام فيهم من
القرآن - محمد علي بن عساكر - تحقيق أسعد محمد
الطيب - الناشر مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة
المكرمة، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

- التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزال في تفسيره للكتاب
العزیز - علي بن عمر السكوني مخطوط في المكتبة
المركزية - بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - قسم
المخطوطات ٤٩٠٢ تفسير.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبدالرحمن
السعدي - مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ -
١٩٩٦م.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن - محمد بن جرير الطبري -



- دار المعرفة - بيروت، الطبعة الرابعة: ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن - محمد بن جرير الطبري - تحقيق محمود وأحمد شاكر - دار المعارف - مصر.
 - الجامع لأحكام القرآن - أبو عبدالله القرطبي - تحقيق أحمد البردوني - دار الفكر بيروت.
 - حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة غاية القاضي وكفاية الرازي - أحمد بن محمد الخفاجي - دار صادر - بيروت.
 - حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوي - دار إحياء التراث العربي بيروت.
 - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية - عبدالعظيم المطعني مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ.
 - دراسات لأسلوب القرآن الكريم - محمد عبدالخالق عزيمة - دار الحديث - القاهرة.
 - الدر المنثور في التفسير بالمأثور - عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
 - دلائل النبوة - أحمد بن الحسين البيهقي - تحقيق



عبدالرحمن محمد عثمان - دار النصر - القاهرة - الطبعة الثانية: ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - أبو الفضل محمود الألوسي - دار إحياء التراث العربي بيروت.

- الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة - عليه الصلاة والسلام - عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - تحقيق محمد بن بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- السبعة في القراءات - أبو بكر أحمد بن مجاهد - تحقيق شوقي ضيف - دار المعارف القاهرة، الطبعة الثالثة.

- شرح التصريح على التوضيح - خالد الأزهري - دار الفكر - بيروت.

- شرح الشفا للقاضي عياض (بهامش نسيم الرياض) ملا علي القاري - المطبعة الأزهرية - مصر: ١٣٢٧هـ.

- شرح النووي على صحيح مسلم - يحيى بن زكريا النووي - دار الفكر - بيروت.

- صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج - دار المعرفة - بيروت.

- الصحيح المسند من أسباب النزول - مقبل بن هادي الوادعي



- مكتبة المعارف - الرياض: ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي - بإشراف سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله تعالى - دار الفكر - بيروت.
- فتح القدير - محمد بن علي الشوكاني - دار الفكر - بيروت.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ - راجعه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - المكتبة السلفية - المدينة المنورة - الطبعة الخامسة - ١٣٩١هـ.
- القاموس المحيط - مجد الدين الفيروز آبادي - دار الفكر - بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف - أحمد بن حجر العسقلاني - دار المعرفة - بيروت، مكتبة المعارف، الرياض.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل - جار الله محمود بن عمر الزمخشري - دار المعرفة - بيروت.
- لباب النقول في أسباب النزول - جلال الدين عبدالرحمن



- السيوطي، دار إحياء العلوم - بيروت: ١٩٧٩م.
- لسان العرب - محمد بن منظور الإفريقي - المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة - دار صادر، بيروت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - علي بن أبي بكر الهيثمي - مؤسسة المعارف بيروت: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم - مكتبة ابن تيمية.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - عبدالحق بن غالب بن عطية - تحقيق المجلس العلمي بفاس - توزيع مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
- مختصر في شواذ القرآن - الحسن بن أحمد بن خالوية - مكتبة المتنبى - القاهرة.
- المستدرک على الصحيحين - أبو عبدالله الحاكم - دار الكتاب العربي - بيروت.
- معاني القرآن وإعرابه - إبراهيم بن السري الزجاج - تحقيق عبدالجليل شلبي - عالم الكتب بيروت - الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- معجم البلدان - ياقوت بن عبدالله الحموي - دار إحياء



- التراث العربي - بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- معجم المناهي اللفظية - بكر بن عبدالله أبو زيد - دار ابن الجوزي الدمام، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب - عبدالله بن هشام الأنصاري - بعناية محمد محي الدين عبدالحميد - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- المفردات في غريب القرآن - الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني - تحقيق محمد سيد كيلاني - شركة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة: ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- نداء المخاطين في القرآن الكريم - بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية - العدد الثامن: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، لعلي عبدالواحد وايفي.
- النداء في اللغة والقرآن - أحمد بن محمد فارس - دار الفكر اللبناني - الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض - أحمد بن محمد الخفاجي - المطبعة الأزهرية - مصر ١٣٢٧هـ.
- النشر في القراءات العشر - محمد بن محمد بن الجزري - تحقيق علي الضباع - دار الكتاب العربي - بيروت.



- النكت والعيون (تفسير الماورى) - علي بن محمد الماوردي -
بعناية سيد عبدالمقصود - مؤسسة الكتب الثقافية - دار
الكتب العلمية.
- النهاية في غريب الحديث والأثر - أبو السعادات ابن الأثير -
تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي - دار الباز - مكة
المكرمة.





تأثر أبي حيان بالفخر الرازي

في تفسيره (البحر المحيط) واعتراضاته عليه^(١)

(١) بحث محكم منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: (٤٣)، سنة ١٤٢٤ هـ.



المقدمة

الحمد لله رب العالمين إله الأولين والآخرين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله أكرم هذه الأمة بأن أرسل إليها أفضل رسله وأنزل عليه خير كتبه القرآن الكريم، نوراً وهدى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ

هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ

أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ (١)، وقد اجتهد علماؤنا من المفسرين

وغيرهم في خدمة كتاب الله عز وجل والعناية به، في جميع المجالات، من حيث تفسيره وبيان أحكامه وآدابه، وإعرابه وبيان غريبه، والوقوف على نكاته ولطائفه، وقد يتأثر أحدهم بمن سبقه من الأئمة الأعلام مكثفياً بما نقله عنه، وربما كان لأحدهم شخصية واضحة وجهد مشكور من حيث حسن الانتقاء والإفادة من مصادره، وبروز شخصيته من حيث الاختيار والترجيح والاعتراض والمناقشة.

وقد رأيت في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي كثرة نقوله عن الفخر الرازي المعزوة إليه وغير المعزوة في تفسيره التفسير

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.



الكبير، وتأثره به ومواقفه الواضحة معه من حيث القبول والرفض، والمناقشة والاعتراض، وتتبع هذا أكثر فوجدت مادة علمية تستحق الدراسة والبحث، فعقدت العزم مستعيناً بالله عز وجل على الكتابة في هذا الموضوع بعنوان: «تأثر أبي حيان بالفخر الرازي في تفسيره البحر المحيط واعتراضاته عليه».

ولم يغب عن ذهني صعوبة الكتابة في هذا الموضوع، لسعة مادته وتطلب القراءة في هذين التفسيرين العظيمين، والوقوف حكماً بين هذين الإمامين الجليلين اللذين أثريا المكتبة الإسلامية بالكتب النافعة والمصنفات المختلفة في علوم شتى، ومما زاد الأمر صعوبة مشقة القراءة في البحر المحيط، وكثرة الأخطاء المطبعية فيهما، ولكن مما خفف هذا الأمر علي وزادني نشاطاً حب النظر في تفسير كلام الله عز وجل والعيش في رحاب ما كتبه المفسرون في بيان معانيه واستنباط الأحكام منه، والإفادة من مناهجهم وطرائقهم في ذلك، وبخاصة الارتباط بمثل هؤلاء الأئمة الأعلام، الذين كانت لهم خدمة وعناية متميزة بكتاب الله عز وجل.

وقد جاءت خطة البحث كما يلي:

• المقدمة.

• الفصل الأول: الإمامان الفخر الرازي وأبو حيان الأندلسي

وتفسيرهما .. وفيه مبحثان:

• المبحث الأول: الإمام الفخر الرازي وتفسيره التفسير الكبير



- المسمى مفاتيح الغيب، وفيه مطلبان:
- المطلب الأول: الإمام الفخر الرازي.
- المطلب الثاني: تفسيره التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب.
- المبحث الثاني: الإمام أبو حيان الأندلسي وتفسيره البحر المحيط .. وفيه مطلبان:
- المطلب الأول: الإمام أبو حيان الأندلسي.
- المطلب الثاني: تفسيره البحر المحيط.
- الفصل الثاني: تأثر أبي حيان بالفخر الرازي في تفسيره البحر المحيط .. وفيه مباحث:
- المبحث الأول: تأثره به في المناسبات.
- المبحث الثاني: تأثره في نقل أقوال المفسرين.
- المبحث الثالث: تأثره به في تفسير الآيات وأسلوبه في ذلك.
- المبحث الرابع: تأثره به في علم الطبيعة والهيئة والفلك.
- المبحث الخامس: تأثره به في أصول الدين والرد على المعتزلة.
- المبحث السادس: تأثره به في أصول الفقه.
- الفصل الثالث: اعتراضات أبي حيان على الفخر الرازي في تفسيره البحر المحيط، وفيه مباحث:
- المبحث الأول: اعتراضه عليه منهجه في كتابة التفسير.
- المبحث الثاني: اعتراضه عليه ذكر أقوال الفلاسفة في التفسير وتحذيره منهم.



- المبحث الثالث: جهل الرازي بالنحو عند أبي حيان ورده الشديد عليه.
- المبحث الرابع: اعتراضات أخرى.
- الخاتمة.
- ثبت المصادر والمراجع.

وقد حرصت على عدم الإطالة، فكنت أذكر المثال والمثاليين والثلاثة عند الحاجة، محياناً في الحاشية إلى الأمثلة الأخرى، كما حرصت أيضاً على عزو الآيات وتوثيق القراءات والنقول ونسبة الأقوال لأصحابها، وتركت ترجمة الأعلام خشية الإطالة، وعند العزو إلى تفسيريهما اكتفيت بالتصريح بهما أولاً ثم أحلت على أرقام الصفحات دون ذكر رقم المجلد مرة ثانية؛ لأنني ذكرته في بداية الحاشية خشية الإطالة.

وبعد فإنني لا أدعي الإحاطة والشمول بكتابتي في هذا الموضوع، لكن هذا ما استطعته بعد قراءة متأنية مع بذل الجهد واستغلال الوقت في هذا العمل المبارك، واستغفر الله من تقصيري وخطئي.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من أهل القرآن، وأن يجعله شافعياً لنا يوم القيامة.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





الفصل الأول:

الإمامان الفخر الرازي وأبو حيان الأندلسي وتفسيرهما

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الإمام الفخر الرازي وتفسيره الكبير المسمى

مفاتيح الغيب، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الإمام الفخر الرازي^(١)

اسمه ونسبه:

هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين بن علي التيمي من ذرية أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - القرشي فخر الدين الرازي، المشهور بابن خطيب الري.

ولادته ونشأته:

ولد الفخر الرازي في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٤٣هـ وقيل سنة ٥٤٥هـ بالري، في بيت علم وفضل وصلاح، فوالده

(١) ينظر لترجمته: وفيات الأعيان ٤/٢٤٨، طبقات الشافعية الكبرى ٨/٨١، البداية والنهاية: ١٣/٦٠، الوافي بالوفيات ٤/٢٤٨، شذرات الذهب ٥/٢١، النجوم الزاهرة: ٦/١٩٧.



ضياء الدين من أئمة الشافعية وأحد الفصحاء الأدباء، فترى الفخر الرازي على يدي والده، الذي أولاه كل رعاية وعناية، فلازمه ودرس عليه الفقه والأصول، ثم رحل في طلب العلم والمعيشة سنين طويلة، بدأ أولاً بالتوجه إلى خوارزم، ثم قصد بخارى سنة ٥٨٠هـ، ثم انتقل إلى سمرقند وغزنه وبلاد الهند، ثم عاد إلى بخارى، ثم استقر مقامه بموطنه الأصلي الري، وكان في رحلاته وإقامته بتلك البلاد شغوفاً بطلب العلم والأخذ عن الشيوخ والتعرف على تلك البلاد وعادات أهلها، مقدرًا محترمًا بين الولاة والأمراء فيها، فأكرموه وأجلوه ووصلوه بالعطايا وبالغوا في إكرامه، وبنوا له المدارس.

شيوخه وتلاميذه:

ذكرت آنفاً أن أول طلب الرازي العلم كان على والده الذي لازمه وأفاد من علومه إلى أن مات، ثم قصد الكمال السمناني، وتفقه على يده مدةً ثم على المجد الجيلي، وغيرهم.

فلما تمهر في العلوم ونال من جميع المعارف حظاً كبيراً قصده الطلاب من البلاد وشدت إليه الرحال من الأقطار، وكان يحضر دروسه الأفاضل الأكابر، منهم تلميذه شرف الدين محمد بن عنين، وأبو عبدالله الحسن الواسطي، وإبراهيم بن أبي بكر



الأصبهاني، والقطب الطوعاني، وشمس الدين محمد الوتار الموصلية وعبد الحميد الخسر وشاهي، وكان إذا ركب مشى حوله نحو ثلاثمائة من الفقهاء وغيرهم، لذا فقد كان يلقب بشيخ الإسلام، يقول السبكي: «وكان شديد الحرص جداً في العلوم، وأصحابه أكثر الخلق تعظيماً له وتأديباً معه، له عندهم المهابة الوافرة»^(١).

سعة علومه وتنوع معارفه:

نشطت الحركة العلمية بالبلاد الفارسية خلال القرن السادس، وتنوعت العلوم وكثرت التصانيف في شتى الفنون، وهو العصر الذي عاش فيه الرازي، فأفاد من هذه الثقافات واتصل بتلك العلوم اتصالاً مباشراً، حتى انعكست على شخصيته العلمية وطبعتها بالطابع الموسوعي، فكان بحق من علماء عصره في التفسير والفقهاء وأصوله والمنطق والفلسفة وعلم الكلام، والمذاهب الكلامية والرياضيات والهندسة، والطب والحكمة والهيئة والفلك وعلوم اللغة والأدب وله شعر، وقد حظي بأعلى المراتب وأسمائها لدى كثير من ملوك زمانه وأهل العلم وطلابه، فكان يلقب بينهم بشيخ الإسلام وبالإمام، وإلى جانب تبخره في مختلف العلوم فقد كان

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٨٦.



صاحب دين وصلاح، ووعظ وتذكير باللسان العربي والفارسي،
يكثر البكاء ويبكي سامعيه (١).

عقيدته ومذهبه الفقهي:

الإمام الفخر الرازي أشعري المعتقد، ينهج طريقة أهل الكلام
والفلسفة في أصول الدين، وقد أكثر الرد على المعتزلة، وهذا
ظاهر في تفسيره، كما كان بينه وبين الكرامية القائلين بالتشبيه
ردود طويلة، ينال منهم وينالون منه سباً وعبياً، حتى قيل: إنهم
وضعوا عليه من سقاه سمّاً فمات ففرحوا بموته.

وقد اشتهر عنه أنه رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة ولزم
طريقتهم وندم على ما فات منه، وله في ذلك أبيات منها:

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| وأكثر سعي العالمين ضلال | نهاية إقدام العقول عقاب |
| وحاصل دنيانا أذى ووبال | وأرواحنا في وحشة من جسوننا |
| سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا | ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا |

وروي عنه قوله: «يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام» ثم بكى،
وروي عنه قوله: «لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية
فلم أجد لها تروياً غليلاً ولا تشفي عليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة
القرآن، اقرأ في الإثبات» ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ،

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨/٨٦.



﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴾ (٥) ﴿ وفي النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، وكان يقول: «من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز»، وقد جاء في وصيته عند موته أنه رجع عن مذهب أهل الكلام إلى طريقة السلف، والتسليم لما ورد على الوجه اللائق به سبحانه (١).

أما مذهبه الفقهي فهو من كبار أئمة الشافعية، يقول عنه ابن كثير: «أحد الفقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار» (٢) ، فله مناقب الشافعي، شرح الوجيز في الفقه للغزالي، والمحصول في أصول الفقه، وهو من أهم كتب الأصول عند الشافعية خاصة وفي أصول الفقه عامة، وفي الأغلب يختار مذهب الشافعية ويرجح آراءهم في تفسيره.

مؤلفاته:

خلف الفخر الرازي الكثير من الكتب والتأليف في شتى العلوم والفنون، يقول ابن خلكان: «له التصانيف المفيدة في فنون عديدة .. وكل كتبه ممتعة، وانتشرت تصانيفه في البلاد، ورزق فيها سعادة عظيمة، فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين، وهو أول

(١) ينظر لما سبق: وفیات الأعيان ٤/ ٢٥٠، البداية والنهاية ١٣/ ٦٠-٦١.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٦٠.



من اخترع هذا الترتيب في كتبه، وأتى فيها بما لم يسبق إليه»^(١).
ومن أوسع كتبه التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب، ومناقب
الشافعي والمحصل في أصول الفقه، وشرح الوجيز للغزالي،
وتأسيس التقديس، والمعالم في أصول الدين، والمعالم في أصول
الفقه، والمخلص في الفلسفة، وشرح سقط الزند لأبي العلاء،
وكتاب الملل والنحل، وغير ذلك كثير، فقد ذكر ابن كثير أن له
أكثر من مائتي مصنف ما بين صغير وكبير^(٢).

وفاته وأقوال العلماء فيه:

توفي الفخر الرازي يوم الاثنين في عيد الفطر سنة ست وستمئة
من الهجرة بمدينة هراة، قال عنه ابن خلكان: «فريد عصره،
ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في الكلام والمعقولات وعلم الأوائل،
ومناقبه أكثر من أن تعد، وفضائله لا تحصى ولا تعد»^(٣).

وقال السبكي: «إمام المتكلمين ذو الباع الواسع في تعليق
العلوم، والاجتماع بالشاسع من حقائق المنطوق والمفهوم»^(٤).



(١) وفيات الأعيان ٤/٢٤٩.

(٢) ينظر لمؤلفاته: الرازي مفسراً ٣٥-٤٧.

(٣) وفيات الأعيان: ٤/٦٠.

(٤) طبقات الشافعية ٨/٨١-٨٢.



المطلب الثاني:

التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب

تاريخ كتابته:

لا يمكن الجزم بمعرفة تاريخ بداية كتابة الرازي تفسيره لأنه كتب تفسير الفاتحة في جزء ضخم مستقل عن بقية أجزاء التفسير ثم أضافه إلى تفسيره، وأيضاً سورة البقرة لم يؤرخ تفسيره لها، وأول تاريخ يواجهها هو تاريخ تفسيره سورة آل عمران، حيث انتهى من تفسيرها في اليوم الأول من ربيع الآخر سنة ٥٩٥هـ، والظاهر من التواريخ الموجودة في نهاية بعض السور أنه لم يفسر القرآن جملة واحدة بل كان مفرقاً في سنين، ولم يراع أيضاً ترتيب السور حين كان يفسرها، وقد ترك وضع التواريخ في نهايات بعض السور، وآخر تاريخ ذكره هو في نهاية تفسير سورة الأحقاف هو يوم الأربعاء العشرون من ذي الحجة سنة ٦٠٣هـ^(١).

نسبة تفسيره إليه كاملاً:

ذكر بعض المتقدمين أن الفخر الرازي لم يكمل تفسيره، على خلاف بينهم فيمن أكمله وإلى أي حد وصل الرازي في تفسيره،

(١) ينظر: الرازي مفسراً ٥١-٥٢.



فقد قال ابن حلكان: «له التصانيف المفيدة في فنون عديدة، منها تفسير القرآن الكريم، جمع فيه كل غريب وغريبة، وهو كبير جداً لكنه لم يكمله»^(١). وقال ابن قاضي شهبه: «ومن تصانيفه تفسير كبير لم يتمه، في اثني عشر مجلداً كباراً، أسماء مفاتيح الغيب»^(٢)، وقال ابن حجر: «إن الذي أكمل تفسير الرازي هو أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكي نجم الدين المخزومي القمولي المصري الذي توفي سنة ٧٢٧هـ»^(٣)، وقال حاجي خليفة: «وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد القمولي تكملة له وتوفي سنة ٧٢٧هـ، وقاضي القضاة شهاب الدين بن خليل الخويي الدمشقي، كمل ما نقص منه أيضاً، وتوفي سنة ٦٣٩هـ»^(٤).

وقد اختلفت آراء المعاصرين في هذه المسألة وكيفية الجمع بين ما قيل عنه والإجابة عن الإشكالات التي تورد على كل قول، وأقربها عندي - والعلم عند الله سبحانه وتعالى - ما ذهب إليه الدكتور محسن عبد الحميد وغيره وهو أن التفسير الكبير من أول تفسير سورة الفاتحة إلى آخر تفسير سورة الناس له وليس لغيره،

(١) وفيات الأعيان ٤/٢٤٩.

(٢) شذرات الذهب ٥/٢١.

(٣) الدرر الكامنة ١/٣٠٤.

(٤) كشف الظنون ٢/٢٩٩، التفسير ورجاله ٩٥-١٠١.



وقد أطل الحديث في التدليل على صحة ما ذهب إليه، والإجابة عن أقوال الآخرين، بعد قراءته للتفسير كله^(١).

غرضه من تأليفه:

عاش الفخر الرازي في زمن تفتش فيه مذهب الكرامية وبخاصة في بلاده وما جاورها، ولاحظ إقبال الكثير من الناس على تفسير الكشاف للزمخشري الذي أحيا فيه مذهب المعتزلة وناصره وأعلنه، وأدرك ما فيه من خطر على دينهم وعقولهم، فهو تفسير يعنى بالإعجاز البياني اللغوي ويغلب عليه الطابع العقلي والمذهب الاعتزالي، وقد لمس الرازي شغف الناس بهذا التفسير وما فيه من آراء، فتصدى لمجابهتها وناظر بعض المتحمسين لها، ثم ألف تفسيره مفضداً فيه ما ورد في الكشاف من التأويل ونصرة مذهب المعتزلة، ومبرزاً أوجهاً من الإعجاز القرآني في إشاراته الكونية وآياته العلمية، دفاعاً عن القرآن واستدلالاً على أنه من الله سبحانه، وحديث الرازي عن الأمور العقلية في تفسيره وخوضه في المسائل الفلسفية إنما كان لتقوية الدين وتوريث اليقين، وإزالة الشكوك والشبهات، وإبطال الجهالات والضلالات، التي احتوتها تفاسير المعتزلة كالكشاف وغيره، مع الرد على المذاهب الضالة الأخرى

(١) الرازي مفسراً، وانظر التفسير والمفسرون ١/٢٩١، بحث حول تفسير الرازي: ١٠١-



كالشيعية الذين كان لهم مكان ونفوذ في تلك البلاد (١).

مصادره في تفسيره:

اعتمد الرازي في كتابة تفسيره على مصادر كثيرة، متنوعة، العلوم متعددة المعارف، مع ظهور شخصيته في الانتقاء والاختيار والترجيح.

ويمكن تصنيف مصادره فيما يلي:

أولاً: التفسير بالمأثور: اعتمد الرازي على أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم في التفسير، كالمروي عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وقتادة وعطاء وغيرهم، نقل عنهم معاني الكلمات وتفسير الآيات وأسباب النزول والقراءات والأخبار وغير ذلك، مع التعقيب عليها بالترجيح والاختيار والتوجيه، وكان يعتمد في ذلك على تفسير الطبري (جامع البيان)، و(الكشف والبيان) للشعبي.

ثانياً: التفسير اللغوي: اعتمد فيه على جملة من كتب معاني القرآن وإعرابه وبيان مشكله وتوجيه قراءاته وبيان غريبه مع الاختيار والاختصار وحسن الانتقاء والترتيب،

(١) ينظر الحاشية السابقة.



ومن تلك الكتب: معاني القرآن للفراء، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج، والبسيط للواحدي، والكشاف للزمخشري.

ثالثاً: المصادر الأشعرية: أفاد الرازي مما كتبه علماء الأشاعرة في التفسير وبيان أحكام الآيات واستنباط الدقائق واللطائف منها، ومن هؤلاء الأعلام أبو بكر محمد بن أحمد الشاشي القفال والغزالي.

رابعاً: تفسير آيات الأحكام:

اعتنى الرازي بذكر مذاهب الأئمة الفقهاء وأقوالهم وأدلتهم في تفسير آيات الأحكام، معتمداً في ذلك على كتب التفسير كأحكام القرآن للجصاص الحنفي وكتب الفقهاء، مع الاختيار والترجيح والإجابة عن أدلة المذاهب الأخرى.

مادته العلمية وأسلوبه في عرضها:

حظي التفسير الكبير بشهرة واسعة بين الناس؛ لأنه امتاز عن غيره من كتب التفسير بالعلوم الكثيرة والأبحاث الواسعة في نواح شتى من المعارف المتنوعة فهو يبدأ تفسير الآيات بذكر المناسبات بينها وقد لا يكتفي بذكر وجه واحد منها بل يذكر أكثر من ذلك، ثم يذكر ما ورد عن النبي ﷺ وأقوال المفسرين من الصحابة



والتابعين ومن بعدهم في ذكر معاني مفردات الآية وتفسيرها، ويذكر القراءات معزوة إلى قرائها وتوجيهها لغة ومعنى، وكان يكثر الاستطراد في المسائل الكلامية والاستدلال بها على أصول الدين وإثبات المعاد ونحو ذلك من العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وبطيل في الاستنباطات والتفريعات، وقد استنكر على من أنكر عليه هذا المنهج، حيث قال في أول تفسير سورة الفاتحة: «أعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن أن يستتبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد، وقوم من أهل الجهل والغي والعناد، وحملوا ذلك على ما ألقوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاهد والمباني»^(١)، وقال أيضاً: «ربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال: إنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم وذلك على خلاف المعتاد، فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته ..

فلكثرة الدلائل وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين وإزالة الشبهات، وإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل الكتاب لهذه الفوائد والأسرار، لا لتكثير النحو والغريب

(١) التفسير الكبير ١/ ١١.



والاشتقاقات الخالية عن الفوائد والحكايات الفاسدة^(١).

ويعرض أقوال الفلاسفة وقد يسميهم حكماء الإسلام، ويناقد استدلالاتهم العقلية، وكان لا يدع مذهب المعتزلة وما يقررونه من مسائل علم الكلام وتأويل الآيات حتى توافق أصولهم وعقيدتهم، فيذكر أقوالهم وحججهم ويرد عليها، وقد يورد شبههم ويتوسع في ذلك ثم يضعف أو يقصر في الرد عليها ولهذا قال الحافظ ابن حجر: «وكان يعاب بإيراد الشبهة الشديدة ويقصر في حلها، حتى قال بعض المغاربة: يورد الشبه نقداً ويحلها نسيئة»^(٢)، وقال ابن كثير: «ومنها: أنه كان يقرر الشبهة من جهة الخصوم بعبارات كثيرة، ويجيب عن ذلك بأدنى إشارة وغير ذلك»^(٣).

وكان يذكر مذاهب الفقهاء في تفسير آيات الأحكام مع ترجيح مذهب الشافعي بالأدلة والبراهين في الغالب، ويذكر المسائل الأصولية والقواعد الفقهية وقد يستطرد في ذلك.

ولم يخل تفسيره من ذكر المسائل النحوية والنكات البلاغية واللطائف البيانية، وإن كان لا يتوسع في ذلك توسعه في مسائل العلوم الكونية والطبيعية التي تغلب عليه، ولذلك قال ابن خلكان:

(١) التفسير الكبير ١٤/١١٩-١٢٢.

(٢) لسان الميزان ٤/٤٢٧.

(٣) البداية والنهاية ١٣/٦١.



«جمع فيه كل غريب وغريبة»، وقال أبو حيان: «جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير»^(١)، وقال حاجي خليفة: «إن الإمام فخر الدين الرازي ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظر العجب».

وعلى الرغم من كثرة المسائل التي حواها تفسيره وصعوبة بعضها وتشعب فروعها، فقد تميز أسلوبه في عرضها وبيانها بسهولة اللفظ وسلامة التعبير، مع استعمال المترادفات والحرص على ترابط الأفكار مع العناية بالتقسيم والتبويب، وذكر المسائل المتتابعة في قالب علمي تقريرى، وهذا ما أشار إليه ابن خلكان بقوله: «وهو أول من اخترع هذا الترتيب في كتبه، وأتى فيها بما لم يسبق إليه»، وفي هذا يقول ابن عاشور: «فأصبح علماً مفرداً في الجمع والمزج بين الفنون وسهولة هضم بعضها ببعض، وبذلك علت سمعته وعظم صيته، وتمكن من سلوك طريقة في التأليف والبحث والعرض انفراد بها، وأفاد منها كل فن من خصائص الفن الآخر»^(٢).

تأثيره فيمن بعده:

للتفسير الكبير مكانة جلية بين كتب التفسير، فكان له

(١) البحر المحيط ١/ ٤٣١.

(٢) التفسير ورجاله ٨٢-٨٣.



الأثر الواضح فيمن بعده، حيث أفاد منه من جاء بعده من المفسرين، يكثر هذا في بعض التفاسير حتى يكون سمة غالبية عليها من حيث كثرة النقل عنه أو تلخيص ما عنده، مثل ما جاء في تفسير البحر المحيط لأبي حيان، وتفسير أنوار التنزيل للبيضاوي، وأنوار الحقائق الريانية في تفسير اللطائف القرآنية لأبي الثناء الأصفهاني، وغرائب الفرقان للحسين بن محمد القمي النيسابوري، وروح المعاني للألوسي، وتفسير المنار لمحمد شيد رضا، وقد يكون لبعضهم مواقف منه بالمناقشة والتوجيه والترجيح والاختيار منهم أبو حيان في تفسيره البحر المحيط، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى^(١).



(١) ينظر للتوسع: الرازي مفسراً ٥١-٢٢٧، الإمام الحكيم فخر الدين الرازي: ٥٤-٩٢.



المبحث الثاني:

الإمام أبو حيان الأندلسي وتفسيره البحر المحيط

وفيه مطلبان:

المطلب الأول:

الإمام أبو حيان الأندلسي^(١)

اسمه ونسبه: أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن حيان النفزي الجياني الأندلسي.

ولادته ونشأته:

ولد أبو حيان بـ«مُطَخَشَارِش» إحدى حواضر غرناطة في آخريات شوال سنة أربع وخمسين وستمائة ٦٥٤هـ.

نشأ أبو حيان في غرناطة أكبر مدن الأندلس التي قامت بها مملكة غرناطة في القرن السابع الهجري، فجددت النشاط العلمي

(١) لم أتوسع في هذا المبحث؛ لأن لي دراسة مستقلة في كتاب مطبوع بعنوان: أبو حيان وتفسيره البحر المحيط، من منشورات مكتبة الرشد بالرياض، وينظر لترجمته: طبقات الشافعية الكبرى ٦/٢٧٩ الوافي بالوفيات ٥/٢٦٧، نفع الطيب ٢/٥٣٥، معرفة القراء الكبار ٢/٧٢٣، الدرر الكامنة ٤/٣٠٢ بغية الوعاة ١/٢٨٠، وغيرها.



والفكري، فكانت موئل العلماء كافة في جميع العلوم والفنون، فتلقى أبو حيان علومه الأولى فيها على شيوخ عصره، فقرأ بها القراءات والنحو واللغة، ثم تنقل في مدن الأندلس، طالباً للعلم مجتهداً في تحصيل المعارف.

يقول عنه تلميذه الصفدي: «واجتهد وطلب وحصل وكتب وقيد، ولم أر في أشياخي أكثر اشتغالاً منه لأنني لم أره إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب، ولم أره على غير ذلك، وله إقبال على الطلبة الأذكياء، وعنده تعظيم لهم .. وهو ثبت فيما ينقله محرر لما يقوله، عارف باللغة ضابط لألفاظها، وأما النحو والتصريف فهو إمام الدنيا فيهما، لم يذكر معه في أقطار الأرض غيره في العربية، وله اليد الطولى في التفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وتواريخهم وحوادثهم»^(١).

رحلاته:

تنقل أبو حيان في بلاد الأندلس ثم في بلاد المغرب ثم شمال إفريقيا حتى حط رحاله بالقاهرة، وقد مر خلال هذه الرحلة العلمية، تعلماً وتعليماً، طالباً وتدريساً بالعديد من المدن والحوضر الإسلامية مثل: مالقة والمرية وتونس والإسكندرية ومكة وجدة والقاهرة.

(١) الوافي بالوفيات ٥/ ٢٦٧-٢٦٨.



وقد اختلف في الأسباب التي جعلت أبا حيان يترك بلاده ويرحل عنها إلى المغرب ثم إلى المشرق، منها ما ذكره السيوطي أنه رأى في كتاب أبي حيان «النضار» أنه مما قوى عزمه على الرحلة عن غرناطة أن بعض العلماء بالمنطق والفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية قال للسلطان: «إني قد كبرت وأخاف أن أموت، فأرى أن ترتب لي طلبه أعلمهم هذه العلوم لينفخوا السلطان من بعدي، قال أبو حيان: فأشير إلي أن أكون من أولئك، ويرتب لي راتب جيد وكسا وإحسان، فتمنعت ورحلت مخافة أن أكره على ذلك»^(١).

وقد استفاد أبو حيان من هذه الرحلات، حيث تعددت شيوخه وتبوعت معارفه واتسعت علومه، مما كان له الأثر الواضح في بناء شخصيته العلمية، وقد نال في القاهرة عاصمة المماليك البحرية آنذاك سنة ٦٨٠هـ، منزلة عالية ومكانة مرموقة، فأسند إليه تدريس التفسير والحديث بالمدرسة المنصورية، ودراسة الإقراء بالجامع الأقمر والجامع الحاكمي، يقول لسان الدين ابن الخطيب: «ونالته نبوة لحق بسببها بالمشرق، واستقر بمصر، فنال بها ما شاء من عز وشهرة وتأنل وافر وحظوة»^(٢).

(١) بغية الوعاة ١/ ٢٨١.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة ٣/ ٤٣.



شيوخه وتلاميذه:

إن الناظر في حياة أبي حيان يرى أنه أمام إمام كبير متعدد الجوانب العلمية، فهو عالم بالتفسير والحديث، إمام في اللغة والنحو والتصريف وغير ذلك، وإن نظرة في شيوخه تعطينا مدى ما وصل إليه من معرفة واطلاع واسع، يقول عن نفسه: «وجملة من سمعت منهم خمسمائة، والمجيزون أكثر من ألف»^(١)، ومن أشهرهم: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، وأبو جعفر أحمد بن عبدالنور المالقي، وابن الطباع أحمد بن علي الرعيني، وأبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني، وعبد المؤمن بن خلف الدمياطي، وأبو الحسين عبيد الله بن أحمد بن أبي الربيع الإشبيلي، وغيرهم.

وقد جلس أبو حيان لإقراء الطلاب فالتف حوله تلاميذ كثير، ينهلون من علومه ويدرسون على يديه، يقول تلميذه تاج الدين السبكي: «وكان الشيخ أبو حيان إماماً منتفعاً به، اتفق أهل العصر على تقديمه وإمامته، ونشأت أولادهم على حفظ مختصراته، وآباؤهم على النظر في مبسوطاته، وضربت الأمثال باسمه، مع صدق اللهجة، وكثرة الإقتان والتحري»^(٢)، ومن

(١) نفع الطيب ٢/ ٥٦٠.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٩/ ٢٧٩.



أشهر تلاميذه: إبراهيم بن محمد السفاقسي، وأحمد بن عبد القادر بن مكتوم، وعلي بن عبد الكافي السبكي وأبناؤه، أحمد والحسين وعبد الوهاب، وأحمد بن يوسف الحلبي المعروف بالسمين وعبد الرحيم بن الحسن الإسنوي، وعبد العزيز بن محمد بن جماعة الكناني، وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي وغيرهم.

عقيدته ومذهبه الفقهي:

ذكر من ترجم لأبي حيان أنه أشعري المعتقد سالم من البدع الفلسفية والكلامية يرفض مذهب الاعتزال ويرد على أصحابه تأويلاتهم آيات القرآن الكريم، وكان يشنع على فلاسفة زمانه ومتصوفته وما ورثوه عن علمائهم من معتقدات ضالة وأقوال باطلة، وهذا ظاهر في تفسيره البحر المحيط.

أما عن مذهبه الفقهي فقد كان مالكيًا في أول أمره ثم تمذهب بالظاهرية إبان إقامته بالأندلس، حيث كان هذا المذهب منتشرًا هناك، وكان يقول: «مجال أن يرجع عن مذهب الظاهرية من علق بذهنه»^(١)، وعندما جاء إلى مصر أخذ بمذهب الشافعي الذي كان مشهوراً في تلك البلاد.

(١) الدرر الكامنة، ٤/٣٠٤.



مؤلفاته:

صنف أبو حيان في علوم متعددة كالتفسير والقراءات والفقہ والحديث والنحو والصرف والأدب واللغة، بل وفي اللغات الأخرى، وهي تزيد على الخمسين ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود، فمن المطبوع: تفسيره البحر المحيط، وارتشاف الضرب من لسان العرب، وتحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، وتذكرة الحفاظ، والنهر الماد من البحر المحيط، وغيرها.

وفاته:

توفي أبو حيان عشية يوم السبت الثامن والعشرين من صفر سنة ٧٤٥هـ في القاهرة. وقد كان لوفاته أثر بالغ في نفوس تلاميذه وأصحابه، فرثوه بقصائد كثيرة، من أشهرها قصيدة تلميذه الصفدي التي أولها:

مات أثير الدين شيخ الورى فاستعر البارق واستعبرا
ورق من حزن نسيم الصبا واعتل في الأسحار ما سرى





المطلب الثاني:

تفسيره البحر المحيط

من أجل ما صنف أبو حيان تفسيره البحر المحيط، يقول عنه ابن الجزري: «له التفسير الذي لم يسبق إلى مثله سماه البحر المحيط في عشر مجلدات كبار، واختصره في ثلاث مجلدات، سماه النهر»^(١).

زمن تأليف الكتاب ومكانه:

ذكر أبو حيان في مقدمة تفسيره زمن تأليف تفسيره ومكانه وذلك أواخر سنة عشر وسبعمائة، ومكانه بمصر في دولة المماليك.

مصادره:

رجع أبو حيان في كتابة تفسيره إلى الكثير من الكتب في القراءات والتفسير، والنحو والتصريف واللغة والحديث وعلم الكلام والفقه وأصوله وغير ذلك، وإن قراءة متأنية في تفسيره تعطي الدارس إماماً بمصادره التي رجع إليها وما ضمه من نقولات وإحالات على كتب لا تزال مخطوطة أو مفقودة إلى الآن.

ولا شك أن هذه المصادر أثرت كتابه ونوعت مادته العلمية، مع ما كان له فيه من شخصية واضحة، فمن مصادره في القراءات

(١) ينظر: غاية النهاية: ٢٨٦/٢.



وتوجيهها: الإقناع في القراءات السبع لابن الباذش، والإقناع في القراءات الشاذة للأهوازي: والتذكار في القراءات العشر للبغدادي، والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي، وفي اللغة: الأمالي الشجرية، وأمالي ثعلب، وفي التفسير: التفسير الكبير للرازي والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، والتحرير والتحبير لابن النقيب، والكشاف للزمخشري، والمحزر الوجيز لابن عطية، وفي النحو: الكتاب لسيبويه، والبسيط لابن أبي الربيع، والتسهيل لابن مالك واللباب للأسفراييني، وغير ذلك.

مادته العلمية:

جمع أبو حيان في تفسيره مادة علمية غزيرة الفنون متنوعة المعارف، حتى صار تفسيره من مراجع التفسير الرئيسة، فقد جمع فيه القراءات المتواترة والشاذة معزوة لقراءتها في الغالب مع توجيهها والدفاع عنها والرد على الطاعنين فيها، وعني أيضاً باللغة والنحو والتصريف، فيذكر معاني المفردات بالتفصيل في أول موضع ترد فيه الكلمة ويذكر لهجات القبائل، والوجوه الإعرابية التي تحتملها الآية مع الاختيار والترجيح.

واعتنى فيه أيضاً بالرد على المعتزلة، وبخاصة الزمخشري، مع عنايته بعلم الكلام وأصول الدين، وكان يذكر مذاهب الفقهاء وحججهم وأدلتهم في تفسير آيات الأحكام، وغير ذلك.



منهجه في تفسيره:

أبان أبو حيان عن منهجه في تفسيره بقوله: «وترتبي في هذا الكتاب أني ابتدئ أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظة لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة، والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة؛ لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه، فيحمل عليه.

ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها، إذا كان لها سبب، ونسخها ومناسبتها وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات شاذها ومستعملها، ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، متكلماً على جليها وخفيها، بحيث إنني لا أغادر منها كلمة، وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها، مبدياً ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب، من بديع وبيان، مجتهداً أني لا أكرر الكلام في لفظ سبق، ولا في جملة تقدم الكلام عليها، ولا في آية فسرت، بل أذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرض تكرير فبمزيد فائدة، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني، محيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه، وكذلك ما



نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقريرها والاستدلال عليها على كتب النحو.

وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريباً، أو خلاف مشهور ما قاله معظم الناس بادئاً بمقتضى الدليل، وما دل عليه ظاهر اللفظ، مرجحاً (بذلك) ^(١) ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه منكباً في الإعراب عن الوجوه التي ينزه القرآن عنها مبيناً أنها مما يجب أن يعدل عنه، وأنه ينبغي أن يحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب، إذ كلام الله تعالى أفضل الكلام، فلا يجوز فيه ما يجوزه النحاة في شعر الشماخ، والطرماح، وغيرها من سلوك التقادير البعيدة، والتراكيب القلقة والمجازات المعقدة.

ثم أختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرتها أفراداً وتركيباً بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصاً. ثم أتبع آخر الآيات بكلام منثور أشرح مضمون تلك الآيات، على ما اختاره من تلك المعاني، ملخصاً جملها في أحسن تلخيص، وقد ينجر معها ذكر معاني لم تتقدم في التفسير. وصار ذلك أنموذجاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقي من سائر القرآن وستقف على هذا المنهج الذي سلكته إن شاء الله تعالى» ^(٢).

(١) هكذا في المخطوط ١/٣/ب، وفي المطبوع: له ذلك.

(٢) البحر المحيط: ١/٤-٥.



طبعاته ومخطوطاته:

طبع تفسير البحر المحيط في ثمانية مجلدات كبيرة في مصر سنة ١٣٢٨هـ بمطبعة السعادة طبعة غير محققة، على نفقة سلطان المغرب الأقصى عبدالحفيظ بن الحسن بن محمد، وطبع بهامشه تفسيران:

- ١- تفسير النهر الماد من البحر المحيط، لأبي حيان نفسه.
 - ٢- كتاب الدر اللقيط من البحر المحيط، لتلميذه أحمد بن عبدالقادر بن مكتوم، ثم صورت هذه الطبعة عدة مرات. وللبحر المحيط نسخ مخطوطة منها:
- (١) نسخة في المكتبة المحمودية بمكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة، كتبت سنة ٧٤٩هـ ورقمها من ٩٠ - ٩٧.
 - (٢) نسخة في مكتبة لايدن، لا يعرف متى كتبت برقم ٣٤٤، ذكرها بلانثيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي.
 - (٣) نسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٣ تفسير، يوجد منها الجزء الأول فقط.

تأثيره فيمن بعده:

لتفسير البحر المحيط شهرة واسعة، وأثر واضح بعده، حيث أقبل عليه الناس وبخاصة العلماء وطلابهم على قراءته، والإفادة



منه، وكثر ثناؤهم عليه واعتمده في مصنفاتهم، وكتبت له تلخيصات وردود ومناقشات، وممن أكثر الاعتماد عليه:

١. عبدالرحمن بن محمد الثعالبي المالكي في تفسيره: الجواهر الحسان في تفسير القرآن.
٢. إبراهيم بن محمد السفاقي أحد تلاميذ أبي حيان في كتابه: المجيد في إعراب القرآن المجيد.
٣. أحمد بن يوسف المعروف بالسمن الحلبى أحد تلاميذ أبي حيان في كتابه: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون.
٤. أحمد بن عبدالقادر بن مكتوم أحد تلاميذ أبي حيان في كتابه: الدر اللقيط من البحر المحيط الذي اقتصر فيه مؤلفه على مباحث أبي حيان مع الزمخشري وابن عطية واعتراضاته عليهما.





الفصل الثاني:

تأثر أبي حيان بالفخر الرازي

إن الحديث عن تأثير الفخر الرازي فيمن جاء بعده من المفسرين وغيرهم طويل لا يمكن حصره ولا الوفاء التام ببيان، إذ إن أغلب المفسرين الذين أتوا من بعده اعتمدوا تفسيره مصدراً مهماً عندهم، لاحتوائه علوماً مختلفة ومسائل متنوعة واستنباطات دقيقة وتحليلات رائعة، ولكل من هؤلاء طريقة في الأخذ عنه ومنهج واضح في التأثير به والتعامل معه، ومن أولئك أبو حيان في تفسيره البحر المحيط، الذي أكثر النقل عنه وظهر تأثره به في أمور كثيرة، مع ظهور شخصيته في ذلك كله، واعتماده منهجاً في التأثير به وطريقة في التعامل معه، يتضح ذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول:

تأثره به في المناسبات

اهتم الرازي بذكر المناسبات بين الآيات، اعتماداً على تناسق



الآيات وتسلسل معانيها، وأن ترتيبها على ما هي عليه الآن فيه حكم ولطائف دقيقة، وكان ينكر على من لا يرى المناسبات بين الآيات ويضعف قول من يرى أن الآية قد تكون منقطعة عما قبلها ويرد بشدة على من لم يهتم بنظم الآيات، وقد يرد آراء المفسرين التي تخالف ظاهر الترتيب بين الآيات ويعتبرها في غاية البعد، كقوله: «وهذا القول عندي في غاية البعد؛ لأنه يوجب فساد الترتيب في هذه الآيات»^(١).

وكان في بعض المواضع يتفنن في استنباط أوجه المناسبات بين الآيات وذكر الروابط الموجودة بينها حتى يصل إلى أكثر من وجه يدل على براعته ودقة استنباطه، وحديثه عن المناسبات بين الآيات أكثر من حديثه عن المناسبات بين السور.

وقد أفاد أبو حيان من الفخر الرازي في ذكر المناسبات بين الآيات والسور، فأكثر النقل عنه، واعتمد عليه، وبيان ذلك فيما يلي:

أولاً: أنه ينقل عنه المناسبة بين الآيات مع شيء يسير من الاختصار، دون أن يشير إلى أنه أخذها من التفسير الكبير، وهذا كثير شائع في تفسيره، كقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

(١) ينظر: التفسير الكبير: ٩/ ٢٣٠.



فَضْلِهِ، هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴿١﴾ . ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما بالغ في التحريض على بذل الأرواح في الجهاد في الآيات السابقة شرع في التحريض هنا على بذل الأموال في الجهاد وغيره، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل^(٢) ، وقد ذكر الرازي مناسبة الآية بقول: «اعلم أنه تعالى لما بالغ في التحريض على بذل النفس في الجهاد في الآيات المتقدمة شرع ههنا في التحريض على بذل المال في الجهاد، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل ببذل المال في سبيل الله»^(٣) .

ثانياً: قد ينقل المناسبات بين السور وهذا قليل في تفسيره، وذكرها أيضاً قليل في التفسير الكبير، وينقلها بشيء من الاختصار كما سبق، كالمناسبة بين أول سورة النساء وآخر سورة آل عمران، والمناسبة بين أول سورة العنكبوت وآخر سورة القصص^(٤) .

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠ .

(٢) ينظر البحر المحيط: ٣/١٢٧ .

(٣) ينظر: التفسير الكبير ٩/١١٦، وينظر ٣/١٥٩-٩/١٧٣، ١٢٧/١١٦، ١٣٣/١٢٨،

٤/١٠٨-١٢/٢١٠، ٥/٤٤-١٦/٧٢، ٥٣/٩٤، ٨٣/١٦٢، ٦/٥٧-٢١/٣،

٨٣/٦٣، ١٣٣/١٣١، ١٣٥/١٣٧ .

(٤) ينظر البحر المحيط ٣/١٥٢، التفسير الكبير ٩/١٦٣، ٧/١٣٧، ٢٥/٢٥ .



المبحث الثاني:

تأثره به في نقل أقوال المفسرين

ضم التفسير الكبير بين دفتيه أقوالاً كثيرة معزوةً إلى أصحابها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء والمفسرين واللغويين والفقهاء وغيرهم في تفسير الآيات وتوجيهها، وقد يوردها الفخر الرازي غير معزوة إلى أصحابها، مع عنايته بترتيبها وتنظيمها واختيار ما يراه الراجح منها في أكثر طرحه لها، فهو يعد مرجعاً في الإفادة منه، لما اجتهد في جمعها واعتنى بذكرها، وممن اعتمد عليه في ذلك أبو حيان في تفسيره حيث كانت له عناية بالغة في ذكر أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم في تفسيره مع حرصه على عزوها إلى أصحابها، يأخذها من كتبهم مباشرة بلا واسطة، فإن أعياه الأمر أخذها ممن ذكرها قبله، ومن أولئك الفخر الرازي، مع إفادته منه في طريقة عرضها واختيار ما يراه الراجح منها، ومناقشته في بعضها، وقد سلك أبو حيان في تعامله مع هذه الأقوال والتوجيهات التي نقلها من التفسير الكبير طرقاً كثيرة هي:

الأولى: أن أبا حيان قد يذكر أقوالاً في تفسير الآية، ويصرح

بأنه نقلها من التفسير الكبير، بقوله: «قال أبو عبد الله الرازي»، قال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١)، قال أبو عبد الله الرازي: فيه قولان، أحدهما: أنهما الأمران المحسوسان، وهذا هو الحقيقة، والثاني ما نقل عن ابن عباس والحسن من قبل وهو مجاز» (٢).

الثانية: في مقابل ما سبق فإن أبا حيان في أكثر نقله أقوال المفسرين من التفسير الكبير لا يعزوها إليه ولا يشير إلى أنه نقلها منه، وقد يتصرف في ذلك النقل مع الاختصار اليسير، مثل قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (٣)، وللمفسرين في تفسيره وجوه، الأول: أن كل من صدق بكل الذي لا يتخالجه فيه شك فهو صديق، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١.

(٢) ينظر: البحر المحيط، ٤/٦٨، التفسير الكبير ١٢/١٥٩، وانظر: ١٠٥/٢٠٦، ١٥٣/٥-١٧-٩٠، ١٥٨-١٥٩/١٠٢-١٠٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٩.



وَرُسُلِهِ أَوْلِيَّكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١﴾ ، والثاني: أفاضل أصحاب الرسول - عليه الصلاة والسلام، الثالث: السابق إلى تصديق الرسول - عليه الصلاة والسلام - فصار في ذلك قدوة لسائر الناس» (٢) .

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٣) : أي، من كان في هذه الدار أعمى عن النظر في آيات الله وعبره، والإيمان بأنبيائه فهو في الآخرة أعمى، وقال مجاهد: هو أعمى في الآخرة عن حججه، وقال ابن عباس أيضاً: ومن كان في هذه النعم يشير إلى نعم التكريم والتفضيل، فهو في الآخرة التي لم تُر ولم تُعان أعمى، وقيل: ومن كان في الدنيا ضالاً كافراً فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، وقيل: فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة» (٤) .

وهذه الأقوال التي ذكرها أبو حيان في تفسير الآيتين منقولة من التفسير الكبير بهذا الترتيب مع تصرف يسير منه (٥) (٦) .

(١) سورة الحديد، الآية: ١٩ .

(٢) البحر المحيط: ٢٨٧/٢ .

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٢ .

(٤) البحر المحيط: ٦٣/٦ .

(٥) ينظر التفسير الكبير ١٠/١٧٧-٢١/٢٠ .

(٦) وانظر أمثلة: ٣/١٢٧ - ٩/١١٥ - ٤/٩٧ - ١٢/١٩٧، ٣/١٠٣، ٤/٢٠٤، ٨/١٠٨، ١٠/٢١٠ .

١١١/٢١٤، ٥/٣٧-١٦/٥٠، ٦٤/١٢٢ .



الثالثة: لأبي حيان شخصية واضحة فيما ينقله عن الرازي وغيره من الأقوال في تفسير الآية، فهو يختار ويرجح، ويناقش ويرد، ويحكم على تلك الأقوال من حيث القوة والضعف، والأمثلة على هذا كثيرة.

مما حكم عليه دون مناقشة قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَتَلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١). وقال الرازي: «لمغفرة من الله إشارة إلى تعبه خوفاً من عقابه» ورحمة «إشارة إلى تعبه لطلب ثوابه، انتهى» (٢)، وليس بالظاهر (٣)، ومما ناقشه فيه وردّه عليه قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٤) ولفظة (فاعقبهم نفاقاً) لا تدل ولا تشعر بأنه كان مسلماً ثم لما بخل بالمال ولم يوف بالعهد صار منافقاً كما قال أبو عبدالله الرازي (٥)، لأن المعقب نفاق متصل إلى وقت الموافاة، فهو نفاق مقيد بغاية ولا يدل المقيد على انتفاء المطلق قبله (٦).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٧.

(٢) التفسير الكبير ٩/٦١.

(٣) البحر المحيط ٣/٩٦.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧٧.

(٥) التفسير الكبير ١٦/١٤٥.

(٦) البحر المحيط ٥/٧٤-٧٥، وانظر: ٥/١١٢-١١٦، ٦/٣٢٠، ٧٠/٦-٢١/٢٨،



الرابعة: اجتهد أبو حيان في كتابة تفسيره من وجوه عدة، منها حسن اختيار الأقوال والأوجه في تفسير الآية والإفادة منها، مع عنايته بعدم التكرار؛ لأنه تطويل لا فائدة منه أو تفصيلات لا يستحسن ذكرها، وإنما يسلك الإحالة على ما سبق أو الإشارة إلى أن بعض المفسرين ذكرها، وقد صنع مثل هذا مع الرازي الذي ينقل أقوالاً وتوجيهات عن سبقه وقف عليها أبو حيان في كتبهم لكنه يشير إلى أن الرازي اختصرها وتصرف فيها، دون حاجة إلى نقلها مرة أخرى بتصرف الرازي فيها.

يقول أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ (٨) ^(١)، وذكر أبو عبدالله الرازي الأوجه الثلاثة التي ذكرها الزمخشري ببسط فيها (٢)(٣).

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَنْظَرُ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢٤) ^(٤): «وأما قول من يقول فهو إشارة إلى أبي علي الجبائي والقاضي عبدالجبار ومن وافقهما أن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم على الكذب، واستدلوا بأشياء تؤول إلى

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/١٧١.

(٣) البحر المحيط: ٤/٧٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٢٤.



مسألة القبح والحسن وبناء ما قالوه عليها، ذكرها أبو عبدالله الرازي في تفسيره^(١)، فتطالع هناك^(٢).

الخامسة: قد يعتمد أبو حيان على الرازي في ترجيح قول أو

توجيه رأي، مستفيداً مما يذكره من العلل والتوجيهات التي تقوي اختياره، فقد اختار ما رجحه

الرازي في تعلق قوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ أَوْ لَا سَتَغْفِرُكُمْ إِن سَتَغْفِرُكُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ﴾^(٣)، بما قبلها، وهو ما ذكره ابن

عباس أن الذين كانوا يأمرهم هم الذين طلبوا

الاستغفار، ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ اشتغل

بالاستغفار فنهاء عنه، ثم نقل عنه في ترجيح هذا

القول خمسة أدلة مع توجيهها، باختصار يسير^(٤) (٥).



(١) التفسير الكبير ١٢/١٩٥.

(٢) البحر المحيط ٤/٩٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٠.

(٤) التفسير الكبير ١٦/١٤٩ - ١٥١، البحر المحيط: ٥/٧٧-٧٨.

(٥) وانظر أيضاً: ٥/٩٢ - ١٦/١٧٢، ٦/٧٢-٢١/٣٠.



المبحث الثالث:

تأثره به في تفسير الآيات وأسلوبه في ذلك

من أجل ما كتبه الرازي تفسيره المسمى بـ«التفسير الكبير» الذي اعتنى فيه بتفسير كلام الله عز وجل معتمداً في ذلك على تفسيره بالقرآن أو بالسنة أو بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، مع ظهور شخصيته في الاختيار والترجيح، وحسن الترتيب وعرض المسائل ودقة الاستنباط والاستدلال، مع عنايته بأمر أخرى سيأتي الحديث عنها مثل القراءات واللغة وعلوم الفلك والطبيعة والفقه وأصوله وغير ذلك.

وقد تأثر بتفسيره وطريقته في عرضه وأسلوبه والإفادة من استنباطاته ودقائق لطائفه أبو حيان في تفسيره البحر المحيط، وقد سلك في ذلك طرقاً كثيرة، هي:

أولاً: أنه ينقل عنه ما ذكره في تفسير الآية، مع التصريح بأنه نقله منه، فيقول مثلاً: «قال أبو عبد الله الرازي ..»، ثم يشير في آخر كلامه أنه انتهى ملخصاً، أو يذكر أنه لخصه في أوله، دقة وأمانة في النقل عنه، ويكتفي بهذا فلا يعلق ولا يناقش، مما يدل على أنه قد ارتضاه، وأمثلة



هذا كثيرة منها قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۗ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٨) : وقال أبو عبد الله الرازي: صفات الكمال محصورة في العلم والقدرة، فقوله: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۗ ﴾ إشارة إلى كمال القدرة، ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ إشارة إلى كمال العلم (٢) . انتهى، وفيه بعض اختصار وتلخيص (٣) . وكقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١١٠) ، وقال أبو عبد الله الرازي: جعل نفس البنيان ريبة لكونه سبباً لها، وكونه سبباً لها أنه لما أمر بتخريب ما فرحوا ببنائته ثقل ذلك عليهم وازداد بغضهم له وارتياهم في نبوته، أو اعتقدوا هدمه من أجل الحسد، فارتفع إيمانهم وخافوا الإيقاع بهم قتلاً ونهباً، أو بقوا شاكين أيغفر الله لهم تلك المعصية (٥) ، انتهى وفيه تخليص (٦) ، وكقوله

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٨.

(٢) التفسير الكبير ١٢/١٨٣.

(٣) البحر المحيط: ٨٩/٤.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١٠.

(٥) التفسير الكبير ١٦/٢٠٢.

(٦) البحر المحيط: ١٠١/٥.



في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾^(١)، وقال أبو عبدالله الرازي ما ملخصه: فائدة ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم أنهم بتحاكمهم إلى الطاغوت خالفوا حكم الله وأسأوا إلى الرسول ﷺ فوجب عليهم أن يعتذروا ويطلبوا من الرسول الاستغفار (٢) (٣).

ثانياً: قد ينقل أبو حيان كلام الرازي في تفسير الآية مع عزوه إليه، لكن قد يتصرف في كلام الرازي بالاختصار والتلخيص ولا يشير إلى ذلك، وهذا قليل جداً، ومن أمثله قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٤)، وقال أبو عبدالله الرازي: لا يجوز أن تكون الشهادة مفسرة بكون الإنسان مقتول الكافر، بل نقول الشهيد

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) التفسير الكبير ١٠/١٦٧.

(٣) البحر المحيط ٣/٢٨٣، وانظر: ٤/٩٢ - ١٢/١٨٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦٩.

فعليل بمعنى فاعل، وهو الذي يشهد لدين الله تارة بالحجة والبيان وتارة بالسيف والسنان، فالشهداء هم القائمون بالقسط^(١) ^(٢)، وكقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(٣)، وقال أبو عبد الله الرازي: فيه قولان، أحدهما: أنهما الأمران المحسوسان وهذا هو الحقيقة، والثاني: ما نقل عن ابن عباس والحسن من قبل وهو مجاز^(٤) ^(٥). وبالرجوع إلى هذين الموضعين في التفسير الكبير نجد أن أبا حيان تصرف في النقل عنه بشيء من الاختصار ولم يشر إلى ذلك^(٦).

وفي مقابل هذا فقد ينقل عنه أبو حيان دون العزو إليه، كقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾^(٧). لما كان

(١) التفسير الكبير ١٠/١٦٧.

(٢) البحر المحيط ٣/٢٨٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١.

(٤) التفسير الكبير ١٢/١٩٥.

(٥) البحر المحيط ٤/٦٨.

(٦) ينظر: ٣/٢٨٥ - ١٠/١٧٣، ٢٩٣/١٨٥.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ٩٨.



الاهتداء بالنجوم واضحاً ختمه بقوله (يعلمون)، أي: من له أدنى إدراك ينتفع بالنظر في النجوم وفائدتها، ولما كان الإنشاء من نفس واحدة، والتصريف في أحوال كثيرة يحتاج إلى فكر وتدقيق نظر، ختمه بقوله (يفقهون) إذ الفقه هو استعمال فطنة ودقة نظر وفكر، فناسب ختم كل جملة بما يناسب ما صدر به الكلام^(١)، فهذا النص منقول من التفسير الكبير^(٢) بتصريف ولم يعزه إليه، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) (ورضوا) استئناف، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا في القعود بالمدينة وهم قادرون على الجهاد؟ فقيل: رضوا بالدناءة وانتظامهم في سلك الخوالف، وعطف (وطبع) تنبيهاً على أن السبب في تخلفهم رضاهم بالدناءة، وطبع على قلوبهم فهم لا يعلمون ما يترتب على الجهاد من منافع الدين والدنيا^(٤). وهذا الكلام أفاده أبو حيان من التفسير الكبير، لكن بتصريف منه^(٥).

ثالثاً: اعتنى أبو حيان بنقل الفوائد والاستنباطات والتقسيمات

(١) البحر المحيط: ٤/١٨٨.

(٢) التفسير الكبير ١٣/١١٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٣.

(٤) البحر المحيط: ٥/٨٨.

(٥) التفسير الكبير ١٦/١٦٦، وانظر: ٤/٧٧ - ١٢/١٦٨، ٩٢/١٨٩.



التي اجتهد في إبرازها الرازي في تفسيره، حيث كان يعتني بالتقسيم والاستنباط وذكر المسائل والحجج واللطائف والفروع والوجوه والفوائد، في ترابط عجيب وترتيب متناسق، وقد سبق ذكر قوله في أول تفسير سورة الفاتحة: «اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة».

وكان يعزو ما أفاده منه إليه في مواضع قليلة، ويترك الباقي دون عزو مع التصرف اليسير فيه بالاختصار والتلخيص، وأمثلة هذا كثيرة، من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٤ ﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٥ ﴾^(١): «وهذه رتب ثلاث صدرت من هؤلاء الكفار: الإعراض عن تأمل الدلائل، ثم أعقب الإعراض التكذيب، وهو أزيد من الإعراض، إذ المعرض قد لا يكون غافلاً عن الشيء، ثم أعقب التكذيب الاستهزاء، وهو أزيد من التكذيب، إذ المكذب قد لا يبلغ إلى حد الاستهزاء، وهذه هي المبالغة في الإنكار»^(٢)، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٤، ٥.

(٢) البحر المحيط: ٤/٧٥، وانظر: التفسير الكبير ١٢/١٦٦-١٦٧.



فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾^(١): «وأتى أولاً بمقام الرضا وهو فعل قلبي ... ثم تثنى بإظهار آثار الوصف القلبي وهو الإقرار باللسان فحسبنا ما رضي به، ثم أتى ثالثاً بأنه تعالى ما داموا في الحياة الدنيا مادّ لهم بنعمه وإحسانه، وهو إخبار حسن، إذ ما من مؤمن إلا ونعم الله مترادفة عليه، ثم أتى رابعاً بالجملة المقتضية الالتجاء إلى الله لا إلى غيره والرغبة إليه»^(٢).

فما ذكره أبو حيان أنفاً هو بنصه في التفسير الكبير مع شيء من الاختصار ولم يشر إلى ذلك، ومما عزاه إلى الرازي، قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣)، وقال أبو عبد الله الرازي (بعضهم من بعض) يدل على أن نفاق الاتباع وكفرهم حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر وبسبب مقتضى الطبيعة والعادة، أما الموافقة الحاصلة بين المؤمنين فإنما حصلت لا بسبب الميل والعادة بل بسبب المشاركة في الاستدلال والتوفيق والهداية^(٤) (٥).

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٩.

(٢) البحر المحيط: ٥٦/٥، وانظر: التفسير الكبير ١٦/١٠١ - ١٠٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٤) التفسير الكبير ١٦/١٣٤.

(٥) البحر المحيط ٥/٧٠، وانظر: ٣/١٥٤ - ٩/١٦٤، ١٥٦/١٧١، ٤/٧٤ - ١٢/١٦٦.

رابعاً: يعتني أبو حيان بما يذكره الرازي من أسئلة ترد في تفسير الآية مع الإجابة عليها، فهو ينقلها مع شيء من الاختصار، دون عزو في الغالب إلى الرازي، من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلَتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١). «وأورد بعضهم هنا سؤالاً فقال: فإن قيل: كيف يتمنون الرد مع علمهم بتعذر حصوله؟ وأجاب بقوله: قلنا: لعلمهم لم يعلموا أن الرد لا يحصل والثاني: أن العلم بعدم الرد لا يمنع من الإرادة، كقوله: (يريدون أن يخرجوا من النار) و(أن أفيضوا علينا من الماء) انتهى»^(٢).

فهذا النص في التفسير الكبير مع تصرف يسير.

ويتبع هذا ما ينقله عنه في توجيه معنى آية أو إجابة عن إشكال قد يرد في تفسيرها أو دفع يوهم التعارض أو التناقض في معناها، يقول أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ﴾^(٣): «قال أبو عبدالله الرازي: كيف أمرهم بالكفر والسحر، والأمر بالكفر كفر؟ قلنا: إنه - عليه الصلاة والسلام - أمرهم بإلقاء الحبال والعصي ليظهر للخلق

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.

(٢) البحر المحيط ٤/١٠٣، وانظر: التفسير الكبير ١٢/٢٠٣، وانظر: ١٠٣/٢٠٤.

(٣) سورة يونس، الآية: ٨٠.



أن ما ألقوا عمل فاسد وسعي باطل، لا على طريق أنه - عليه السلام - أمرهم بالسحر^(١)، انتهى^(٢)، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣). نقل أبو حيان أقوالاً لبعض المفسرين في الجمع بين مقاربة استفزازه لإخراجه في هذه الآية وإخراجه في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِينِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكَتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾^(٤) وارتضى قول الرازي حيث قال: «وقال أبو عبدالله الرازي: ما خرج بسبب إخراجهم وإنما خرج بأمر الله، فزال التناقض^(٥)، انتهى^(٦)».

خامساً: استفاد أبو حيان من عناية الرازي بالتفسير الموضوعي في بعض المواضع من تفسيره، حيث يتتبع مدلولات كلمة في القرآن ويعقد رابطة بينها، أو يتجه للحديث عن موضوع معين وكيف عالجه القرآن الكريم وتحدث عنه، وكان أبو حيان يتصرف يسيراً باختصار كلام

(١) التفسير الكبير ١٧/١٤٩.

(٢) البحر المحيط: ٥/١٨٢.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٦.

(٤) سورة محمد، الآية: ١٣.

(٥) التفسير الكبير ٢١/٢٤.

(٦) البحر المحيط: ٦/٦٦، وانظر: ٥/١٦٩ - ١٧/١١٧، ١٧٠/١٧٨، ١٧٤/١٣٠.

الرازي وتلخيصه، يعزو ما نقله إليه حيناً ويتركه حيناً آخر، من ذلك في أنه في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾^(١). ذكر أن من صفات الله سبحانه الهداية إلى الحق ثم قال: «وقد أعقب الخلق بالهداية في القرآن في مواضع، قال تعالى حكاية عن الكليم: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(٢)، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾^(٣) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى^(٤). فاستدل بالخلق والهداية على وجود الصانع»^(٥)، وما ذكره أبو حيان هنا منقول من التفسير الكبير^(٥)، بتصريف يسير، ومما صرح فيه بالنقل عنه قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْتَرَبَهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٦): «وقال أبو عبد الله الرازي: مراتب التحدي بالقرآن ست، تحد بكل القرآن في ﴿قُلْ لَيْنِ

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الأعلى، الآيتان: ٢، ٣.

(٤) البحر المحيط: ١٥٥/٥.

(٥) التفسير الكبير ٩٤/١٧.

(٦) سورة يونس، الآية: ٣٨.



اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا
يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَتَوَ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ (١)

وتحد بعشر سور، وتحد بسورة واحدة، وتحد بحديث

مثله في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ
﴿٣١﴾ (٢) (٣)

سادساً: لم يكن أبو حيان مجرد ناقل من التفسير الكبير،
يقبل كل ما يذكره الرازي في تفسير الآيات
ويرتضيه، بل كانت له شخصيته الواضحة في تفسيره
بعامه وفيما ينقله عن غيره على وجه الخصوص ومن
أولئك الرازي، يناقشه ويقف معه على توجيهاته
وتعليقاته، بالقبول والتأييد حيناً وبالرد والاعتراض حيناً
آخر، وقد لا يرتضي أسلوبه في عرض المسألة أو تفسير
الآية، والأمثلة على ذلك كثيرة، قال - رحمه الله تعالى
- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا﴾ ﴿٦٦﴾ (٤): «وقال أبو
عبدالله الرازي: المراد أنهم لو فعلوا ما كلفوا به

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) سورة الطور، الآية: ٣٤.

(٣) البحر المحيط ٥/١٥٨، وانظر: التفسير الكبير ١٧/١٠٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦٦.



وأمرؤا، وسمى هذا التكليف والأمر وعظماً؛ لأن تكاليف الله مقرونة بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب والثواب والعقاب، وما كان كذلك فإنه يسمى وعظماً^(١)، وهذه كلها تفاسير تخالف الظاهر...»^(٢)، ومما رد عليه أسلوبه في تفسيره وخطأه في تعبيره، قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْتُمْ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ جَاءَتْكُمْ فَاستَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٣).

وقال أبو عبدالله الرازي: والآية دالة على أنه لا رسول إلا ومعه شريعة ليكون مطاعاً في تلك الشريعة ومتبوعاً فيها، إذ لو كان لا يدعو إلا إلى شرع من قبله لم يكن هو في الحقيقة مطاعاً، بل المطاع هو الرسول المتقدم الذي هو الواضع لتلك الشريعة، والله تعالى حكم على كل رسول بأنه مطاع^(٤). انتهى، ولا يعجبني قوله: «الواضع لتلك الشريعة» والأحسن أن يقال: «الذي جاء بتلك الشريعة من عند الله»^(٥).

(١) التفسير الكبير ١٠/١٧٣.

(٢) البحر المحيط: ٣/٢٨٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٤) التفسير الكبير ١٠/١٦٦.

(٥) البحر المحيط: ٣/٢٨٣.



وقد يكتفي أحياناً باستغراب ما يذكره الرازي وعدم وضوحه بحيث لا يعرف مراده، حيث نقل عنه دون عزو إليه قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يَحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾^(١). وقال غيره أي الزجاج (بل) رد لما تمنوه، أي: ليس الأمر على ما قالوه؛ لأنهم لم يقولوا ذلك رغبة في الإيمان، بل قالوه إشفاقاً من العذاب وطمعاً في الرحمة^(٢)، انتهى، ولا أدري ما هذا الكلام...^(٣)، وفي مواضع أخرى يذكر أبو حيان من كلام المفسرين ما يرد به على الرازي الذي لم يرض تفسيره في هذا الموضوع، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾^(٤).

قال - رحمه الله تعالى: «وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخصه: وعندني فيه وجه آخر، وهو أن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث المتولدين من الأغذية والأغذية حيوانية، والقول في كيفية تولدها كالقول في الإنسان، أو نباتية فثبت تولد الإنسان من

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

(٢) التفسير الكبير ١٢/٢٠٣.

(٣) البحر المحيط: ٤/١٠٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٢.



النباتية، وهي متولدة من الطين، فكل إنسان متولد من الطين، وهذا الوجه أقرب إلى الصواب^(١)، انتهى.

وهذا الذي ذكر أنه عنده وجه آخر وهو أقرب للصواب هو بسط ما حكاه المفسرون عن فرقة، وقال فيه ابن عطية: هو مردود عند الأصوليين^(٢)، يعني: القول بالتوالد والاستحالات، والذي هو مشهور عند المفسرين أن المخلوق من الطين هنا هو آدم^(٣).



(١) التفسير الكبير ١٢/١٦١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٦.

(٣) البحر المحيط ٤/٧٠.



المبحث الرابع:

تأثره به في علم الطبيعة والهيئة والفلك

اهتم الرازي في تفسيره بالمسائل العلمية والأمور الكونية، وتوسع في الحديث عن علم الهيئة والفلك والنجوم وفصل القول في طبائع المخلوقات وأسرار تكوينها، انطلاقاً من قاعدة هامة اعتمدها في تفسيره وهي حث القرآن على التأمل والتفكير في آيات الله ومخلوقاته والاستدلال بها على عظمته ووحدانيته، لكنه توسع في ذلك، وكان ينكر على من أنكر عليه هذا التوسع، يقول - رحمه الله تعالى: «ربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال إنك أكثر في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم وذلك على خلاف المعتاد، فيقال لهذا المسكين إنك لو تأملت في كتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته، وتقريره من وجوه:

الأول: أن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار وكيفية أحوال الضياء والظلام وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها



والتأمل في أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها.

والثاني: أنه تعالى قال: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيْنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (٦) (١)، فهو تعالى حث على التأمل في أنه كيف بناها، ولا معنى لعلم الهيئة إلا التأمل في أنه كيف بناها...

والثالث: أنه تعالى قال: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٧) (٢). فبين أن عجائب الخلقه وبدائع الفطرة في أجرام السموات أكثر وأعظم وأكمل مما في أبدان الناس، ثم إنه تعالى رغب في التأمل في أبدان الناس بقوله: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣) (٣).

والرابع: أنه تعالى مدح المتفكرين في خلق السموات والأرض فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١١) (٤)، ولو كان ذلك ممنوعاً منه لما فعل.

(١) سورة ق، الآية: ٦.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥٧.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٢١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.



فلكثر الدلائل وتواليها أثر عظيم في تقوية اليقين وإزالة الشبهات، فإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار لا لتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية عن الفوائد والحكايات الفاسدة^(١).

وقد أفاد أبو حيان مما ذكره الرازي في هذا الباب، مع التصرف في كلامه بالاختصار والتلخيص، مع اعترافه بأنه ليس من علماء هذا الفن ولم يسبق له النظر فيه، قال - رحمه الله تعالى: بعد أن نقل شيئاً من كلام الرازي في هذا الموضوع: «وتكلم في قوله: ﴿مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾: كلاماً كثيراً هو من علم الهيئة^(٢)، وهو علم لم ننظر فيه، قال أربابه: وهو علم شريف يطلع فيه على جزئيات غريبة من صنعة الله تعالى، يزداد بها إيمان المؤمن، إذ المعرفة بجزئيات الأشياء وتفاصيلها ليست كالمعرفة بجمليتها»^(٣).

فآخر كلام أبي حيان يدل على أهمية معرفة هذه العلوم وبيان ثمار العلم بها.

ومما نقله من التفسير الكبير قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿يَفْشَى

(١) التفسير الكبير ١٤/١٢٦-١٢٧.

(٢) التفسير الكبير ١٤/١٢٤-١٢٨.

(٣) البحر المحيط ٤/٣١٠.



أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثَا»^(١) ، «وقال أبو عبد الله الرازي: وصف هذه الحركة بالسرعة والشدة؛ لأن تعاقب الليل والنهار يحصل بحركة الفلك الأعظم، وتلك الحركة أشد الحركات سرعة وأكملها شدة، حتى إن الباحثين عن أحوال الموجودات قالوا: الإنسان إذا كان في العدو الشديد الكامل قبل أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل: ولهذا قال: (يطلبه حيثاً) ونظيره: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٢) ، شبه ذلك المسير وتلك الحركة بالسباحة في الماء، والمقصود التبيه على السرعة والسهولة وكمال الاتصال، انتهى^(٣) وفيه بعض تلخيص»^(٤) .

وقد ينقل منه أبو حيان دون عزو كقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَعُهُ إِنِّي فِي ذَلِكُمْ لَأَيْدٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٥) ،

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) سورة يس، الآية: ٤٠.

(٣) التفسير الكبير ١٤/١٢٣.

(٤) البحر المحيط: ٣٠٦/٤.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٩.



وقدم الزرع على الشجر؛ لأنه غذاء، والثمر فاكهة، والغذاء مقدم على الفاكهة، وقدم النخل على سائر الفواكه؛ لأنه يجري مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب، وقدم العنب؛ لأنه أشرف الفواكه، وهو في جميع أطواره منتفع به، خيوط ثم حصرم ثم عنب ثم إن عصر كان منه خل ودبس، وإن جفف كان منه زبيب، وقدم الزيتون؛ لأنه كثير المنفعة في الأكل وفيما يعصر منه من الدهن العظيم النفع في الأكل والاستصباح وغيرهما، وذكر الرمان لعجب حاله وغرابته، فإنه مركب من قشر وشحم وعجم وماء، فالثلاثة باردة يابسة أرضية كثيفة قابضة عفصة قوية في هذه الصفات، وماؤه بالضد ألد الأشربة وألطفها وأقربها إلى حيز الاعتدال، وفيه تقوية للمزاج الضعيف، غذاء من وجه ودواء من وجه، فجمع تعالى فيه بين المتضادين المتعاندين، فما أبهر قدرته وأعجب ما خلق»^(١).

وقد يترك أبو حيان النقل عنه فيما يذكره من عجائب المخلوقات وعلوم الفلك والهيئة، وهذا قليل^(٢).



(١) البحر المحيط ٤/١٩٢، التفسير الكبير ١٣/١٥٥، وانظر: ١٩١/١١٧، ٤/٦٨ - ١٩٥/١٢.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٤/١٨٤، ٥/١٢٤.



المبحث الخامس:

تأثره به في أصول الدين والرد على المعتزلة

اهتم الفخر الرازي في تفسيره بالحديث عن أصول الدين ومسائل الاعتقاد، وذكر الأدلة على إثبات وجود الله وألوهيته وعظمته وحكمته وإثبات المعاد والنبوة والقضاء والقدر ونحو ذلك، ورد على المخالفين، فهذا عنده هو الذي عليه مدار القرآن.

قال - رحمه الله تعالى: «اعلم أنا بينا أن مدار أمر القرآن على تقرير هذه المسائل الأربع، وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر»^(١).

وقال أيضاً: «اعلم أن الله تعالى جعل مدار هذا الكتاب الشريف على تقرير التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات القضاء والقدر، وأنه تعالى بالغ في تقرير هذه الأصول»^(٢)، وكان حديثه في ذلك حديثاً مفصلاً مدعماً بالأدلة والحجج والبراهين، ودقة الاستنباط وقوة الاستدلال، معتمداً في ذلك على أدلة المتكلمين وحجج الفلاسفة ونظرياتهم وبراهينهم ومقدماتهم المنطقية وأدلتهم العقلية، وقد

(١) التفسير الكبير ١٤/١٠٢.

(٢) التفسير الكبير ١٣/٢٢١-٢٢٢.



اعتنى الرازي بهذا العلم حيث إنه أشرف العلوم وأهمها والحاجة إليه أعظم من غيره، قال - رحمه الله تعالى - في أول تفسير سورة الأنعام: «قال الأصوليون: هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة، أحدهما: أنها نزلت دفعة واحدة، والثاني: أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة، والسبب فيه: أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين، وذلك يدل على أن علم الأصول في غاية الجلالة والرفعة، وأيضاً فإنزال ما يدل على الأحكام قد تكون المصلحة أن ينزله الله تعالى قدر حاجتهم وبحسب الحوادث والنوازل، وأما ما يدل على علم الأصول فقد أنزله الله تعالى جملة واحدة، وذلك يدل على أن تعلم علم الأصول واجب على الفور لا على التراخي»^(١).

وقد أفاد أبو حيان مما كتبه الرازي في هذا العلم واستدل له، يظهر هذا واضحاً فيما ينقله عنه في أول تفسير الآيات مبيناً وجه دلالتها على هذه المسائل الأربع، والغالب أنه لا يعزوه إلى الرازي، قال - رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ الْاِيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ

(١) التفسير الكبير ١٢/١٤٩.



وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾^(١) ، لما ذكر تعالى أشياء من مبدأ خلق الإنسان وأمر نبيه وانقسامهم إلى مؤمن وكافر وذكر معادهم وحشرهم إلى جنة ونار ذكر مبدأ العالم واختراعه، والتنبية على الدلائل الدالة على التوحيد وكمال القدرة والعلم والقضاء، ثم بعد إلى النبوة والرسالة، إذ مدار القرآن على تقرير المسائل الأربع، التوحيد والقدرة والمعاد والنبوة^(٢) ، وهذا كما سبق هو كلام الرازي في تفسير الآية مع تصرف يسير من أبي حيان ولم يعزه إليه^(٣) ، ومثله أيضاً قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَفَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيْمَنٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾^(٤) . لما ذكر تعالى الدلائل على كمال إلهيته وقدرته وعلمه من العالم العلوي أتبعها بالدلائل من العالم السفلي، وهي محصورة في آثار العالم العلوي، ومنها الريح والسحاب والمطر وفي المعدن والنبات والحيوان، ويترتب على نزول المطر أحوال النبات، وذلك هو المذكور في الآية، وانجر مع ذلك الدلالة على صحة الحشر والنشر والبعث والقيامة،

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) البحر المحيط ٤/٣٠٧.

(٣) التفسير الكبير ١٤/١٠٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.



وانتظمت هاتان الآيتان محصلتين المبدأ والمعاد» (١) (٢).

وقد يكتفي أبو حيان بالإحالة إلى ما ذكره الرازي وغيره في إحدى مسائل العقيدة وتقريراتهم فيها واستدلالاتهم عليها، قال - رحمه الله تعالى: «ومسألة الاستواء مذكورة في علم أصول الدين، وقد أمعن في تقرير ما يمكن تقريره فيها القفال وأبو عبد الله الرازي، وذكر ذلك في التحرير، فيطالع هناك» (٣).

ومما أفاده أبو حيان من الرازي في هذا الباب ردوده على المعتزلة وبخاصة الزمخشري في تفسيره الكشاف، ومناقشة أدلتهم وإبطال حججهم وتفنيد شبهاتهم، فأبو حيان والرازي على مذهب الأشاعرة، فاستفاد منه الرد عليهم فيما خالفوا فيه الحق مثل: إنكارهم رؤية الله عز وجل في الآخرة، وإنكارهم قدرة الله على العباد وأعمالهم، وأنه سبحانه لم يشأ الكفر والإيمان، فرد عليهم ذلك وبين أنهم تعسفوا في تأويل الآيات وصرفوها عن ظاهرها وما دلت عليها، وأثبت أن الكفر والإيمان والخير والشر بإرادة الله وقدرته، ومما رده عليهم مذهبهم الضال في صاحب المعصية حيث ذهبوا إلى أنه في منزلة بين الكفر والإيمان في الدنيا، وأنه مخلد في

(١) البحر المحيط: ٣١٦/٤، التفسير الكبير ١٤/١٤٤.

(٢) وانظر: ٧١/٤ - ١٦٣/١٢، ٣٨/٥ - ٥١/١٦، ١٥٣/٥ - ٩٠/١٧، ١١١/١٦٤، ١٤١/١٧٨.

(٣) البحر المحيط: ٣٠٧/٤، التفسير الكبير ١٤/١٠٦ - ١٢٢.

النار في الآخرة وغير ذلك من المسائل، والأمثلة على هذا كثيرة، منها رد الرازي على قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾^(١) حيث قال: «قال الزمخشري: ولو شاء الله لجمعهم على الهدى بآية ملجئة، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة» اهـ^(٢). وهذا قول المعتزلة.. وأجاب أبو عبدالله الرازي بأنه تعالى أراد منهم الإقدام على الإيمان حال كون الداعي إلى الإيمان وإلى الكفر بالسوية، أو حال حصول هذا الرجحان، والأول تكليف ما لا يطاق؛ لأن الأمر بتحصيل الرجحان حال حصول الاستواء تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال، وإن كان الطرف الثاني، فالطرف الراجح يكون واجب الوقوع، والطرف المرجوح يكون ممتنع الوقوع وكل هذه الأقسام تناه في ما ذكره من المكنة والاختيارات فسقط قولهم بالكلية^(٣) ومما رد فيه أبو حيان مذهب الزمخشري ومن معه من المعتزلة معتمداً في ذلك على الرازي في تفسيره قولهم في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنِّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٤). حيث قال: «قال الزمخشري: وهو التمرد والعتو»^(٥)، والأولى أن يحمل

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٥.

(٢) الكشاف: ١٦/٢.

(٣) البحر المحيط: ١١٥/٤، التفسير الكبير: ٢١٨/١٢.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٥٣.

(٥) الكشاف ١٩٦/٢.



على الكفر، قال أبو عبدالله الرازي: هذه إشارة إلى أن عدم القبول معلل بكونهم فاسقين، فدل على أن الفسق يؤثر في إزالة هذا المعنى.

وأكد الجبائي ذلك بدليله المشهور في هذه المسألة، وهو أن الفسق يوجب الندم والعقاب الدائمين، والطاعة توجب المدح والثواب الدائمين، والجمع بينهما محال، فكان الجمع بين استحقاقهما محالاً، وقد أزال الله هذه الشبهة بقوله: ﴿ وَمَا مَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْ هُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴾ (٥٤) (١)، وأنه بصريح هذا اللفظ لا يؤثر في القبول إلا الكفر، ودل ذلك على أن مطلق الفسق لا يحبط الطاعات، فنفي تعالى أن عدم القبول ليس معللاً بعموم كونه فسقاً، بل بخصوص وصفه، وهو كون الفسق كفراً، فثبت أن استدلال الجبائي باطل، انتهى، وفيه بعض تلخيص» (٢).

وقد يُعرض أبو حيان عن تفسير الزمخشري لما فيه من الاعتزاليات ويرتضي بدله كلام الرازي السالم من ذلك المذهب، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٩٦) (٣).

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٢) البحر المحيط ٣٥/٥، التفسير الكبير ٩١/١٦.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩٦.



قال - رحمه الله تعالى: «وقال الزمخشري: قول الله تعالى الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره، وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد لله، تعالى الله عن ذلك، انتهى^(١)، وكلامه أخيراً على طريقة الاعتزال.

ثم ارتضى تفسير الرازي حيث قال: «وقال أبو عبد الله الرازي: المراد من هذه الكلمة حكم الله بذلك وإخباره عنه وخلقه في العبد مجموع القدرة والداعية، وهو موجب لحصول ذلك الأمر»^(٢).



(١) الكشاف ٢/٢٥٣.

(٢) البحر المحيط ٥/١٩٢، التفسير الكبير ١٧/١٧٠، وانظر: ٤/٧١-١٢/١٦٢،

٧٣/١٦٥، ١٠٤/٢٠٤.



المبحث السادس:

تأثره به في أصول الفقه

الإمامان الفخر الرازي وأبو حيان الأندلسي من فقهاء الشافعية وعلمائهم في أصول الفقه، حيث ترجم لهما من ألف في طبقات الشافعية، فقد اعتنيا بهذا العلم، حيث حفظا المتون فيه ثم قرأ في المطولات، وأخذوا عن علمائه حتى انتهى بهما الأمر إلى تدريسه وتعليمه طلابهم، ولكون الرازي متقدماً على أبي حيان وجمعهما عمل واحد وجهد مبارك ألا وهو التفسير، فقد تأثر أبو حيان به من حيث ذكر المسائل الأصولية واستنباط القواعد الفقهية من الآيات، وهو أحد أئمة هذا الشأن، فله فيه كتاب المحصول في أصول الفقه.

وأمثله ما نقله أبو حيان من التفسير الكبير من المسائل الأصولية والقواعد الفقهية كثيرة جداً، وكان يتصرف يسيراً في هذا النقل. من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١). وقال أبو عبد الله الرازي: (وأولي الأمر منكم) إشارة إلى الإجماع، والدليل عليه أنه أمر بطاعة أولي

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.



الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر بطاعته على الجزم والقطع لا بد أن يكون معصوماً عن الخطأ، وإلا لكان بتقدير إقدامه على الخطأ مأموراً باتباعه والخطأ منهي عنه، فيؤدي إلى اجتماع الأمر والنهي في فعل واحد باعتبار واحد، وأنه محال، وليس أحد معصوماً بعد الرسول إلا جمع الأمة أهل العقد والحل، وموجب ذلك أن إجماع الأمة حجة^(١).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾^(٢)، ويستدل به على أن الأصل في المنافع الإباحة، والإطلاق قيده بقوله (إذا أثمر) وإن كان من المعلوم أنه إذا لم يثمر فلا أكل تنبيهاً على أنه لا ينتظر به محل إدراكه واستوائه، بل متى أمكن الأكل منه فعل^(٣).

وفي بعض المواضع يقتصر أبو حيان على ذكر المسألة مختصرة ثم يحيل إلى بعض الذين توسعوا في الحديث عنها بذكر تفاصيلها وفروعها وأدلتها، مثل الرازي في تفسيره.

(١) البحر المحيط: ٣/٢٧٩، التفسير الكبير ١٠/١٤٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٣) البحر المحيط ٤/٢٣٧، التفسير الكبير ١٣/٢٢٣، وانظر: ٥/١١-١٥/٢٣٦.



كقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَنْزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١)، وقد استدل نفاة القياس ومثبته بقوله: (فردوه إلى الله والرسول) وهي مسألة يبحث عنها في أصول الفقه^(٢).

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾^(٣)، وتكلموا هنا على صيغة الأمر إذا جاءت بعد الحظر، وعليها إذا جاءت مجردة عن القرائن وعلى ما تحمل عليه وعلى مواقع استعمالها، وذلك من علم أصول الفقه فيبحث عن ذلك فيه^(٤).

ومثل طريقته التي سلكها هنا مع مسائل أصول الفقه فعل أيضاً مع المسائل الفقهية، فكان يذكر المسألة باختصار مما تدل عليه الآية محيلاً في بسط أقوال المذاهب وأدلتهم ومناقشتهم إلى كتب الفقه، ولم يرتض صنيع بعض المفسرين ومنهم الرازي الذين أطلوا بهذا التوسع تفاسيرهم.

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) البحر المحيط ٣/٢٧٩، التفسير الكبير ١٠/١٥١، وانظر: البحر المحيط: ١/٣٤١، ٤٣٣/٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٤) البحر المحيط: ٣/٤٢١، التفسير الكبير ١١/١٣٣.



كقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّمُ بِنَحِيَّتِهِ فَحَيُّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا﴾^(١) ، وقد طول الزمخشري^(٢) وغيره بذكر فروع كثيرة في السلام، وموضوعها علم الفقه^(٣) ، وممن أطلال الحديث في هذه المسألة الرازي في تفسيره^(٤) .



(١) سورة النساء، الآية: ٨٦.

(٢) الكشاف ١/٥٤٩-٥٥٠.

(٣) البحر المحيط: ٣/٣١٠.

(٤) التفسير الكبير ١٠/٢١٤، ٢٢١، وانظر: البحر المحيط ١/٣٨٩، ٤٨٩، ٣١/٢، ٣٤،

١١١، ٣٢٢، ٤٥٩، ٣/٢٥٨، ٢٦٠.



الفصل الثالث:

اعتراضات أبي حيان على الفخر الرازي

رجع أبو حيان في تفسيره إلى مصادر متنوعة في التفسير والقراءات واللغة والنحو وغير ذلك، ولم يكن في ذلك ناقلاً فقط، بل كانت له شخصيته الواضحة في حسن الانتقاء والإفادة من مصادره، وموقفه الظاهر تجاه ما ليس بصواب عنده، فيعترض عليه مبيناً خطأه ومخالفته للصواب، وموضحاً ما هو الحق في هذه المسألة، وقد يشتد نكيره على المخالف.

ومن الأئمة الذين كانت له معهم وقفات متأنية، يفيد منهم ويناقشهم، ويعترض عليهم ويبين خطأهم الفخر الرازي في تفسيره، وقد سبق بيان أوجه تأثيره به وضرب الأمثلة على ذلك، وفي هذا الفصل بيان اعتراضاته عليه ومناقشاته آراءه وردوده عليه، وذلك من خلال المباحث التالية:



المبحث الأول:

اعتراضه على منهجه في كتابة التفسير

ذكر أبو حيان منهجه في كتابة تفسيره وألزم نفسه به، ومما اهتم به وأكد عليه في المقدمة وفي ثنايا تفسيره عدم التطويل وجمع ما لا يصح وشحن كتب التفسير به، من قصص باطلة وتواريخ إسرائيلية وأقوال متناقضة وحكايات ساقطة، ومن ذلك ما ذكره بعض المفسرين من الحكايات الباطلة والأقوال المتعارضة في الدابة التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾^(١)، وقد اطرح أبو حيان ذكر هذا في تفسيره وأعرض عنه، قال - رحمه الله تعالى: «واختلفوا في ماهيتها وشكلها ومحل خروجها وعدد خروجها، ومقدار ما يخرج منها وما تفعل بالناس وما الذي تخرج به اختلافاً مضطرباً معارضاً بعضه بعضاً، فاطرحنا ذكره: لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح وتضييع لزمان نقله»^(٢)، ومثل هذا ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٣)، بقوله: «وذكروا في ذلك اختلافاً وقصصاً كثيراً

(١) سورة النمل، الآية: ٨٢.

(٢) البحر المحيط: ٦٩/٧، ٩٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٧١.



مضطرباً، أضرينا عن نقله صفحاً، كعادتنا في أكثر القصص الذي ينقلونه، إذ لا ينبغي أن ينقل من ذلك إلا ما صح عن الله تعالى أو عن رسوله في قرآن أو سنة»^(١).

واشدد نكيره على من أولع بنقل الغريب في حال لقمان وما كان يعانيه بقوله: وهذا الاضطراب في كونه حراً أو عبداً، أو في جنسه وفيما كان يعانيه، يوجب ألا يكتب شيء من ذلك ولا ينقل، لكن المفسرون مولعون بنقل المضطربات حشواً وتكثيراً، والصواب تركه^(٢).

ومما يراه أبو حيان في منهج كتابة التفسير ألا تطول كتب التفسير بنقل أدلة المذاهب في الفقه وأصوله وأصول الدين والنحو والصرف والتوسع في بيان أدلتهم وغير ذلك من العلوم الأخرى، بل يذكر في التفسير الراجح منها دون التوسع في الاستدلال عليه، حيث قال: «وكثيراً ما يشحن المفسرون تفاسيرهم من ذلك الإعراب بعلل النحو ودلائل أصول الفقه ودلائل أصول الدين، وكل هذا مقرر في تأليف هذه العلوم، وإنما يؤخذ ذلك مسلماً في علم التفسير دون استدلال عليه، وكذلك أيضاً ذكروا ما لا يصح من أسباب نزول وأحاديث في الفضائل وحكايات لا تناسب وتواريخ إسرائيلية، ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير»^(٣).

(١) البحر المحيط: ٢٥٨/١.

(٢) البحر المحيط: ١٦٨/٧.

(٣) البحر المحيط: ٥/١.



وقد التزم هذا الأمر في تفسيره حيث كان يذكر الراجح في المسألة عنده أو يشير إليها ثم يحيل للتوسع والنظر فيها إلى الكتب الأصول فيها، فمن ذلك قوله: «وتقرير هذا في علم التصريف»^(١)، أو هو مذكور في علم النحو، أو مستوفى في علم النحو، أو في المبسوطات في النحو، أو مشروحة في كتب النحو^(٢)، أو هذه المسألة يبحث عنها بالتفصيل في أصول الدين^(٣)، أو تذكر في كتب الفقه^(٤)، أو يحيل على كتبه منهج السالك، أو التكميل، أو التذييل والتكميل في شرح التسهيل^(٥).

والرازي عند أبي حيان لم يلتزم هذا المنهج في كتابة تفسيره ولم يسر على الطريق الذي اختطه أبو حيان في كتابة التفسير وارتضاه، فنراه يعترض عليه هذه الطريقة وينكر عليه تلك المخالفة، يتضح ذلك من خلال ما يلي:

أولاً: أنكر أبو حيان على الرازي مصرحاً باسمه تطويل تفسيره

(١) البحر المحيط: ١/٥٢، ٢/٢٨٦.

(٢) البحر المحيط: ١/٣٥، ٤١، ١٤٢، ١٥٦، ١٧٢، ٢٧٣، ٢٨٨، ٣٣٨، ٢/٨٨، ٢١٣، ٣١٦، ٢٣٦.

(٣) البحر المحيط: ١/٤٨، ١٠٩، ١٢٥، ١٤٣، ٢٧٩، ٤٠٥، ٢/٢٧٧.

(٤) البحر المحيط: ١/٣٧٩، ٤٨٩، ٢/٣١، ١١١، ٣٢٢، ٤٥٩، ٣/٢٥٨، ٢٦٠.

(٥) البحر المحيط: ٢/١٩، ١٤٠، ٣/١٠٦، ١٢٦، ٤/٩٩، ٥/١٣، ٦/٣٩٣، ٤٣٣، ٧/٤٩٣، ٨/٤٣، ٢١٦.



بأشياء لا حاجة إليها في علم التفسير، بل هي من فضول العلم، وعاب عليه استطراده في النقل عن غيره، وتوسعه في ذكر المذاهب وأدلتها وذكر فروع المسائل الفقهية ونحو ذلك، قال - رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ ﴾ (١).

وقد تكلم المفسرون هنا في حقيقة النسخ وأقسامه، وما اتفق عليه منه وما اختلف فيه، وفي جوازه عقلاً ووقوعه شرعاً وبماذا ينسخ، وغير ذلك من أحكام النسخ ودلائل تلك الأحكام وطولوا في ذلك، وهذا كله موضوعه موضوع علم أصول الفقه، فيبحث في ذلك كله فيه.

وهكذا جرت عادتنا أن كل قاعدة في علم من العلوم يرجع في تقريرها إلى ذلك العلم، ونأخذها في علم التفسير مسلمة من ذلك العلم، ولا نطول بذكر ذلك في علم التفسير، فنخرج عن طريقة التفسير، كما فعله أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي المعروف بابن خطيب الري، فإنه جمع في كتابه في التفسير أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك حكى عن بعض المتطرفين من العلماء أنه قال: فيه كل شيء إلا التفسير.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.



وقد ذكرنا في الخطبة ما يحتاج إليه علم التفسير، فمن زاد على ذلك فهو فضول في هذا العلم. ونظير ما ذكره الرازي وغيره أن النحوي مثلاً يكون قد شرع في وضع كتاب في النحو فشرع يتكلم في الألف المنقلبة، فذكر أن الألف في (الله) أهي منقلبة عن ياء أو واو، ثم استطرد من ذلك إلى الكلام في الله تعالى فيما يجب له ويجوز عليه ويستحيل، ثم استطرد إلى جواز إرسال الرسل منه تعالى إلى الناس، ثم استطرد إلى أوصاف الرسول ﷺ، ثم استطرد من ذلك إلى إعجاز ما جاء به القرآن وصدق ما تضمنه، ثم استطرد إلى أن من مضمونه البعث والجزاء بالثواب والعقاب، ثم المثابون في الجنة لا ينقطع نعيمهم، والمعاقبون في النار لا ينقطع عذابهم.

فبينما هو في علمه يبحث في الألف المنقلبة إذا هو يتكلم في الجنة والنار. ومن هذا سبيله في العلم فهو من التخليط والتخييط في أقصى الدرجة، وكان أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي - رحمه الله - يقول ما معناه: متى رأيت الرجل ينتقل من فن إلى فن في البحث أو التصنيف فاعلم أن ذلك إما لقصور علمه بذلك الفن، أو لتخليط ذهنه وعدم إدراكه، حيث يظن أن المتغيرات تماثلات، وإنما أمعنت الكلام في هذا الفصل لينتفع به من يقف عليه، ولئلا يعتقد أنا لم نطلع على ما أودعه الناس في كتبهم في التفسير، بل إنما تركنا ذلك عمداً واقتصرنا



على ما يليق بعلم التفسير، وأسأل الله التوفيق للصواب^(١).

ثانياً: قد يعترض أبو حيان على هذا المنهج لدى جمع من المفسرين ومنهم الرازي، لكن لا يصرح باسمه، ويعرف هذا بالرجوع إلى تفسيره حيث يظهر أنه ممن قصدهم أبو حيان، وبخاصة أنه ينقل عنه بعض العبارات في تفسيره.

ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)؛ وذكر المفسرون من كلام الناس في التفكير ومن أعيان المتفكرين كثيراً، رأينا أن لا نطول كتابنا بنقلها^(٣)، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّبْتُمْ بِهِ بِحَبِئَاتِهِ فَحَبِوْا بِأَحْسَنِّ مَنَاهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾^(٤)، وقد طول الزمخشري وغيره بذكر فروع كثيرة في السلام، وموضوعها علم الفقه^(٥).

ثالثاً: عاب أبو حيان نقل بعض المفسرين ومنهم الرازي حكايات باطلة وقصصاً وأخباراً لا تصح، وأقوالاً متناقضة في تفسير بعض الآيات، لا دليل عليها من كتاب ولا سنة، من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾

(١) البحر المحيط: ١/٣٤١، ٣٤٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٣) البحر المحيط: ٣/١٣٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٦.

(٥) البحر المحيط: ٣/٣١٠، وانظر: الكشاف ١/٥٤٩، ٥٥٠، التفسير الكبير ١٠/٢١٧ -



وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴿٥٠﴾^(١): «واختفلوا في عدد المفروق بهم وعدد آل فرعون على أقوال يضاد بعضها بعضاً، وحكوا في كيفية خروج بني إسرائيل وتغنتهم وهم في البحر مقتحمون، وفي كيفية خروج فرعون بجنوده حكايات مطولة جداً، لم يدل القرآن ولا الحديث الصحيح عليها، فالله أعلم بالصحيح منها»^(٢).

وكقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٣)، وقد نقل المفسرون عن ابن عباس والسدي وغيرهما قصصاً كثيراً مختلفاً في سبب اتخاذ العجل وكيفية اتخاذه، وانجر مع ذلك أخبار كثيرة الله أعلم بصحتها، إذ لم يشهد بصحتها كتاب ولا حديث صحيح، فتركنا نقل ذلك، على عادتنا في هذا الكتاب^(٤).

ومع هذا فقد يطيل أبو حيان الحديث في مسألة أو بنقل أقوال في تفسير الآية لا دليل عليها، ويعترف على نفسه بأنه قد أطال لكن لمصلحة وحاجة، مثل إطالة الحديث عن أهل بلده مصر الذين أنفقوا أموالهم وبدلوا جهودهم وأتعبوا أنفسهم في البحث عن الكنوز

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٠.

(٢) البحر المحيط ١/١٩٨، وانظر: التفسير الكبير ٣/٧٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٥١.

(٤) البحر المحيط، ١/٢٠١، التفسير الكبير ٣/٧٩-٨٠، وانظر: ٢٢٧ / ١٠٢.



المذكورة في قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ ﴾^(١) ، معتمدين على خرافات باطلة وحكايات ساقطة ثم قال: «ولا يحصلون على شيء غير ذهاب أموالهم، ولهم أشياء من نحو هذه الخرافات يركنون إليها ويقولون بها، وإنما أطلت في هذا على سبيل التحذير لمن يعقل»^(٢) .



(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٥٧، ٥٨ .

(٢) البحر المحيط ١٩/٧ ، وانظر: ١٨١/٦ .



المبحث الثاني:

اعتراضه عليه ذكر أقوال الفلاسفة في التفسير وتحذيره منهم

جاء في ترجمة أبي حيان أن من الأسباب التي دفعته إلى الخروج من الأندلس خشيته على نفسه أن يلزم بتعلم الفلسفة ويرتب له راتب جيد، ففر هارباً إلى المشرق^(١)، وقد ذكر أن الناس قد اشتغلوا بجهالات الفلاسفة وسرت هذه العدوى بينهم دون نكير لها مع جهلهم وقلة علمهم، بل ينكرون على من جهلها، يقول - رحمه الله: «وقد غلب في هذا الزمان وقبله بقليل الاشتغال بجهالات الفلاسفة على أكثر الناس، ويسمونها الحكمة، ويستجهلون من عري عنها ويعتقدون أنهم الكملة من الناس، ويعكفون على دراستها، ولا تكاد تلقى أحداً منهم يحفظ قرآناً ولا حديثاً عن رسول الله ﷺ، ولقد غضضت مرة من ابن سنيا ونسبته للجهل، فقال لي بعضهم - وأظهر التعجب من كون أحد يفض من ابن سينا - كيف يكون أعلم الناس بالله ينسب للجهل.. ولما حلت بديار مصر ورأيت كثيراً من أهلها يشتغلون بجهالات الفلاسفة ظاهراً من غير أن ينكر ذلك أحد تعجبت من ذلك، إذ كنا نشأنا في جزيرة

(١) ينظر: بغية الوعاة ١/ ٢٨١، شذرات الذهب ٦/ ١٤٦.



الأندلس على التبرؤ من ذلك والإنكار له، وأنه إذا بيع كتاب في المنطق إنما يباع خفية، وأنه لا يتجاسر أن ينطق بلفظ المنطق، إنما يسمونه المفضل»^(١).

ورأي أبي حيان في هؤلاء الفلاسفة أنهم منافقون يتسترون بالإسلام ظاهراً، فلا بد من تأديبهم وإيقاع العقوبة المناسبة عليهم، كما صنع بعض ولاة زمانه ومُدح بذلك^(٢)، قال - رحمه الله تعالى - عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالٍ﴾^(٣): وما زال في كل عصر منافقون يتسترون بالإسلام ويحضرون الصلوات، كالمفلسفين الموجودين في عصرنا هذا، وقد أشار بعض علمائنا إليهم في شعر قاله، وضمن فيه بعض الآية، فقال في أبي

الوليد بن رشد الحفيد وأمثاله من متفلسفة الإسلام

| | |
|-----------------------------|--|
| أشياء الفلاسفة اعتقاد | يرون به عن الشرع انحلالاً |
| أباحوا كل محظور حرام | وردوه لأنفسهم حلالاً |
| وما انتسبوا إلى الإسلام إلا | لصون دمائهم أن لا تسالا |
| فيأتون المناكر في نشاط | ويأتون الصلاة وهم كسالا ^(٤) |

(١) البحر المحيط ١٤٩/٥ - ١٥٠.

(٢) هو: المنصور بن يعقوب بن يوسف ملك المغرب والأندلس، البحر المحيط: ١٤٩/٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٤) البحر المحيط ٣/٣٣٧.



لذا فقد أنكر على الرازي تسميتهم حكماء الإسلام في مواضع كثيرة من تفسيره، والحق أنهم أجهل الكفرة بالله وبأنبيائه، فكيف يجوز نقل أقوالهم في تفسير كلام الله عز وجل، والواجب التحذير من طريقتهم وجهالاتهم وبيان ضررهم على الأمة، قال - رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْتَنَا سَوْءًا عَلَيْنَا أَجْرَعَ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجِيزٍ ﴿١١﴾ ﴾^(١).

وقال أبو عبدالله الرازي: تأويل الحكماء أن النفس إذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء وبقيت متجردة بذاتها عارية عن كل ما سواها، وذلك هو البروز لله تعالى، وهذا الرجل كثيراً ما يورد كلام الفلاسفة وهم مباينون لأهل الشرائع في تفسير كلام الله تعالى المنزل بلغة العرب، والعرب لا تفهم شيئاً من مفاهيم أهل الفلسفة، فتفسيرهم كاللغز والأحاجي، ويسميهم هذا الرجل حكماء، وهم من أجهل الكفرة بالله تعالى وبأنبيائه، وقال - رحمه الله تعالى: «كثيراً ما ينقل هذا الرجل عن حكماء الإسلام في التفسير، وينقل كلامهم تارة منسوباً إليهم وتارة مستبدأً به،

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.



ويعني بحكماء (الإسلام) ^(١) الفلاسفة الذين خلقوا في هذه الملة الإسلامية، وهم أحق بأن يسموا سفهاء جهلاء من أن يسموا حكماء، إذ هم أعداء الأنبياء المحرفون للشريعة الإسلامية، وهم أضر على المسلمين من اليهود والنصارى» ^(٢).

وفي موضع آخر أكد أبو حيان على وجوب تطهير تفسير القرآن من أقوال الفلاسفة وغيرهم من أصحاب المذاهب الضالة كالباطنية والصوفية فهم زنادقة تستروا بانتمائهم إلى الإسلام، والقرآن براء مما ذكروه عنه، قال - رحمه الله تعالى - بعد ذكر أقوال أرباب الإشارات في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ^(٣)، وهذا مذهب الباطنية ومذاهب من ينتمي إلى الإسلام من غلاة الصوفية، وقد أشرنا إليهم في خطبة هذا الكتاب، وإنما هؤلاء زنادقة تستروا بالانتماء إلى ملة الإسلام، وكتاب الله جاء بلسان عربي مبين لا رمز فيه ولا لغز ولا باطن ولا إيماء لشيء مما تنتحله الفلاسفة ولا أهل الطبائع، ولقد ضمن تفسيره أبو عبدالله الرازي المعروف بابن خطيب الري أشياء مما قاله الحكماء عنده وأصحاب النجوم وأصحاب الهيئة، وذلك كله بمعزل عن تفسير كتاب الله عز وجل، وكذلك ما ذكره صاحب التحرير والتجوير في آخر ما

(١) هكذا في المخطوط ١٢٤/٥ ب، وهو ساقط في المطبوع.

(٢) البحر المحيط: ١٤٩/٥.

(٣) سورة التكوير، الآية: ١.



يفسره من الآيات من كلام من ينتمي إلى الصوف ويسميتها الحقائق، وفيها ما لا يحل كتابته فضلاً عن أن يعتقد، نسأل الله تعالى السلامة في ديننا وعقائدنا وما به قوام ديننا ودياننا»^(١).

وبناء على ما سبق فإن أبا حيان ينتقد تعلق الرازي بكلام الفلاسفة وانتحاله طريقتهم وذكر إشاراتهم الفلسفية في تفسيره، تكثرأ بما لا طائل تحته ولا نفع فيه، قال - رحمه الله تعالى فيه: «وهذا الرجل غرضه جريان ما تنتحله الفلاسفة على مناهج الشريعة، وذلك لا يكون أبداً»^(٢).

وقال أيضاً بعد أن نقل بعض كلامه الطافح بإشارات الفلاسفة: «وهو تكثر لا طائل تحته، طافح بإشارات أهل الفلسفة، بعيد من مناهج المشرعين وعن مناحي كلام العرب، ومن غلب عليه شيء (ذكره)^(٣) حتى في غير مظانه، ولله در القائل يغري منصور الموحدين بأهل الفلسفة من قصيده:

وحرق كتبهم شرقاً وغرباً ففيها كامن شر العلوم
يدب إلى العقائد من أذاها سموم والعقائد كالجسوم^(٤)

وقال أيضاً منكرأ عليه ولعله بنقل كلام الفلاسفة في تفسير

(١) البحر المحيط ٨/٤٣٢-٤٣٣، وانظر: ٤/١٦٨.

(٢) البحر المحيط: ٥/٣٧٥.

(٣) هكذا في المخطوط ٤/١٥٩ أ، وهو ساقط في المطبوع.

(٤) البحر المحيط ٤/١٤٠، وانظر: ٣/٨٩.



قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (١)

قال أبو عبدالله الرازي: هذه الآية تشبيه على أمرين من أحوال المعاد: الأول: إشراق الأرواح بأنوار المعرفة، والثاني: كونهم مع النبيين، وليس المراد بهذه المعية في الدرجة فإن ذلك ممتنع، بل معناه أن الأرواح الناقصة إذا استكملت علائقها مع الأرواح الكاملة في الدنيا بقيت بعد المفارقة تلك العلائق فينعكس الشعاع من بعضها على بعض فتصير أنوارها في غاية القوة، فهذا ما خطر لي، انتهى كلامه، وهو شبيه بما قالته الفلاسفة في الأرواح إذا فارقت الأجساد، وأهل الإسلام يأبون هذه الألفاظ ومدلولاتها، ولكن من غلب عليه شيء وأحبه جرى في كلامه (٢).

وقد لا يكتفي أبو حيان بالإنكار على الرازي ولعله بنقل أقوال الفلاسفة وإشاراتهم في تفسير الآيات بل يرد عليه قوله ويبطل ما ذكره، معتمداً على غيره في ذلك، من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿حُذِّمْنَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) البحر المحيط: ٣/٢٨٦، ٢٨٧.



صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾^(١) ، وقال أبو عبد الله الرازي: إنما كانت صلواته سَكَنًا لهم؛ لأن روحه ﷺ كانت روحاً قوية مشرقة صافية، فإذا دعا لهم وذكرهم بالخير ثارت آثار من قوته الروحانية على أرواحهم، فأشرقت بهذا السبب أرواحهم وصفت سرائرهم، وانقلبوا من الظلمة إلى النور ومن الجسمانية إلى الروحانية^(٢) ، قال الشيخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان عرف بابن النقيب في كتابه التحرير والتحرير: «كلام الرازي كلام فلسفي يشير فيه إلى أن قوى الأنفس مؤثرة فعالة، وذلك غير جائز على طريقة أهل التفسير» انتهى^(٣) .

وحيثما يكتبني أبو حيان بالإشارة إلى أن كلام الرازي شبيه بكلام الفلاسفة، ثم يرد عليه، حيث قال - رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّ الَّذِينَ يُنْقَوْنَ أَفْلا تَعْمَلُونَ﴾^(٤) . وقد أبدى الفخر الرازي الخيرية هنا فقال: خيرات الدنيا خسيصة وخيرات الآخرة شريفة..^(٥) انتهى ما لخص من كلامه مع اختلاف بعض ألفاظ، وهي شبيهة

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٢) التفسير الكبير ١٦/١٨٨.

(٣) البحر المحيط: ٩٥/٥، ٩٦.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٢.

(٥) التفسير الكبير ١٢/٢١١، ٢١٢.



بكلام أهل الفلسفة؛ لأن السعادات الأخروية عندهم هي روحانية فقط واعتقاد المسلمين أنها لذات جسمانية وروحانية، وأيضاً ففي كلامه انتقاد من حيث إن بعض الأوصاف التي حقرها هو جعلها الله في بعض من اصطفاه من خلقه، فلا تكون تلك الصفة إلا شريفة، لا كمال قاله هو من أنها صفة خسيصة»^(١).

وفي مواضع من البحر المحيط أحال أبو حيان على كلام فلسفي للرازي في تفسيره ولم ينقله، منكرأ عليه ذلك، من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، وذكر أبو عبد الله الرازي هنا كلاماً كثيراً ممزوجاً بما يسمونه حكمة نعلم قطعاً أن العرب لا تفهم ذلك الذي قرره من ألفاظ القرآن وطول في ذلك وضرب أمثلة حسية، يوقف عليها من تفسيره^(٣).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾^(٤)، ولأبي عبد الله الرازي كلام في تكريم

(١) البحر المحيط ٤/١٠٩، ١١٠.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٣) البحر المحيط ٥/١٧٠، التفسير الكبير ١٧/١٢٠، ١٢١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.



ابن آدم وتفضيله مستمد من كلام الذين يسمونهم حكماء، يوقف عليه في تفسيره، إذ هو جار على غير طريقة العرب في كلامها^(١).

إن الرازي في نظر أبي حيان مولع بكلام الفلاسفة منتحل طريقتهم، ولهذا فقد يخالف ظاهر الآية، وقد يفسرها بما لا تفهمه العرب ولا تعرفه من كلامها جريباً على مذهبهم، فيعقب على كلام الرازي بمثل قوله: «وهو بعيد من مناحي كلام العرب ومفهوماتها»^(٢)، وقوله: «وهذا كلام فلسفي لا تفهمه العرب ولا جاءت به الأنبياء، فهو كلام مطرح لا يلتفت إليه المسلمون»^(٣).

ومع هذا فقد ينقل عنه أبو حيان كلاماً فلسفياً في تفسير بعض الآيات دون تعليق أو رد، وهذا قليل، ومن أمثلة ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾^(٤)، قال أبو عبد الله الرازي: المراد (بالسر) صفات القلوب، وهو الدواعي والصوارف و(بالجهر) أعمال الجوارح، وقدم السر؛ لأن ذكر المؤثر في الفعل هو مجموع القدرة مع الداعي، فالداعية التي هي من باب السر هي المؤثرة في أعمال

(١) البحر المحيط ٦/٦٢، التفسير الكبير ٢١/١٣-١٦.

(٢) البحر المحيط ٤/٢١٤، وانظر: ٤/٢٧٦.

(٣) البحر المحيط ٥/٣٨٧، وانظر: ٤/٣٨١، ٦/٧١.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣.



الجوارح المسماة بالجهر، وقد ثبت أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول،
والعلة متقدمة على المعلول، والمقدم بالذات يجب تقديمه بحسب
اللفظ، انتهى^(١)، ولم يعلق على كلامه بشيء^(٢).



(١) التفسير الكبير ١٢/١٦٥، البحر المحيط ٤/٧٣.

(٢) وانظر: البحر المحيط ٤/١١٥، التفسير الكبير ١٢/٢١٨، ٤/١٦٦، ١٣/٤٨، ٦/٧٥،



المبحث الثالث:

جهل الرازي بالنحو عند أبي حيان ورده الشديد عليه

أبو حيان من أئمة النحو والصرف واللغة، فقد حفظ في صغره بعض متونها أو رواها بالإجازة ثم قرأها على شيوخه، يقول - رحمه الله تعالى: «وقد حفظت في صغري في علم اللغة كتاب الفصيح لأبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني، واللغات المحتوي عليها دواوين مشاهير العرب الستة: امرئ القيس والنابغة وعلقمة وزهير وطرفة وعنترة، وديوان الأفوه الأودي، لحفظي عن ظهر قلب لهذه الدواوين، وحفظت كثيراً من اللغات المحتوي عليها نحو الثلث من كتاب الحماسة واللغات التي تضمنتها قصائد مختارة من شعر حبيب بن أوس لحفظي ذلك»^(١). وقال أيضاً: «ومن كتب النحو والأدب أروي بالقراءة كتاب سيبويه والإيضاح والتكملة والمفصل وجمل الزجاجي وغير ذلك»^(٢).

ثم جلس لإقراء النحو والصرف وتعليمه وشرح متونه لطلابه، وألف فيه ما بين مختصر ومطول، فكان عمدة في ذلك، ومن

(١) البحر المحيط: ٦/١.

(٢) نفع الطيب ٥٥٠/٢.



أشهر ما كتبه: التذييل والتكميل في شرح التسهيل، ارتشاف الضرب من لسان العرب، منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك، تقريب المقرب، المبدع الملخص من الممتع.

وقد أثنى عليه بإمامته في هذا الفن أهل التراجم، يقول الصفدي: «وأما النحو والتصريف فهو إمام الدنيا فيهما، لم يذكر معه في أقطار الأرض غيره في العربية»، وذكر أيضاً: «أنه التزم ألا يقرئ أحداً إلا إن كان في كتاب سيبويه أو في التسهيل لا بن مالك أو في تصانيفه»^(١).

وله في تفسيره البحر المحيط وقفات متأنية مع أي الذكر الحكيم، بياناً لغريبها وإعراباً لمفرداتها وذكرها للمسائل الخلافية النحوية والتصريفية المرتبطة بها، مع اختيار ما يراه الراجح في معظم ما تكلم عنه، وظهور شخصيته فيما تحدث عنه.

وكانت له مواقف متعددة من العلماء المفسرين وغيرهم، ومن أولئك الإمام الفخر الرازي، الذي لم يكن عالماً بالنحو عند أبي حيان بل يجهل الكثير من قواعده ومسائله، ومع ذلك فهو يتجاسر على الحديث فيه مع عدم علمه بقواعد وأساليب العرب التي نزل القرآن بلغتهم، ولم يكتف أبو حيان بهذا بل رد عليه وبين الصواب في ذلك.

(١) الوافي بالوفيات ٢٦٨/٥.



ومن الأمثلة على هذا قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَهُمْ وَكُوتٌ فَطَأَّ غَلِيظُ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾^(١). قال الرازي: قال المحققون: دخول اللفظ المهمل الوضع في كلام أحكم الحاكمين غير جائز، وهنا يجوز أن تكون (ما) استفهاماً للتعجب، تقديره: فبأي رحمة من الله لنت لهم، وذلك بأن جنابهم لما كانت عظيمة، ثم إنه ما أظهر ألبتة تغليظاً في القول ولا خشونة في الكلام علموا أن هذا لا يتأتى إلا بتأييد رباني قبل ذلك^(٢)، انتهى كلامه، وما قاله المحققون صحيح لكن زيادة ما للتوكيد لا ينكره في أماكنه من له أدنى تعلق بالعربية فضلاً عن من يتعاطى تفسير كلام الله، وليس ما في هذا المكان مما يتوهمه أحد مهملاً، فلا يحتاج ذلك إلى تأويلها بأن يكون استفهاماً للتعجب، ثم إن تقديره ذلك: فبأي رحمة، دليل على أنه جعل (ما) مضافة للرحمة، وما ذهب إليه خطأ من وجهين، أحدهما: أنه لا تضاف ما الاستهامية ولا أسماء الاستفهام غير (أي) بلا خلاف، و(كم) على مذهب أبي إسحاق، والثاني: أنه إذا لم تصح الإضافة فيكون إعرابه بدلاً، وإذا كان بدلاً من اسم الاستفهام فلا بد من إعادة همزة الاستفهام في البديل، وهذا الرجل

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) التفسير الكبير ٩/٦٤، ٦٥.



لحظ المعنى ولم يلتفت إلى ما تقرر في علم النحو من أحكام الألفاظ، وكان يغنيه عن هذا الارتباك والتسلق إلى ما لا يحسنه والتسور عليه قول الزجاج في (ما) هذه، أنها صلة فيها معنى التوكيد بإجماع النحويين^{(١)(٢)}، ومما قاله فيه: وهذا كلام من لم يقف على علم النحو ولا نظر فيه، وهذا لا يذهب إليه مبتدئ في علم النحو، فضلاً عن صنف فيه، وقدم على تفسير كتاب الله^(٣).

وقد يكتفي أبو حيان بنقل رد غيره عليه، قال - رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾^(٤)، وقال الرازي: تقديره: لهم درجات^(٥)، قال بعض المصنفين راداً عليه: اتبع الرازي في ذلك أكثر المفسرين جهله وجهلهم بلسان العرب؛ لأن حذف لام الجر هنا لا مساغ له؛ لأنه إنما تحذف لام الجر في مواضع الضرورة، أو لكثرة الاستعمال، وهذا ليس من تلك المواضع^(٦).

وقد يكتفي بالحكم على كلامه دون مناقشته وبيان الصواب

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٤٨٢/١.

(٢) البحر المحيط ٩٧/٣، ٩٨.

(٣) البحر المحيط: ٤٤٨/٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.

(٥) التفسير الكبير ٧٧/٩.

(٦) البحر المحيط: ١٠٢/٢.



في المسألة، كقوله: «وهو كلام غير نحوي»^(١).

أما أطول موقف لأبي حيان في تفسيره مع الرازي فهو عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢)، حيث وقف أبو حيان مدافعاً عن شيخ العربية سيبويه عندما تجاسر عليه الرازي وقال عنه ما لم يقله^(٣)، وذلك من خمسة أوجه، فقام أبو حيان يرد على الرازي، مبرئاً سيبويه مما نسبته إليه، ومتهماً إياه بتحريف كلام سيبويه وتخليطه، ومتعجباً منه وتجاسره على الرد عليه، قال - رحمه الله تعالى: «وقد تجاسر أبو عبدالله محمد بن عمر المدعو بالفخر الرازي ابن خطيب الري، وقال عنه ما لم يقله، فقال: الذي ذهب إليه سيبويه ليس بشيء، ويدل على فساده وجوه: الأول أنه طعن في القراءة المنقولة بالتواتر عن الرسول وعن أعلام الأمة، وذلك باطل قطعاً، قلت: هذا تقول على سيبويه وقلة فهم عنه، ولم يطعن سيبويه على قراءة الرفع، وما ذكره الرازي لا يتفرع على كلام سيبويه بوجه، والعجب من هذا الرجل وتجاسره على العلوم، حتى صنّف في النحو كتاباً سماه المحرر وسلك فيه طريقة غريبة بعيدة

(١) البحر المحيط: ٢١/١، ٢٨٥/٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

(٣) التفسير الكبير ١١/٢٢٩، ٢٣٠.



من مصطلح أهل النحو ومن مقاصدهم، وهو كتاب لطيف محتو على بعض أبواب العربية، وقد سمعت شيخنا أبا جعفر بن الزبير يذكر هذا التصنيف، ويقول إنه ليس جارياً على مصطلح القوم، وإنما سلكه في ذلك من التخليط في العلوم، ومن غلب عليه فن ظهر فيما يتكلم به من غير ذلك الفن أو قريباً منه من هذا المعنى، ولما وقفت على هذا الكتاب بديار مصر رأيت ما كان الأستاذ أبو جعفر يذم من هذا الكتاب ويستزل عقل فخر الدين في كونه صنّف في علم وليس من أهله، وكان أبو جعفر يقول: لكل علم حد ينتهي إليه، فإذا رأيت متكلماً في فن ما ومزجه بغيره فاعلم أن ذلك إما أن يكون من تخليطه وتخبيط ذهنه، وإما أن يكون من قلة محصوله وقصوره في ذلك العلم، فتجده يستريح إلى غيره مما يعرفه»^(١).

ولا عجب أن يقف أبو حيان مع الرازي هذا الموقف الحازم الشديد؛ لأنه تهجم وتجاسر على إمام النحو سيبويه، الذي كان أبو حيان يسميه الإمام إجلالاً له وتقديراً^(٢)، ولكتابه عند أبي حيان مكانة سامية ومنزلة رفيعة، فهو يرى أن مما برع أهل الأندلس فيه إقراءهم الكتاب منذ أعصار دون غيرهم مع شرحه وبيانه، وحق له

(١) البحر المحيط: ٤٧٦/٣-٤٨٢.

(٢) البحر المحيط: ٢٥٦/١.



ذلك فهو المعول عليه في هذا الفن، ولا يستغني عنه من رام الكتابة في التفسير^(١)، وعندما ذكر العلوم التي يحتاج إليها المفسر قال: «الوجه الثاني: معرفة الأحكام التي للكلم العربية من جهة أفرادها ومن جهة تركيبها، ويؤخذ ذلك من علم النحو، وأحسن موضوع فيه وأجله كتاب أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه - رحمه الله تعالى^(٢)، كما يرى أبو حيان أن كثيراً من الوجوه الإعرابية لا يعرفها إلا من له إطلاع على كتاب سيبويه وقراءة فيه»^(٣).



(١) البحر المحيط: ٣/١.

(٢) البحر المحيط: ٦/١.

(٣) البحر المحيط: ٢١/١، ٣٨٦/٧.



المبحث الرابع: اعتراضات أخرى

أبو حيان من أئمة التفسير الذين لهم شخصية واضحة ووقفات متأنية تجاه ما ينقلونه عن غيرهم، قبولاً وتأثراً به، أو رفضاً ورداً عليه، وبياناً للصواب الواجب اتباعه ومن ذلك:

أنه يرى وجوب الاعتداد بالقراءات الثابتة والاعتماد عليها، ولا يجوز تخطئتها ولا الطعن فيها أو النيل من قرائها، كما أنه لا يجوز ترجيح بعض القراءات المتواترة على بعض؛ لأنها في درجة واحدة في الثبوت عن النبي ﷺ.

قال - رحمه الله تعالى: «وهذا الترجيح الذي يذكره المفسرون والنحويون بين القراءتين لا ينبغي؛ لأن هذه القراءات كلها صحيحة، ومروية ثابتة عن النبي ﷺ، ولكل منها وجه ظاهر حسن في العربية، فلا يمكن ترجيح قراءة على قراءة»^(١). وقال أيضاً: «وقد تقدم أني لا أرى شيئاً من هذه التراجيح؛ لأنها كلها متواترة قرآناً، فلا ترجيح في إحدى القراءتين على الأخرى»^(٢).

(١) البحر المحيط: ٢/٢٦٥.

(٢) البحر المحيط: ٢/٥٠٦.



وقال أيضاً: «وقد تقدم لنا غير مرة أنا لا نرجح بين القراءتين المتواترتين، ثم أتى على ثعلب الذي نهج هذا الأمر بقوله: «وقال ثعلب من كلام نفسه: إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة لم أفضل إعراباً على إعراب في القرآن فإذا خرجت إلى الكلام كلام الناس فضلت الأقوى، ونعم السلف لنا أحمد بن يحيى، كان عالماً بالنحو واللغة متديناً ثقة»^(١).

لذا فقد رد على الرازي ترجيح إحدى القراءتين المتواترتين على الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(٢)، حيث قال: «وقرأ حفص (يؤتيهم) بالياء ليعود على اسم الله قبله، وقرأ الباقون بالنون على الالتفات ومقابلة (وأعتدنا)^(٣) وقول أبي عبدالله الرازي: قراءة النون أولى من وجهين، أحدهما: أنه أفخم والآخر: أنه مشاكل لقوله (وأعتدنا) ليس بجيد، ولا أولوية في ذلك؛ لأن القراءتين كلتيهما متواترة، هكذا نزلت وهكذا أنزلت»^(٤).

(١) البحر المحيط، ٨٧/٤، وانظر: ١٥٨/٢، ١١/٤، ٣٢٥/٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٢.

(٣) ينظر: السبعة، ٢٤٠، النشر ٢/٢٥٣.

(٤) التفسير الكبير ١١/٩٥، البحر المحيط: ٣/٣٨٦.



ومن الفرق التي شدد أبو حيان النكير عليها الصوفية، فقد فضحهم وأبان عوارهم وحذر المسلمين من ضلالاتهم وخرافاتهم، رحمة بالأمة وشفقة عليها من أولئك الضلال المرتزقة، وإن شحنت بعض كتب التفسير بأقوالهم وأعلامهم^(١) وقد يسرد بعض أعلامهم تحذيراً للأمة من شرورهم، فبعد أن سرد جملة من أسماء مشاهيرهم قال: «إنما سردت أسماء هؤلاء نصحاً لدين الله، يعلم الله ذلك، وشفقة على ضعفاء المسلمين وليحذروا، فهم شر من الفلاسفة الذين يكذبون على الله تعالى ورسوله، ويقولون بقدوم العالم وإنكار البعث، وقد أولع جهلة ممن ينتمي للتصوف بتعظيم هؤلاء وادعائهم أنهم صفوة الله وأولياؤه»^(٢). ويحكي جهلهم بأحكام الإسلام وولعهم بالحكايات الباطلة بقوله: «وأما التباهي بالزيارة ففي هؤلاء المنتمين إلى التصوف أقوام ليس لهم شغل إلا زيارة القبور، زرت قبر سيدي فلان بكذا وقبر فلان بكذا، والشيخ فلاناً بكذا والشيخ فلاناً بكذا، فيذكرون أقاليم طاfoها على قدم التجريد، وقد حفظوا حكايات عن أصحاب تلك القبور وأولئك المشايخ، بحيث لو كتبت ل جاءت أسفاراً، وهم مع ذلك لا يعرفون فروض الوضوء ولا سننه»^(٣).

(١) ينظر: البحر المعيط: ١/٥، ٢٧، ١٣٣، ١٦٠.

(٢) البحر المعيط: ٣/٤٤٩، وانظر: ٢/٤٨١.

(٣) البحر المعيط: ٨/٥٠٧ - ٥٠٨، وانظر بعض مواقفه مع الصوفية: البحر المعيط:

١/١٣٣، ٤٥٦، ٢/٤٨١، ٣/٥١٢، ٤/١٤٥، ١٦٨، ١٧٤، ٣١١، ٥/٣٢، ٩٣،

٣٧٥، ٦/٧٦، ١٤٧، ١٥٦، ٧/٢٣٦، ٨/١١٦، ١١٩.



فكيف مع هذا كله تنقل أقوالهم في تفسير كلام الله عز وجل، أو تسلك طريقتهم في بيان معنى الآيات ومفرداتها، وهذا ما أنكره على الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (١)، بقوله: «قال أبو عبدالله الرازي: الأرواح المقدسة البشرية إذا تطهرت عن دنس الأوصاف البدنية والقاذورات الجسدانية أشرقت بأنوار الجلال وتجلى فيها أضواء عالم الجمال، وترقت من العبدية إلى العندية، بل كأنه لا كمال في العبدية إلا بمشاهدة الحقيقة العندية، ولذلك قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَرَكُنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ، مِنَّا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢) انتهى، وهو شبيه بكلام الصوفية» (٣).



(١) سورة التوبة، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٣) التفسير الكبير ١٦/١٥، البحر المحيط: ٢١/٥.



الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: فبعد كتابة هذا البحث تبينت لي النتائج التالية:

- إمامة العالمين الجليلين الفخر الرازي وأبي حيان الأندلسي وتقدمهما في العلم، حيث طلباه منذ الصغر ورحلا من أجله وتلقياه من الشيوخ، ثم جلسا لتعليم الطلاب ونفع الأمة، وكتبا في علوم شتى المؤلفات النافعة، ومن ذلك التفسير الكبير والبحر المحيط.

- يجمع الفخر الرازي وأبا حيان مذهبُ الأشاعرة في العقيدة، ومذهبُ الشافعية في الفقه وأصوله، وجلالة وإمامة في عصرهما، مع بروز شخصيتهما المستقلة والمبدعة فيما كتباه، وتنوع مصادرهما وكثرتهما، ومن ذلك التفسير، ثم تأثيرهما الواضح فيمن جاء بعدهما.

- ترجح لدي فيما كتبه المتقدمون والمتأخرون في مسألة إكمال الرازي تفسيره ما ذهب إليه الدكتور محسن عبدالحميد، وهو أن التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب الموجود بين أيدينا هو من تأليف الرازي كاملاً، لأدلة كثيرة



ذكرها تؤيد ما ذهب إليه، أفادها بعد قراءته التفسير كاملاً.

- من الذين تأثر بهم أبو حيان الفخر الرازي، وقد اعتمد في ذلك منهجاً التزمه وطريقة سار عليها، مع ظهور شخصيته، ومن ذلك المناسبات التي نقلها أبو حيان، وفي الغالب أنه لا يعزوها إليه، وغالب ما نقله عنه في المناسبات بين الآيات، أما ما يكون بين السورة فقليل.

- أفاد أبو حيان مما ضمه التفسير الكبير من أقوال المفسرين وطريقته في عرضها، تارة يصرح بأنه نقلها منه وأخرى لا يصرح، وقد يتصرف فيما يذكره الرازي من اللطائف والاستنباطات الدقيقة من الآيات، وكان لأبي حيان شخصيته الواضحة في هذا كله، من حيث حسن الاختيار والانتقاء، والترجيح والاختيار، والمناقشة والتوجيه.

- نقل أبو حيان عن الرازي ما ذكره من أسئلة ترد في تفسير الآية مع الإجابة عليها، ومما نقله توجيه معنى آية أو إجابة عن إشكال قد يرد في تفسيرها أو دفع ما يوهم التعارض أو التناقض في معناها، مع التصرف اليسير والتلخيص.

- توسع الرازي في تفسيره بذكر المسائل العلمية والأمور



الكونية وتحدث عن أسرار علوم الهيئة والفلك والنجوم وطبائع المخلوقات وأسرار تكوينها مما له ارتباط بالآيات، وقد أفاد أبو حيان منه ذلك مع الاختصار، استدلالاً بها على بيان عظمة الله واستجابة لأمر الله بالتفكير في مخلوقاته.

- اهتم الرازي بالحديث عن أصول الدين وبخاصة إثبات ألوهية الله عز وجل والمعاد والنبوة والقضاء والقدر حديثاً مفصلاً مدعماً بالأدلة، وقد نقل عنه أبو حيان الكثير من هذا مع تلخيص كلامه، كما أفاد منه أيضاً الرد على المعتزلة وبخاصة الزمخشري، وحيناً يرتضي تفسيره بديلاً عن تفسير الكشاف في بعض المواضع.

- نقل أبو حيان من التفسير الكبير بعض المسائل الأصولية والقواعد الفقهية المستنبطة من الآيات، وكان في الغالب لا يعزوها إلى الرازي، وقد يقتصر أبو حيان على ذكر مسألة أصولية ويحيل إلى الكتب التي توسعت في ذكر فروعها وأدلتها.

- ذكر أبو حيان منهجه في كتابة تفسيره في المقدمة، والتزم عدم التطويل في ذكر مسائل النحو والصرف وأصول الدين والفقه ونحو ذلك، وإنما يذكر المسلم منها، ويحيل إلى كتبها الأصول للتوسع والنظر فيها، كما التزم أن يطهر



تفسيره من القصص الباطلة والحكايات الغريبة ونحو ذلك، وانتقد من خالف هذا المنهج، ومنهم الرازي في تفسيره.

- نفور أبي حيان من الفلاسفة وكلامهم قديم، منذ طلبه العلم في أول حياته، حيث فر خشية أن يلزم بتعلمه من بلاده الأندلس إلى المشرق، وقد شنع على من يذكر كلامهم وينتحل طريقتهم ويولع بنقل إشاراتهم الفلسفية، ومن أولئك الرازي في تفسيره، الذي لم يكتف بهذا بل كان يسميهم حكماء الإسلام، والحق عند أبي حيان أنهم أجهل الناس بالله وبأنبيائه، وهم منافقون يتسترون بالإسلام خوف القتل الذي أعمله فيهم بعض حكام المسلمين.

- الرازي عند أبي حيان غير عالم بالنحو، بل يجهل الكثير من قواعده ومسائله، ومع ذلك فهو يتجاسر على الحديث فيه مع عدم علمه به، لذا فقد رد عليه وبين الصواب فيما أخطأ فيه، وبخاصة عندما نال من إمام العربية سيبويه، وقد كان أبو حيان يجله ويحترمه.

- مما اعترضه أبو حيان على الرازي نقله في تفسيره كلام الصوفية، الذين أضلوا الناس بجهالتهم وبدعهم، أو تفسيره الآيات بما يشبه كلام الصوفية، ومما أنكره عليه الترجيح بين القراءات المتواترة، وهذا لا يصح؛ لأنها كلها قرآن ثابت



بالتواتر عن النبي ﷺ، والتفضيل إنما يكون في كلام
الناس.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





ثبت المصادر والمراجع

- الإحاطة في أخبار غرناطة - لسان الدين الخطيب - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- الإمام الحكيم فخر الدين الرازي - عبدالعزيز المجذوب - دار العربية للكتاب - ليبيا - تونس - الطبعة الثانية: ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- البحر المحيط - أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي - دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- البداية والنهاية - إسماعيل بن عمر بن كثير - دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- بغية الوعاة - عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، الطبعة الثانية.
- التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، دار سحنون، تونس: ١٩٩٩م.
- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون.



- الدرر الكامنة، أحمد بن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، مصورة عن طبعة دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن، الهند، ١١٣٥هـ.
- الرازي مفسراً، محسن عبدالحميد، دار الحرية، بغداد: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحى بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون.
- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبدالوهاب بن علي السبكي، تحقيق محمود الطناحي وعبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب، القاهرة، بدون.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، بدون.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني، المعروف بحاجي خليفة، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، بدون.



- لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبع في حيدر آباد، من منشورات الأعلمي، بيروت، الطبعة الثانية: ١٣٩٠هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالحق بن غالب بن عطية، تحقيق المجلس العلمي بفاس، توزيع مكتبة ابن تيمية، القاهرة، بدون.
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق عبدالجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي - تحقيق شعيب الأرنؤوط وصالح عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي الأتابكي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، مصورة عن طبعة دار الكتب.
- النشر في القراءات العشر، محمد بن محمد بن الجزري،



- تحقيق علي الضباع، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون.
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، بعناية س ديد رينغ، جمعية المستشرقين الألمانية، الطبعة الثانية: ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار إحياء التراث العربي، دار صادر، بيروت، بدون.





من أسرار الحروف في القرآن الكريم^(١) «الباء - اللام»

(١) بحث محكم منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: ٢٢٩، سنة



المقدمة

الحمد لله رب العالمين إله الأولين والآخرين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد الأمين المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين .. أما بعد :

فإن من نعمة الله على عباده أن أرسل إليهم أفضل رسله، وأنزل عليهم خير كتبه القرآن الكريم، نوراً يهتدي به وطريقاً يسار عليه، هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم، لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي فوائده، لا تشبع منه العلماء ولا يخلق من كثرة الترداد، متى تمسكت به الأمة أفراداً وشعوباً، عزوا وانتصروا، وكانت لهم السيادة والسعادة في الدنيا والآخرة، وإن كانت الأخرى - والعياذ بالله - ذلوا وخابوا، وكانت لهم التعاسة والشقاوة، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَفَسِحْنَاهُ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ لِنُسُو ﴿١٢٦﴾ ﴿ (١)

ولقد أكب الناس عامة والعلماء خاصة على هذا الكتاب، ينهلون من معينه الذي لا ينضب، ويستقون من هداياته التي لا

(١) سورة طه، الآيات: ١٢٤-١٢٦.



تكدرها الدلاء، فقامت الدراسات المتنوعة لخدمة القرآن الكريم، وبذلت الجهود المشكورة من لدن السلف والخلف تأليفاً وتصنيفاً وتديراً من أجل القرآن الكريم، في نواح مختلفة وفنون متباينة ومشارب متنوعة.

ومن ذلك خدمته من حيث الأمور اللغوية والنكات البلاغية واللطائف البيانية، اعتماداً على لغة العرب، وما كتبه النحويون الأوائل من قواعد وأصول ينضبط بها اللسان، ويعتصم بها من العجمة واللحن.

فكانت عناية المفسرين وغيرهم بهذه المسائل كبيرة، وانصبت جهودهم في هذا المجال، حتى كانت السمة العامة والوصف الأغلب لكتبهم وتصانيفهم دراسة هذه الجوانب.

لذا أحببت أن أنتظم في سلك هذه الدراسات، وأبذل جهدي في خدمة كتاب ربنا جل وعلا فكان اختياري «من أسرار الحروف في القرآن الكريم»، واخترت من هذه الحروف الباء واللام. وسبب اختياري هذا الموضوع يرجع إلى أمور، أهمها:

١- الارتباط بالقرآن الكريم والوقوف على معانيه من خلال هذه الدراسة.

٢- الوقوف على ما كتبه الأوائل ومن بعدهم في هذا الموضوع، وهو تراث ثري ضخم.



٣- كثيراً ما كنت أتوقف عند بعض الآيات التي تارة تعدى فيها الفعل بحرف، وتارة بحرف آخر، وربما بحرف ثالث، فكانت هذه الدراسة خير معين في معرفة ذلك والكشف عن أسراره ولطائفه.

٤- أن معرفة هذه اللطائف البيانية والنكات البلاغية لها أثرها في نفس القارئ مما تعجز العبارة عن وصفه.

٥- فهم بعض نواحي العظمة في كتاب الله عز وجل من حيث بيانه المعجز وأسلوبه الذي تحدّى الله به العرب أرباب الفصاحة والبلاغة.

ولقد أملت طبيعة البحث أن تكون موضوعاته كالآتي:

- مقدمة.
- تمهيد: أهمية معرفة اللغة العربية في فهم القرآن الكريم.
- الفصل الأول: الباء معانيها ودلالاتها في القرآن الكريم، وفيه مبحثان:
- المبحث الأول: الدراسة النظرية.
- المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية.
- الفصل الثاني: اللام ودلالاتها في القرآن الكريم، وفيه مبحثان:



- المبحث الأول: الدراسة النظرية.
 - المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية.
 - الخاتمة.
 - ثبت المصادر والمراجع.
- وقد سرت في هذا البحث حسب المنهج الآتي:
- كتبت الآيات القرآنية المراد دراستها كاملة إن لم تكن طويلة، معزوة إلى مواضعها في القرآن الكريم.
 - خرّجت الأحاديث النبوية.
 - عزوت الآيات الشعرية إلى قائلها من دواوينهم أو من الكتب المتقدمة.
 - ترجمت لكل علم بترجمة موجزة، وتركت الأعلام المشهورين دون ترجمة.
 - اعتمدت على كتب التفسير وما ألف في دراسة هذا الموضوع موثقاً أقوال أصحابها.
 - بذلت جهدي في ترتيب الأقوال حسب وفيات أصحابها.
 - أخرجت ذكر طبعة أي كتاب وناشره وتاريخ ذلك إلى ثبت المصادر والمراجع؛ خشية أن تطول الحواشي.
 - في التمهيد اقتصر على ما يخدم هذا البحث، وإلا فقد بقي الكثير. وقد جزأت الكلام فيه إلى عناوين مفردة؛ كي يسهل استجماع الذهن لها، والإحاطة بالفكرة التي تثبتها.



- في الدراسة النظرية اكتفيت بأشهر معاني الحروف «الباء - اللام»، وبخاصة ما كثر وروده في القرآن الكريم، وسيكون له استشهاد في الدراسة التطبيقية، محيلاً ما تبقى من هذه المعاني إلى كتبها لمن أراد التوسع في ذلك.
 - في الدراسة التطبيقية اخترت مواضع من القرآن الكريم مما وردت فيه الباء واللام، ذاكراً أقوال المفسرين والعلماء بعامة فيها، مستقصياً - حسب الطاقة - ما قيل فيها مما يخدم البحث من المتقدمين والمتأخرين.
 - اخترت ما رأيت الراجح - لدي - مدعماً ذلك بالأدلة أو التعليل.
 - عملت موازنة بين هذه الآيات وما يماثلها في القرآن الكريم، وذلك فيما تغيرت فيه تعدية الفعل في تلك المواضع، وسر اختيار هذا الحرف دون غيره، مبرزاً الدلالات البيانية واللطائف البلاغية بدقة وجلاء.
 - حرصت على الاختصار غير المخل الذي يفني بالعرض.
- وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





تمهيد:

أولاً: أهمية معرفة اللغة العربية في فهم القرآن الكريم

أنزل الله القرآن الكريم معجزة للنبي ﷺ باقية إلى يوم القيامة، بلسان عربي مبين. وقد بين النبي ﷺ أن معجزته العظيمة الظاهرة هي القرآن، وأنه بهذا القرآن يكون أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا وأعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» رواه البخاري ومسلم^(١)، قال الحافظ ابن حجر^(٢) - رحمه الله: «أي: إن معجزتي التي تحديت بها الوحي الذي أنزل علي وهو القرآن، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح .. وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن: في أربعة أشياء:

- (١) صحيح البخاري مع الفتح - كتاب فضائل القرآن - باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ٣/٩، وصحيح مسلم بشرح النووي - كتاب الإيمان ١٨٧/٢.
- (٢) أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني ولد بمصر سنة ٧٧٣هـ وبها نشأ، شافعي المذهب، من أئمة الحديث والرجال والفقهاء، توفي بمصر سنة ٨٥٢هـ، زادت تصانيفه على مائة وخمسين مصنفاً، منها: فتح الباري شرح صحيح البخاري، الإصابة في تمييز أسماء الصحابة، تهذيب، التهذيب تقريب التهذيب، وغيرها. ينظر الضوء اللامع ٣٦/٢، البدر الطالع ٨٧/١، شذرات الذهب ٢٧٠/٧.



- ١- حسن تأليفه والتثام كلمه مع الإيجاز والبلاغة.
 - ٢- صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظماً ونثراً، حتى حارت فيه عقولهم، ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله، مع توفر دواعيهم على تحصيل ذلك، وتقريعه لهم على العجز عنه.
 - ٣- ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم الماضية والشرائع الدائرة.
 - ٤- الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبوي وبعضها بعده ..^(١).
- إذن من الوفاء لهذه اللغة أن نعرف لها قدرها ومكانتها، فلا نرتضي بها بدلاً مهما زين ذلك المغرضون ومهما كاد لها الكائدون، ولا يكفي هذا بل لا بد من العلم بها ومعرفتها ودراستها من جميع النواحي، تصريفاً ونحواً وبياناً، وعلى قدر المعرفة بلغة العرب، تكون المعرفة بفضل القرآن وعلو شأنه.

(١) فتح الباري ٧/٦-٧.



يقول ابن النقيب ^(١): «وإنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب، فعرف علم اللغة وعلم العربية وعلم البيان، ونظر في أشعار العرب وخطبها ومقالاتها في مواطن افتخارها، ورسائلها وأراجيزها وأسجاعها، فعلم منها تلوين الخطاب ومعدوله، وفنون البلاغة وضروب الفصاحة، وأجناس التجنيس وبدائع البديع، ومحاسن الحكم والأمثال.

فإذا علم ذلك ونظر في هذا الكتاب العزيز، ورأى ما أودعه الله سبحانه فيه من البلاغة والفصاحة وفنون البيان، فقد أوتي فيه العجب العجاب، والقول الفصل اللباب، والبلاغة الناصعة التي تحير الألباب وتُغلق دونها الأبواب .. ولذلك يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة والنفوس خشية، وتستلذه الأسماع وتميل إليه بالحنين الطباع» ^(٢).

ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن العظيم والوقوف على ذلك إلا عن طريق معرفة لغة العرب، ومن لم تكن له بذلك دراية وعلم، لم يظفر من معرفة هذه البلاغة والفصاحة والوقوف على أسرارها بشيء.

(١) هو جمال الدين محمد بن سليمان المقدسي المشهور بابن النقيب، إمام في التفسير والفقهاء، توفي سنة ٦٩٨هـ، له تفسير القرآن في مجلدات كثيرة، قيل بلغت خمسين وقيل ثمانين، وله مقدمة له مطبوعة، ينظر: شذرات الذهب ٥/٤٤٢، فوات الوفيات ٢/٢١٥، حسن المحاضرة ١/٢٦٦.

(٢) مقدمة تفسير ابن النقيب، ص ١٢.

قال القاضي الباقلاني ^(١): «والعربية أشدها - أي اللغات - تمكناً وأشرفها وأعدلها، ولذلك جعلت حلية لنظم القرآن، وعلق بها الإعجاز» ^(٢).

ومن أقوال السلف في أهمية تعلم اللغة العربية لفهم كلام الله عز وجل: قول يحيى بن عتيق ^(٣): «سألت الحسن البصري فقلت: يا أبا سعيد الرجل يتعلم العربية يلتمس حسن المنطق ويقيم بها قراءته، فقال حسن: يا بني فتعلمها، فإن الرجل قد يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك» ^(٤).

وقد أوجب الشافعي ^(٥) تعلم العربية وجعله فرضاً، حيث قال:

(١) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني، ولد سنة ٣٣٨هـ، وسكن بغداد، وتوفي بها سنة ٤٠٣هـ. له: تمهيد الأوائل، ومناقب الأئمة، وإعجاز القرآن وغيرها، ينظر: وفيات الأعيان ٤/٢٦٩، النجوم الزاهرة ٤/٢٣٤، شذرات الذهب ٣/١٦٩.

(٢) إعجاز القرآن: ١٧١.

(٣) يحيى بن عتيق الضفاوي البصري روى عن ابن سيرين ومجاهد، وروى عنه الحمادان وعبد العزيز بن المختار، كان ورعاً متقناً، ينظر: تهذيب التهذيب ١١/٢٥٥.

(٤) ينظر: الصعقة الغضبية ٢٤٨، فضائل القرآن لأبي عبيد ٢٨١، معجم الأدباء ١/٨٣-الإتقان: ١/١٨١.

(٥) هو أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، أحد أئمة المذاهب الأربعة. ولد بفلسطين سنة ١٥٠هـ، ثم تنقل في كثير من البلدان، حتى توفي بمصر سنة ٢٠٤هـ، له: الأم، والرسالة، والمسند، في الحديث. ينظر: «تاريخ بغداد ٢/٦٥، وفيات الأعيان ٤/٣٦١، سير أعلام النبلاء: ١٠/٤٥.



«فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله ... وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه، كان خيراً له»^(١).

أما أقوال شيخ الإسلام^(٢) في هذا الموضوع فكثيرة جداً، فهو يرى ضرورة تعلم اللغة وفهمها والتحدث بها، قال - رحمه الله: «كان السلف يؤدبون أولادهم على اللحن، فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي ونصلح الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة، والافتداء بالعرب في خطابها. فلو ترك الناس على لحنهم، كان نقصاً وعبياً»^(٣).

وصرّح في موضع آخر بوجوب تعلمها وجعلها فرضاً، حيث قال: «إن نفس اللغة من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية. وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب»^(٤).

(١) الرسالة، ٤١.

(٢) أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية، المتوفى سنة ٧٢٨هـ له: منهاج السنة، نقض التأسيس، التدمرية وغير ذلك. ينظر: الدرر لكامنة ١/١٤٤، البداية والنهاية ١٤/١٣٥.

(٣) مجموع الفتاوى ٣٢/٢٥٢.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٠٧.



وكلما كانت معرفة المسلم بألفاظ الكتاب والسنة تامة، كان فهمه لمراد الكتاب والسنة تاماً، وعلى العكس يكون الخلل في فهم المصطلحات والأحكام، والوقوع في تحريف الكلم عن مواضعه، قال - رحمه الله: «ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي ﷺ، وعاداتهم في الكلام، وإلا حرّف الكلم عن مواضعه»^(١).



(١) مجموع الفتاوى ١/٢٤٣.



ثانياً: أهمية معرفة اللغة العربية للمفسر

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، فوجب معرفتها وفقه ما فيها؛ حتى يتم فهم كتاب الله وتفسيره، واستظهار الأحكام والمسائل منه، وذلك لا يتم إلا بإدراك معاني الآيات الكريمة، قال الزركشي^(١) : «واعلم أنه ليس لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين، والمراد المعنى الآخر»^(٢) .

ولهذا السبب يقول الإمام مالك^(٣) - رحمه الله: «لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً»^(٤) .

(١) هو بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي الشافعي. ولد بمصر سنة ٧٤٥هـ، ورحل إلى دمشق، ثم رجع إلى مصر، وبها توفي سنة ٧٩٤هـ. له: البحر في أصول الفقه، والبرهان في علوم القرآن. ينظر: الدرر الكامنة ٣/٣٩٧، شذرات الذهب ٦/٢٣٥.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/٢٩٥.

(٣) هو مالك بن أنس المدني أحد أئمة المذاهب الأربعة، من المحدثين الفقهاء. توفي سنة ١٧٩هـ. له: الموطأ، ورسالة إلى الرشيد. ينظر: «وفيات الأعيان ٤/١٣٥، تهذيب التهذيب ١٠/٥، حلية الأولياء ٦/٣١٦، تهذيب الأسماء واللغات ٢/٧٥».

(٤) ينظر الإتيان ٢/١٩٧. معنى نكالاً: أي صنع به صنيعاً يجذر به غيره، القاموس «نكل»

وقال شيخ الإسلام: «لا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني»^(١).

وقد حرص العلماء قديماً على التأليف في غريب القرآن ومعانيه وإعرابه، مما يدل على أهمية اللغة العربية في فهم كتاب الله عز وجل، بل إن بعض هذه الكتب تسمى بـ«معاني القرآن»، مما يوحي بأهمية الإعراب في فهم المعاني، كمعاني القرآن للقراء^(٢)، ومعاني القرآن للأخفش^(٣)، وغير ذلك، لذا فقد عد صاحب كشف الظنون «إعراب القرآن» علماً من فروع علم التفسير^(٤).

(١) الإيمان ١١١.

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، سمي بالفراء؛ لأنه يفري الكلام. ولد سنة ١٤٤هـ، إمام الكوفة في النحو، وقد أخذ عن الكسائي. أكثر مقامه ببغداد، وبها توفي سنة ٢٠٧هـ. له: معاني القرآن، واللغات، والنوادر. ينظر: «أنباء الرواة ٤/٧، معجم الأدباء ٢٠/٩، بغية الوعاة ٢/٣٣٣، شذرات الذهب ٢/١٩».

(٣) هو سعيد بن مسعدة الجاشعي بالولاء، سكن البصرة، وقرأ النحو على سيبويه. ثم دخل بغداد وأقام بها، وبها توفي سنة ٢١٥هـ. له: معاني القرآن، والاشتقاق، والمسائل، وغيرها. ينظر: «وفيات الأعيان ٢/٣٨٠، إنباء الرواة ٢/٣٦، بغية الوعاة ١/٩٥٠».

(٤) ١٢١-١٢٢.

وقد أفاد من ذلك المفسرون في كتبهم، وانتقد بعضهم مواضع على من لم يكن لهم باع في العربية، وشددوا عليهم النكير في بعضها، أذكر لذلك أمثلة مما جاء في البحر المحيط من انتقادات أبي حيان^(١) - رحمه الله - غيره ممن تكلموا في تفسير بعض الآيات عن غير علم بالعربية، فوقع منهم الخطأ والزلل في تفسيرها، فذمهم ولامهم على هذا الصنيع، ومن ذلك:

قوله في ابن عطية^(٢): «هذا قول من شدا يسيراً في علم العربية، ولم يرسخ قدمه فيها»^(٣).

وعاب تقدير الأخفش وأبي علي الفارسي^(٤) بقوله: «وتقادير أبي علي والأخفش فيها تفكيك للكلام، وسلوك به غير ما تقتضيه

(١) هو محمد بن يوسف الأندلسي، إمام في النحو والتفسير والقراءات. رحل في طلب العلم، حتى انتهى به المقام في مصر، وبها توفي سنة ٧٤٩هـ. له: البحر المحيط، والتذيل والتكميل، وتذكرة النحاة، وغيرها. ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى ٢٧٦/٩، الوافي بالوفيات ٥/٢٦٧، نفح الطيب ٢/٥٣٥، بغية الوعاة ١/٢٨٠».

(٢) هو عبدالحق بن غالب بن عطية المالكي، من علماء التفسير واللغة والنحو. رحل إلى المشرق، وتوفي سنة ٥٤١هـ. له: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، وغيره. ينظر: «نفح الطيب ١/٥٩٣، بغية الوعاة ٢/٧٣، فهرس الفهارس ٢/٢٣٤».

(٣) ينظر البحر المحيط: ٤/٢٢٨.

(٤) هو أبو علي الحسين بن أحمد الفارسي، تنقل في طلب العلم، من شيوخ المعتزلة. توفي سنة ٣٧٧هـ. له: الإيضاح العضدي، والمسائل البصريات والبغداديات، والحنة للقرء السبعة، ينظر: «إنباه الرواة ١/٢٣٧، سير أعلام النبلاء ١٦/٣٧٩، بغية الوعاة ١/٤٩٦».



الفصاحة، وهي تقادير أعجمية بعيدة عن البلاغة، لا تناسب في كتاب الله، بل لو قدرت في شعر الشنفرى ما ناسب، والنحاة الصنف غير الأدباء بمعزل عن إدراك الفصاحة»^(١).

ويرى أن الزمخشري^(٢) بعجمته وعدم معرفته باللغة، لا يستطيع الإفصاح عن المعاني، وقد يفكك كلاماً مرتبطاً بعضه ببعض؛ لسوء فهمه الأعجمي^(٣)، وهذا محل نقاش.

ويشتد نكيره على من فسر آية وهو لا يعلم من العربية شيئاً، فيقول: «هو قول من اجتراً على كتاب الله بغير علم»^(٤).

ونجده يصرف نظره عن أقوال ابن الحاجب؛ لأنه ليس ذا منزلة رفيعة في النحو، فلم يذكر أقواله في تفسيره^(٥).

وهنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أنه ليس المقصود من تعلم العربية الاقتصار على حفظ قواعدها ومتونها، ومعرفة الصواب والخطأ في اللفظ، وإن كانت هذه الأمور محل عناية، لكن

(١) البحر المحيط: ٢٩١/٤.

(٢) هو جار الله عمود بن عمر الزمخشري، رحل إلى بخارى وبغداد ثم أقام بمكة، توفي سنة ٥٣٨هـ، له: الكشاف، الفائق في غريب الحديث، المفصل. ينظر: معجم الأدباء ١٢٦/١٩، النجوم الزاهرة: ٢٤٧/٥، بغية الوعاة ٢/٢٧٩.

(٣) البحر المحيط ٧١/٢، ٢٠٦/٨.

(٤) البحر المحيط ٤/٦٣.

(٥) البحر المحيط: ٢٦٨/٥.



المقصود من تعلم اللغة العربية التأمل فيها وفهم أسرارها، ومعرفة معاني كتاب الله عز وجل، وقد نبه على هذا الأمر الزجاجي^(١) بقوله: «فإن قيل: فما الفائدة في تعلم النحو؟ فالجواب في ذلك أن يقال له: الفائدة فيه الوصول إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة، صواباً غير مبدل ولا مغير، وتقويم كتاب الله عز وجل الذي هو أصل الدين والدنيا والمعتمد، ومعرفة أخبار النبي ﷺ، وإقامة معانيها على الحقيقة؛ لأنه لا تفهم معانيها على صحة إلا بتوفيتها حقوقها من الإعراب»^(٢).

ويقول أبو حيان: «وتبين أن علم التفسير ليس متوقفاً على علم النحو فقط، كما يظنه بعض الناس، بل أكثر أئمة العربية هم بمعزل عن التصرف في الفصاحة، والتفنن في البلاغة، ولذلك قلت تصانيفهم في علم التفسير، وقل أن ترى نحوياً بارعاً في النظم والنثر، كما قل أن ترى بارعاً في الفصاحة يتوغل في علم النحو»^(٣). وقال في موضع آخر: «ومع ذلك فاعلم أنه لا يرتقى من علم

(١) هو أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، شيخ العربية في عصره. نشأ ببغداد، وتوفي بطبرية سنة ٣٣٩هـ. له: الجمل في النحو، والإيضاح في علل النحو، واللامات، وحروف المعاني. ينظر: «إنباه الرواة ٢/ ١٦٠، بغية الوعاة ٢/ ٧٧، شذرات الذهب ٢/ ٣٥٧».

(٢) الإيضاح في علل النحو ٩٥، وقد عقد باباً لهذه المسألة.

(٣) البحر المحيط ١/ ٩.



التفسير ذروته، ولا يمتطي منه صهوته إلا من كان متبحراً في علم اللسان، مترقياً منه إلى رتبة الإحسان، قد جبل طبعه على إنشاء النثر والنظم دون اكتساب، وإبداء ما اخترعته فكرته السليمة في أبداع صورة وأجمل جلباب ... يدرك إعجاز القرآن بالوجدان لا بالتقليد، وينفتح له ما استغلق؛ إذ بيده الإقليد، وأما من اقتصر على غير هذا من العلوم، أو قصر في إنشاء المنثور والمنظوم، فإنه بمعزل عن فهم غوامض الكتاب، وعن إدراك ما تضمنه من العجب العجائب. وحظه من علم التفسير إنما هو نقل أسطوار، وتكرار محفوظ على مر الأعصار»^(١).

ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير؛ لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني، وإظهار وجه الإعجاز، قال الزمخشري: «علم التفسير الذي لا يتم تعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم .. فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية^(٢) أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أو عطف، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن

(١) البحر المحيط ٧/١.

(٢) أحد فصحاء العرب، اسمه أيوب والقرية اسم أمه، كان من الحفاظ، قتله الحجاج. ينظر

حاشية الإنصاف على الكشاف ١٦/١.



علك اللغات بقوةً لحبيبه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يفوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علما البيان والمعاني»^(١).

وقال أيضاً: «وكم من آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة؛ لأن من تأول ليس من هذا العلم في غير ولا نفير، ولا يعرف قبيلاً منه من دبير»^(٢).

وقال السكاكي^(٣) مؤكداً ضرورة دراسة علمي البيان والمعاني لفهم كلام الله: «وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين - المعاني والبيان - كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل»^(٤).

وقال أيضاً: «لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه من علمي المعاني والبيان، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه.. ولكم آية من آيات

(١) الكشاف ١٥/١-١٦.

(٢) الكشاف ٣/٤٠٩.

(٣) هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد السكاكي الخوارزمي، عالم في النحو والمعاني والبيان. توفي بخوارزم سنة ٦٢٦هـ. له: مفتاح العلوم. ينظر: الجواهر المضية ٢٢٥، بغية الوعاة ٢/٢٣٦٤.

(٤) المفتاح ١٦٢.

القرآن تراها قد ضيقت حقها، واستلبت ماءها وورونقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مأخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة»^(١).

ومن علوم اللغة التي تجب العناية بها ودراستها حروف المعاني وتفهم دلالاتها ونكاتها البلاغية، وقد كانت عناية العلماء بهذا الموضوع بالغة، فألفوا في ذلك الكتب التي يظهر فيها بذل الجهد في الدراسة والبحث والدقة في إبراز معانيها وتجليه مقاصدها وأغراضها، فدالات النظم وأسراره متوقفة على إدراك مرامي الحروف واستجلاء معانيها وأسرارها، يقول المرادي^(٢) في مقدمة كتابه الجنى الداني: «فإنه لما كانت مقاصد كلام العرب على اختلاف صنوفه مبنياً أكثرها على معاني حروفه، صرفت الهمم إلى تحصيلها، ومعرفة جملتها وتفصيلها، وهي مع قلتها وتيسر الوقوف على جملتها، قد كثر دورها وبعد غورها، فعزت على الأذهان معانيها، وأبت الإذعان إلا لمن يعانيها»^(٣).



(١) المفتاح ٤٢١.

(٢) المرادي: أبو محمد الحسن بن قاسم بن عبدالله المرادي، ولد بمصر وإقامته بالمغرب ثم رجع إلى مصر وبها توفي سنة ٧٤٩هـ. من أئمة اللغة والنحو، له: شرح على الفية ابن مالك، الجنى الداني، وغيرهما. ينظر: الدرر الكامنة ٣٢/٢، غاية النهاية ٢٢٧/١، بغية الوعاة ٥١٧/١.

(٣) الجنى الداني، ص ١.



الفصل الأول:

«الباء» معانيها ودلالاتها في القرآن الكريم



المبحث الأول:

الدراسة النظرية

الباء من الحروف المختصة بالاسم الملازمة له تعمل فيه الجر،
ولها معانٍ كثيرة هي:

أولاً: الإلصاق، وهو أصل معانيها، ولم يذكر لها سيبويه^(١)
غيره، قال - رحمه الله: «وباء الجر إنما هي للإلصاق
والاختلاط». ثم قال: «فما اتسع من هذا في الكلام، فهذا
أصله»^(٢).

وقد رد كثير من المحققين^(٣) سائر معاني الباء إلى معنى
الإلصاق كما ذكر سيبويه، وجعلوه معنى لا يفارقها، واستبعد
بعضهم ذلك، وقال: الصحيح التنويع.

(١) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، إمام النحويين، تلميذ الخليل بن أحمد وشيخ
الأخفش. توفي سنة ١٨٠ هـ. له: الكتاب. ينظر: «وفيات الأعيان ٣/٤٦٣، أنباه الرواة
٣٤٦/٢، بغية الوعاة ١/٢٢٩».

(٢) الكتاب: ٤/٢١٧.

(٣) ينظر: الجنى الداني ١٠٨، رصف المباني ٢٢٢.

والإصاق ضربان:

(أ) حقيقي، مثل: أمسكت الحبل بيدي، قال ابن جني^(١) :
«وإذا قلت: أمسكت بالحبل، فقد نابت الباء عن قولك
«أمسكته» مباشراً له وملاصقاً يدي له»^(٢) .

(ب) مجازي، مثل: مررت بزيد، قال الزمخشري: «المعنى التصق
مروري بموضع يقرب منه»^(٣) . وقد جعله بعضهم بمعنى
«على»^(٤) .

ثانياً: التعديّة: وهي القائمة مقام الهمزة في إيصال معنى الفعل
اللازم إلى المفعول به، مثل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَسُورِهِمْ﴾^(٥) ،
﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾^(٦) . ويؤيد أن باء التعديّة بمعنى الهمزة قراءة^(٧)
«..أذهب الله نورهم ...» .

(١) هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، إمام في الفقه والنحو والأدب، تلميذ أبي علي
الفارسي، كان معتزلياً، وتوفي سنة ٣٩٢، له: الخصائص، اللمع، المحتسب وغيرها.
ينظر: وفيات الأعيان ٣/٢٤٦، إنباء الرواة ٢/٣٣٥، بغية الوعاة: ١٣٢/٢ .

(٢) الخصائص ٢/٢٧١ .

(٣) الفصل ٢٨٥ .

(٤) ينظر: شرح التسهيل لابن مالك ٣/١٥٢، مغني اللبيب ١/١٠١، الجني الداني ١٠٢ .

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٧ .

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٠ .

(٧) هي قراءة محمد بن عبدالرحمن بن السميع اليمني، ينظر: البحر المحيط: ١/٨٠ .



ثالثاً: الاستعانة^(١) ، وهي الداخلة على آلة الفعل، مثل: كتبت بالقلم، ضربت بالسيف. ومنه في أشهر الوجهين^(٢) : بسم الله الرحمن الرحيم.

رابعاً: التعليل، قال ابن مالك^(٣) : «هي التي تصلح غالباً في موضعها اللام»^(٤) .

كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ﴾^(٥) .
 وقوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمٍ مِّنَ اللَّيْلِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحُلَّتْ لَهُمْ﴾^(٦) ،
 وقوله تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾^(٧) . وبعض النحويين^(٨) يجعلون هذا المعنى داخلاً في السببية؛ لأن التعليل والسبب عندهم واحد.

(١) ينظر: المقتضب ٣٩/١.

(٢) والوجه الثاني في باء البسمة أن تكون للمصاحبة. ينظر: الكشاف ٣/١-٤، التصريح ١٢/٢.

(٣) هو محمد بن عبدالله بن مالك الطائي النحوي. ولد سنة ٦٠٠ هـ بجيان، وتوفي بدمشق سنة ٦٧٢ هـ. إمام في النحو. له: التسهيل وشرحه، وشرح الكافية، والألفية. ينظر: «الوافي بالوفيات ٣/٣٥٩، طبقات الشافعية الكبرى ٦٧/٨، بغية الوعاة ١/١٣٠.

(٤) ينظر: شرح التسهيل ١٥٠/٣.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٥٤.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٦٠.

(٧) سورة العنكبوت، الآية: ١٦٠.

(٨) ينظر: الجنى الداني: ١٠٤، رصف المباني: ٢٢٢.



خامساً: المصاحبة، ولها علامتان ^(١) :

إحداهما: أن يحسن في موضعها «مع».

الثانية: أن تغني عنها وعن مجرورها الحال، كقوله تعالى: ﴿قَدْ

جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ﴾ ^(٢) أي: مع الحق، أو محقاً.

وقوله تعالى: ﴿يَنْبُحُ أَهْبِطُ بِسَلَامٍ﴾ ^(٣)، أي: مع سلام،

أو مسلماً عليك. ولصلاحية وقوع الحال موقعها سماها

كثير ^(٤) من النحويين «باء الحال».

سادساً: الظرفية، وعلامتها أن يحسن في موضعها «في»، كقوله

تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ ^(٥)، وقوله تعالى:

﴿وَأَنْتُمْ لَنْمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ﴾ ^(١٣٧) **﴿وَبِالْبَيْتِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ﴾**

﴿﴾ ^(١٣٨) ^(٦)

سابعاً: المجاوزة، وعبر بعضهم عن هذا بموافقة «عن»، وذلك

كثير بعد السؤال، مثل قوله تعالى: ﴿فَسَأَلْ بِهِ﴾

(١) ينظر: الجنى الداني: ١٠٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٠.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٨.

(٤) ينظر: البيان ١/٧١، التبيان ١/٣٦، البحر المحیط: ١/٤٦٥، ٢/١٣١.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.

(٦) سورة الصافات، الآيتان: ١٣٧، ١٣٨.



خَيْرًا ﴿^(١)﴾ ، وقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ^(٢)

وليس هذا خاصاً بعد السؤال، بل تكون الباء موافقة
 لـ«عن» بعد غير السؤال، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ
 السَّمَاءُ وَالْغَمَمِ﴾ ^(٣) ، وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَوَأَيْتِهِمُ﴾ ^(٤) .

ثامناً: الاستعلاء، وعبر بعضهم عنه بموافقة «على»، ومن أمثلة
 ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ
 يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ﴾ ^(٥) ، أي: على
 قنطار، وعلى دينار. ومنه قول الشاعر ^(٦) :

أرْبُ يُبُولُ الثُّغْبَانَ بِرَأْسِهِ لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثُّعَالِبُ

فالباء في «برأسه» بمعنى «على»، بدليل قوله «من بالَتْ عليه
 الثعالب».

تاسعاً: التبعض، وعبر عنه بعضهم بموافقة «من» التبعضية.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٩.

(٢) سورة المعارج، الآية: ١.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٥.

(٤) سورة الحديد، الآية: ١٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

(٦) قائله: العباس بن مرداس السلمى. ينظر: ديوانه ص ١٥١، الأمالي الشجرية ٢/ ٢٧١،

شرح التسهيل ٣/ ١٥٢، الجنى الدانى: ١٠٦.

وفي إتيان الباء بمعنى «من» التبعية خلاف طويل، فقد ذهب إلى أنها تأتي للتبعيض الكوفيون^(١) ومن تبعهم^(٢)، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(٤). وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٥). وذهب البصريون^(٦) ومن تبعهم^(٧) إلى أن الباء لا تأتي للتبعيض، وما استدلل به من أثبت لها هذا المعنى إما أن تكون زائدة، أو للإلصاق، أو على التضمنين، أي: يروي عباد الله.

عاشراً: القسم، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾^(٨). وهي أصل حروف القسم^(٩).

(١) ينظر: ارتشاف الضرب ٢/٤٢٧، المساعد ٢/٢٦٤، ائتلاف النصرة ١٦١، همع الهوامع ٢١/٢.

(٢) ينظر: الجنى الداني: ١٠٦، تأويل مشكل القرآن ٥٧٥، حروف المعاني ٤٧، شرح الكافية الشافية ٢/٨٠٦، شرح الألفية لابن الناظم: ٣٦٦، جواهر الأدب ٤١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٤) سورة الإنسان، ٦.

(٥) سورة المطففين، الآية: ٢٨.

(٦) ينظر: ائتلاف النصرة ١٦٠.

(٧) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١/١٢٣، التبيان في إعراب القرآن ١/٤٢٢، الجامع لأحكام القرآن ٦/٨٧، الدر المنصور ٤/٢٠٩.

(٨) سورة النحل، الآية: ٣٨.

(٩) ينظر: الإيضاح العضدي ٢٦٨، المسائل العسكرية ١٠٠، معاني الحروف ٤١، أسرار العربية: ٢٧٦، شرح المفصل ٨/٣٢-٣٣، شرح الجمل لابن عصفور ١/٥٢٤-٥٢٥.



الحادي عشر: أن تكون بمعنى «إلى»، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾^(١)، أي: إلي. وقيل^(٢): إن الفعل محمول على التضمين، أي: لطف بي.

الثاني عشر: المقابلة، قال ابن مالك^(٣): «هي الداخلة على الأثمان والأعواض، كقولك: اشتريت الفرس بألف». وتسمى باء العوض ومنه قوله تعالى: ﴿وَشَرَّوْهُ بِشَمْرِ بَجْنٍ﴾^(٤). ويرى بعضهم^(٥) أن هذا المعنى داخل في معنى السببية.



-
- (١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.
 - (٢) ينظر: البحر المحیط: ٣٤٩/٥.
 - (٣) شرح التسهيل ١٥١/٣.
 - (٤) سورة يوسف، الآية: ٢٠.
 - (٥) ينظر: الجنى الداني: ١٠٥.



المبحث الثاني:

الدراسة التطبيقية

١- قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١).

هذا مثل ضربه الله للمنافق بعد أن ذكر الله الأصناف الثلاثة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. وفي الباء في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ قولان:

أحدهما: أنها للتعدي، وهو مذهب أبي حيان، قال رحمه الله: والباء في «بنورهم» للتعدي، وهي إحدى المعاني الأربعة عشر التي تقدم أن الباء تجيء لها ..» (٢).

الثاني: أنها للإلصاق والمصاحبة، وهو المعنى الأصلي للباء، وإلى هذا ذهب كثير (٣) من المفسرين. ففرق بين «ذهب به» و«أذهب»، قال الزمخشري: «والفرق بين «أذهب» و«ذهب به» أن معنى «أذهب» أزاله وجعله ذاهباً،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧.

(٢) البحر المحيط: ١/ ٧٩. وانظر: مغني اللبيب ١/ ١٠٢، الجنى الداني: ١٠٢.

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود ١/ ٥١، التحرير التنوير ١/ ٣١٠.



ويقال: ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه، وذهب

السلطان بماله أخذه ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ ﴾ ، ﴿ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلْمٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ ، ومنه: ذهب به الخيلاء» (١).

والراجح أنها للإلصاق والمصاحبة، وإنما أوثرت الباء على الهمزة في الآية هنا؛ لنكتة بلاغية نشأت من أصل الوضع؛ لأن أصل «ذهب به» أن يدل على أنهما ذهبا متلازمين، فهو أشد في تحقيق ذهاب المصاحب، يزيد هذا إيضاحاً قول الألوسي (٢) : «وعدي بالباء دون الهمزة؛ لما في المثل السائر أن: ذهب بالشيء يفهم منه أنه استصحبه، وأمسكه عن الرجوع إلى الحالة الأولى، ولا كذلك «أذهب». فالباء والهمزة وإن اشتركا في معنى التعدية، فلا يبعد أن ينظر صاحب المعاني إلى معنى الهمزة والباء الأصليين، أعني: الإزالة والمصاحبة والإلصاق، ففي الآية لطف لا ينكر، كيف والفاعل هو الله تعالى القوي العزيز الذي لا راد لما أخذه، ولا مرسل لما أمسكه» (٣).

(١) الكشاف ١/ ٢٠٠.

(٢) هو أبو المعالي محمود شكري بن عبدالله الألوسي. ولد ببغداد سنة ١٢١٧هـ، أخذ العلم عن أبيه وعمه وغيرهما، حمل على أهل البدع في زمانه. توفي سنة ١٢٧٠هـ. له: روح المعاني، وبلوغ الأرب، والفضائل، وغيرها، ينظر: «الأعلام ٧/ ٦٧١، معجم المؤلفين: ٢١/ ٤٩٦١.

(٣) روح المعاني: ١/ ١٦٥-١٦٦.

وللشيخ محمد رشيد رضا ^(١) كلام في دلالة الباء في الآية هنا ، حيث يقول: «وإنما قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ نُورِهِمْ﴾ ، ولم يقل: ذهب نورهم ، أو أذهب الله نورهم؛ للإشعار بأن الله كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدوا النار فأضاءت؛ وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التي فطر الناس عليها ، معتقدين صحة شريعته التي دعا الناس إليها ، وبأنه تخلى عنهم عندما نكبوا تلك السبيل ، وعافوا ذلك المورد السلسبيل. ولا شك أن المستوقد المسترشد تكون له حالة مع الله تعالى مرضية في التوجيه إليه ، وقصد اتباع هداه والاستضاءة بنوره الذي وهبه إياه ، فإذا أعرض عنه ، وكله الله إلى نفسه وذهب بنوره ، وإذا ذهب النور ، لا يبقى إلا الظلمة ، وما كان هؤلاء في ظلمة واحدة ، ولكنها ظلمات بعضها فوق بعض ، متعددة بتعدد أنواع التقاليد التي فتتوا بها ، وبتعدد أنواع الهداية التي أعرضوا عنها» ^(٢) .

٢- قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعَاوَنُونَ﴾ ^(٣) ﴿٤٤﴾

(١) هو محمد رشيد بن علي رضا، البغدادي الأصل. ولد بالشام سنة ١٢٨٢هـ، تنقل في كثير من البلاد، مفسر محدث. توفي سنة ١٣٥٤هـ. له التفسير ولم يكمله، والخلافة والإمامة، والوحي المحمدي، وغيرها، ينظر: «الأعلام ٦/ ٣٦١»، معجم المؤلفين: ٣٠١/٩.

(٢) تفسير المنار: ١/ ١٧١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٢.



هذه الآية خطاب لبني إسرائيل ألا يلبسوا ويشبهوا على الناس الحق بالباطل، حتى يكون الحق ملتبساً مشتبهاً غير واضح، لا يدركه الناس. ولا شك أن الباء لها دلالتها البيانية في الآية، حيث أضفت على الأسلوب دقة وبيانا في إظهار المعنى المراد، وتصوير فعل هؤلاء الذين كان دأبهم إيجاد اللبس وإظهار الشبهة، وإثارته بكل سبيل ومن أي طريق؛ حتى لا يعرف الناس الحق فيتبعوه. وللمفسرين في هذه الباء رأيان:

أحدهما: أن الباء للاستعانة، كقولهم: كتبت بالقلم. كأن المعنى: ولا تجعلوا الحق ملتبساً مشتبهاً غير واضح لا يدركه الناس بسبب باطلكم^(١).

الثاني: أن الباء للإلصاق، كقولك: خلطت الماء باللبن. فكأنهم نهوا عن أن يخلطوا الحق بالباطل^(٢).

والذي أراه جواز المعنيين معاً في الباء هنا، فهم قد خلطوا الحق بالباطل وشبهوا على الناس، حتى كان الحق غير واضح مستعينين بباطلهم وإفكهم.

٣- قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾^(٣)

(١) ينظر الكشاف ١/ ٢٧٧، تفسير أبي السعود ١/ ٩٦، روح المعاني: ١/ ٢٤٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ١/ ١٧٩، روح المعاني: ١/ ٢٤٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٠.

في هذه الآية يمتن الله على بني إسرائيل قوم موسى أن أنجاهم من فرعون حين اضطرهم للبحر، فانطلق لهم بعد ضرب موسى إياه بعصاه، فسلكوا فيه حتى نجوا، ثم لحقهم فرعون بجنوده، فأغرقهم الله في البحر عن مشاهدة منهم ونظر لما كان. وللباء في قوله: «بكم» دلالتها البيانية، مما يدل على بلاغة النظم الحكيم. وللمفسرين في معنى الباء هنا قولان:

أحدهما: الملابسة والإلصاق، وفي ذلك إحياء بعظيم قدرة الله تعالى وبالغ فضله على بني إسرائيل، حيث فرق بهم البحر وهم ملاصقون له، متلبسون بمصدر الهلاك الذي أودى بعدوهم، فأنجاهم وأغرق عدوهم وهم منه قريب، كما يصور ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾. والجار والمجرور ظرف مستقر واقع موقع الحال من الفاعل، أي: أن الله كان ناصراً حافظاً لهم، وهو ما أشار إليه موسى - عليه السلام - بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^{(١)(٢)}.

(١) سورة الشعراء، الآية: ٦٢.

(٢) ينظر: الكشاف ١/ ٢٨٠، روح المعاني: ١/ ٢٥٥.



وقد أبان ابن عاشور^(١) معنى الملابس هنا بقوله: «والباء في (بكم) للملابسة، كما في طارت به العنقاء، وعدا به الفرس، أي: كان فرق البحر ملابساً لكم، والمراد من الملابس أنه يفرق وهم يدخلونه، فكان الفرق حاصلًا بجانبهم»^(٢).

الثاني: السببية، قال الزمخشري مبيناً ذلك: «فإن قلت: ما معنى بكم؟ قلت: فيه أوجه: أن يراد أنهم كانوا يسلكونه ويتفرق الماء عند سلوكهم، فكأنما فرق بهم، كما يفرق بين الشئيين بما يوسط بينهما»^(٣)، وفي هذا استعارة تبعية بأن شُبه سلوكهم بالآلة في كونه واسطة في حصول الفرق من الله تعالى^(٤).

٤- قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُئِمَتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾^(٥).

-
- (١) هو محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عاشور. تولى القضاء والفتيا بتونس، وبها توفي سنة ١٣٩٣هـ. له: تفسير التحرير والتنوير، وهدية الأريب، وحاشية على المحلى، وغيرها. ينظر: «الأعلام ٦/ ١٧٤، معجم المؤلفين: ١٠/ ١٠٢.
- (٢) التحرير والتنوير: ١/ ٤٩٤.
- (٣) الكشاف ١/ ٢٨٠. وانظر: تفسير أبي السعود ١/ ١٠٠.
- (٤) ينظر: روح المعاني: ١/ ٢٥٥.
- (٥) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

الفعل «أمن» يتعدى بالباء و«على»^(١) ، ومنه هذه الآية، قال الطبري^(٢) : «والباء في قوله: «بدينار» و«على» يتعاقبان في هذا الموضع، كما يقال: مررت به، ومررت عليه»^(٣) .
 وإلى هذا ذهب الأخفش^(٤) وأبو حيان^(٥) والآلوسي^(٦) ، وغيرهم ممن يرى أن فعل «أمن» يتعدى بالباء، ويتعدى ب«على»، وقد بين الفخر الرازي^(٧) وجه صحة التعدية بالحرفين في الآية، فقال: «يقال: أمنته بكذا، وعلى كذا، كما يقال: مررت به وعليه، فمعنى الباء إصاق الأمانة، ومعنى «على» استعلاء الأمانة، فمن أؤتمن على شيء، فقد صار ذلك الشيء في معنى الملتصق به؛ لقربه منه واتصاله بحفظه وحياطته، وأيضاً صار المودع كالمستعلي على

-
- (١) ينظر: معجم الأفعال المتعدية بحرف ١٠.
 (٢) هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، المفسر المحدث المؤرخ. رحل في طلب العلم، واستوطن بغداد، وبها توفي سنة ٣١٠هـ. له: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وتاريخ الأمم والملوك، وتهذيب الآثار. ينظر: تاريخ بغداد ١/٢، وفيات الأعيان: ٤/١٩١، غاية النهاية: ٢/١٠٦.
 (٣) تفسير الطبري: ٣/٢٢٦.
 (٤) ينظر: معاني القرآن: ١/٢٠٨.
 (٥) ينظر: البحر المحيط: ٢/٥٠٠.
 (٦) ينظر: روح المعاني: ٣/٢٠٢.
 (٧) هو أبو عبدالله محمد بن عمر المعروف بـ«الفخر الرازي»، و«ابن خطيب الري». مفسر متكلم، توفي سنة ٦٠٦هـ. له: مفاتيح الغيب في تفسير القرآن، وشرح الوجيز، والسر المكتوم، وغيرها. ينظر: «الوافي بالوفيات ٤/٤٨»، النجوم الزاهر: ٦/١٩٧، شذرات الذهب: ٥/٢١١.

تلك الأمانة والمستولي عليها، فلهذا حسن التعبير عن هذا المعنى بكلمتا العبارتين»^(١).

ولكن ما السر البلاغي في إثارة الباء هنا على «على»؟

بعد تتبع فعل «أمن» المتعدي بـ«على» في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿هَلْ ءَأْمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَأْمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾^(٣)، وبعد إنعام النظر في الآيتين، نجد المؤمن عليه فيهما إنساناً عاقلاً يملك حرية الإرادة والتصرف، والأمانة عليه تعني الإشراف عليه والحفظ من غوائل الشر ويد السوء، و«على» بحكم معناها ترمز إلى استعلاء المؤمن بقوته، فهم إخوته وأكبر سناً وأحرص على أخيهم الذي استأمنهم أبوهم عليه.

أما تعدية الفعل بالباء في قوله: ﴿تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ﴾ .. الآية، فقد جاءت في سياق لا يخشى فيه على المؤمن من عدوان خارجي يتطلب إشراف المؤمن، واستعلاءه بقوته وفكره؛ دفاعاً عما أؤتمن عليه، وإنما هو موضع يخشى فيه على الأمانة من المؤمن نفسه؛ لقربه منها والتصاقه بها، وتمكنه من حيازتها لنفسه^(٤).

(١) التفسير الكبير: ١١١/٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١١.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٦٤.

(٤) ينظر: من أسرار حروف الجر ١٨١-١٨١.

٥- قال تعالى: ﴿وَرَبِّبْتُكُمْ أَلْتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ أَلْتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ (١).

اشتملت هذه الآية على من يحرم تزوجهن من النساء، ومن هؤلاء: الربيبة، وهي ابنة الزوجة المدخول بها، والإسلام يحث أبناءه على الحياء، واستعمال الكنايات الرفيعة عن بعض ما لا يصرح بذكره ويستهجن إيضاحه.

وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة أمثلة رائعة على ذلك؛ لتكون مثلاً يحتذى، ونبراساً يقتدى به ويسار على ضوئه. ومن ذلك هذه الآية، فقد أعانت الباء على تحقيق الكناية عن الجماع في «دخلتم بهن»، كما قدرها الزمخشري بقوله: «أي: أدخلتموهن الستر» (٢).

إلى جانب بيانها البلاغي في معنى اللصوق والارتباط والقرب بين الزوجين، مما يحقق الغاية من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣) (٤).

٦- قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (٥).

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٢) الكشاف ٥١٧/١.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٤) ينظر تفسير أبي السعود: ١٦٢/٢، روح المعاني: ٢٥٨/٤.

(٥) سورة النساء، الآية: ٣٦.



«أحسن» يتعدى في لغة العرب بالباء واللام وإلى ^(١)، وفي كل حرف لطائف بيانية ونكات بلاغية تضي على الأسلوب الذي جاءت فيه قوة وبيانا، ودقة في إبراز المعنى وإيضاحه، ما لا يتأتى في تعديته بالحرف الآخر.

و«إحساناً» مصدر منصوب بفعل محذوف، التقدير: وأحسنوا بالوالدين إحساناً.

وفي إثارة الباء هنا في الآية معنى دقيق يلح إلى قرب المحسن من المحسن إليه، وحب له ومصاحبته ولصوقه به بإحسانه، دون إشعاره بذلك الإحسان، يبين هذا المعنى قول الشيخ محمد رشيد رضا: يقال: «أحسن به، وأحسن له وأحسن إليه وقيل: إذا تعدى الإحسان بالباء يكون متضمناً لمعنى اللطف، وعندى أن التعدية بالباء أبلغ؛ لإشعارها بالصاق الإحسان بمن يوجه إليه من غير إشعاره بالفرق بينه وبين المحسن، والتعدية بـ«إلى» تشعر بطرفين متباعدين يصل الإحسان من أحدهما إلى الآخر» ^(٢).

فالإحسان في الآية متضمن معنى البر بالوالدين بجميع معاني البر من حيث التوقير والإكرام والاحترام، وغير ذلك ^(٣).

(١) ينظر: معجم الأفعال المتعدية بحرف ٥٤-٥٥.

(٢) ينظر: تفسير المنار ٨٤/٥.

(٣) ينظر: روح المعاني: ٢٨/٥، التحرير والتنوير: ٤٩/٥.



٧- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (١).

ذهب الزجاجي (٢) وأبو حيان (٣) وغيرهما إلى أن الباء في قوله: «لو تسوى بهم الأرض»، بمعنى «على»، أي: لو تسوى عليهم الأرض، لكن المبالغة التي تؤديها الباء من معنى اللصوق والمصاحبة والاختلاط تذهب حينئذ؛ لأن القرآن يهدف إلى تصوير ما يراه الكافرون يوم القيامة من أهوال، وما يتكشف لهم من سوء العذاب يجعلهم يتمنون أن يكونوا تراباً يتداخل مع تراب الأرض ويختلط به، حتى لا يكون لهم أثر يدل عليهم. وهو ما صرح به القرآن في موضع آخر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٤)، وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين (٥)، وزاد بعضهم: يودون أنهم لم يبعثوا، وقيل: تصير البهائم تراباً فيودون حالها (٦).

٨- قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا﴾

(١) سورة النساء، الآية: ٤٢.

(٢) ينظر: حروف المعاني: ٨٦.

(٣) ينظر: البحر المحيط: ٢٥٣/٣.

(٤) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

(٥) ينظر: الكشاف ١/٥٢٨، تفسير أبي السعود ٢/١٧٨، روح المعاني: ٣٤/٥.

(٦) ينظر: المصادر السابقة.

بِهِ وَتَوَرَّدُوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَالَّتِ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴿١﴾

في هذه الآية تصوير لحال الذين يروجون الإشاعات، ويختلقون الأكاذيب، زعزعة للأمن، وإضراراً لنار الفتنة، وإثارة للبلبلة بين الناس، وهذا حالهم في كل زمان ومكان، كفى الله المسلمين شرورهم.

وقد ذهب أبو عبيدة ^(٢) إلى أن الباء في قوله «أذاعوا به» زائدة، حيث قال: «أذاعوا به: أفضوه، معناها: أذاعوه» ^(٣).

لكن لو جعلت الباء زائدة في الآية، لأفادت أن فعلهم هو نشر الأخبار بين المسلمين دون أن يكون فيها تلك المبالغة من حرصهم ومتابعتهم بأنفسهم لها، وهذا ما تفيده الباء إذا قلنا: إنها تفيد للصوصق والمصاحبة، كما هو رأي آخرين من المفسرين ^(٤).

فالآية تصور إسهام هؤلاء في نشر الشائعات، وإثارة الفتنة بين المسلمين، وقد أفادت الباء حرصهم البالغ على استصحاب الأخبار

(١) سورة النساء، الآية: ٨٣.

(٢) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري، عالم بالشعر والغريب والأخبار والأنساب، أخذ عن يونس وأبي عمرو. توفي بالبصر سنة ٢٠٩هـ. له: مجاز القرآن ونقائض جرير والفرزدق، وغيرها. ينظر: «تاريخ بغداد ٣١/٣٥٢، وفيات والأعيان ٥/٢٣٥، بغية الوعاة: ٢/٢٩٤».

(٣) مجاز القرآن: ١/١٣٣.

(٤) ينظر: الكشاف ١/٥٤٨، تفسير أبي السعود: ٢/٢٠٨، روح المعاني: ٥/٩٤، التحرير والتنوير ٥/١٣٩.



المثيرة، وأبرزت لنا توليهم بأنفسهم إيصالها إلى جموع المسلمين وترويجهم لها، والتزامهم إياها وتعاهدتها بالمتابعة حتى تحقق أهدافها.

٩- قال تعالى: ﴿ وَكَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا ﴾ (١).

استشهد العزبن عبدالسلام (٢) بهذه الآية على إفادة الباء إلصاق المعنى بالمعنى، حيث قال: «الثالث: إلصاق المعنى بالمعنى، كقوله: «النفس بالنفس والعين بالعين»، أي: النفس مقتولة بقتل النفس، والعين مفقوءة بفقء العين، أتى بالباء ليكون المسبب وهو القصاص منسوباً إلى الجنابة نسبة السببية، فأشبهه لذلك الإلصاق الحقيقي» (٣).

وإلصاق يوحي أن القرآن قصد التخويف وشدة الزجر؛ بغية منع الناس من الإقدام على القتل، منذراً بسرعة العقوبة وتعجيل القصاص قبل أن تجف الدماء، وكأن نفس القاتل مرهونة مقيدة بنفس القتيل، وإقدامه على قتل غيره بمثابة إقدامه على قتل نفسه،

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٢) هو عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمي الدمشقي، إمام في الفقه والأصول على مذهب الشافعي. توفي بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ. له: القواعد الكبرى في أصول الفقه، وتفسير القرآن، وغيرهما، ينظر: النجوم الزاهرة: ٢٠٨/٧، شذرات الذهب: ٣٠١/٥.

(٣) الإشارة إلى الإيجاز: ٢٥٠.



وهذا معنى إصااق نفس القاتل بنفس من قتله، ومثله القصاص في الجوارح الأخرى، فلا يقدم من تعز عليه عينه على فقاء عين غيره، وهكذا (١).

وذهب ابن عاشور إلى أن الباء للعووض، أي: إن النفس المقتولة تعوض بنفس القاتل (٢).

١٠- قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٣).

دلائل قدرة الله وآياته كثيرة، فكل ما في الوجود ينطق بوحدانيته ويشهد بألوهيته، ومن ذلك الفطرة السليمة التي لم تصبها لومة الشراك، ولم تحرفها شياطين الإنس والجن، فالله سبحانه خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، لكن الكافرين أشركوا مع الله غيره وساووه به.

والباء في قوله: «بربهم»، إما بمعنى «عن»، أي: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون إلى عبادة غيره شركاً معه سبحانه (٤). وإما أن تكون الباء للتسوية، وهو وارد عن العرب كما في لسان العرب

(١) ينظر: من أسرار حروف الجر: ١٦٦-١٦٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٦/٢١٤..

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١.

(٤) ينظر: تفسير الخازن: ١١٧/٢.

«عدلت الشيء بالشيء، أعدله عدولاً: إذا ساويته به»^(١)، فالمعنى: أن المشركين ساووا بين الخالق والمخلوق، بين الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وبين من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون. ولهذا كانت الباء بمعنى التسوية أبلغ من كونها بمعنى «عن».

وللشيخ محمد رشيد رضا لفظة بلاغية في العطف بـ«ثم» في الآية، حيث قال: «وقد عطف بـ«ثم» الدالة على بعد ما بين مدلولي المعطوف والمعطوف عليه؛ لإفادة استبعاد ما فعله الكافرون، وكونه ضد ما كان يجب عليهم للإله الحقيقي بجميع المحامد؛ لكونه هو الخالق لجميع الكون العلوي والسفلي ..»^(٢).

١١- قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَنفَرَكُمْ يَكُومَ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣)

هذه هي الوصية العاشرة لهذه الأمة بسلوك صراط الله المستقيم وترك التفرق واتباع السبل الأخرى الضالة، وقد ذكر ابن القيم أن الصراط جاء مفرداً معرفاً، إما باللام أو بالإضافة؛ وذلك يفيد تعيينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، أما طرق المغضوب عليهم وأهل

(١) لسان العرب: ٤٣٢/١١.

(٢) تفسير المنار: ٢٥٩/٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.



الضلال، فإنه سبحانه يجمعها؛ وذلك لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه لا يصل إليه أحد إلا من هذا الطريق، فكل باب مغلق وكل طريق مسدود إلا هذا الطريق^(١).

فالحق واحد، والباطل ما خالفه، وهو كثير متنوع^(٢) وإسناد هذا التفرق إلى السبل، وتعدية الفعل بالباء «تتفرق بكم» التي تفيد الإلصاق والمصاحبة، يدل على أن السبل في ذاتها متفرقة ضالة، لا تلتقي على وجه من الحق، فالسالك يظل حائراً تائهاً تتجاذبه الأهواء وتتنازعه الاتجاهات وهذا ما لا يؤديه الفعل لو تعدى بنفسه، إذ لو قيل: فتفرقكم السبل، لكان المعنى أن هذه السبل تضل السالكين وتبعدهم عن سبيل الله، وهذا ليس بقوة المعنى ودقته التي جاءت به باء الإلصاق والمصاحبة.

يقول ابن عاشور: والباء في قوله: «بكم» للمصاحبة، أي: فتتفرق السبل مصاحبة لكم، أي: تتفرقون مع تفرقها، وهذه المصاحبة المجازية تجعل الباء بمنزلة همزة التعدية، فيكون المعنى: فتتفرقكم عن سبيله، أي: لا تلاقون سبيله»^(٣).

(١) ينظر: مدارج السالكين: ١٤/١-١٥.

(٢) ينظر: تفسير المنار: ٨/١٩٥.

(٣) التحرير والتنوير: ٨/١٧٣، وانظر: روح المعاني: ٨/٥٧.

١٢- قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ
وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّنْ ءَامَنَ﴾^(١).

هذه الآية خطاب من شعيب - عليه السلام - لقومه الذين كانوا يرتكبون جمعاً من الجرائم والفعال القبيحة، ومن ذلك: قطع الطريق، وأخذ الضرائب والمكوس على المسافرين، ونهب أموالهم وبضائعهم دون حق أو سبيل، مستغلين ضعفهم وقتلتهم وعدم استعدادهم للقائهم.

وقد أجاز الشيخ ابن عاشور أن تكون الباء في قوله: «بكل صراط» بمعنى «في»، حيث يرى أن الباء إذا دخلت على أسماء المنازل كانت بمعنى «في»، كقول الشاعر^(٢):

فما نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أي: في سقط اللوى. والمعنى في الآية: ولا تقعدوا في كل صراط^(٣).

وذهب بعض المفسرين^(٤) إلى أن الباء هنا بمعنى «على» والمعنى: لا تقعدوا على كل صراط.

والأقرب - والله أعلم - أن الباء هنا على معناها الأصلي، وهو

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٦.

(٢) قائله: امرؤ القيس. ينظر: ديوانه ٨، الكتاب: ٢/٢٠٥، خزنة الأدب: ٤/٣٩٧.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٨/٢٤٦.

(٤) ينظر: تفسير البيان: ٤/٤٤٦، جمع البيان: ٤/٤٥٥.

الإلصاق، حيث تصور لنا الباء هنا التريص وطول المكث بالطرقات انتظاراً للمارين، وإصراراً على صدهم عن سبيل الله، فهم مقيمون على الدوام، ملازمون تلك الطرق، وفي ذلك من المبالغة في حرصهم على قطع الطريق وإيذاء المارة، وصد الناس عن الهدى والحق ما لا يتأتى إلا بالباء.

١٣- قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْرِبِينَ﴾ (١).

أصاب المسلمين شدة وبلاء في غزوة حنين لما أعجبوا بكثرتهم، حتى قال قائلهم: لن نغلب اليوم من قلة، فحصلت الهزيمة لهم في أول المعركة وصور القرآن حالتهم تلك من ضيق الأرض بعد سعتها، ثم فرارهم عن أرض المعركة، وتولية الأعداء أدبارهم.

وقد ذهب الفراء (٢) والطبري (٣) إلى أن الباء في قوله:

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ بمنزلة «يف»، كما

تقول: ضاقت عليكم في رحبها وبرحبها، أي: سعتها.

وذهب أكثر المفسرين (٤) إلى أن الباء للملابسة بمعنى «مع»

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

(٢) ينظر: معاني القرآن: ٤٣٠/١.

(٣) ينظر: جامع البيان: ٧٠/١٠.

(٤) ينظر: الكشاف: ١٨٢/٢، تفسير أبي السعود ٥٥/٤، التحرير والتنوير: ١٥٧/١٠.

«ما» مصدرية، أي: ملتبسة برحبها، على أن الجار والمجرور في موضع الحال كما تقول: دخلت عليه بثياب السفر، أي: ملتبساً بها لم أحلها، والمعنى: أنكم لا تجدون موضعاً تستصلحونه لهريكم ونجاتكم لفرط الرعب فكأنما ضاقت عليكم.

ويرى الألوسي أن في هذا الكلام استعارة تبعية، إما لعدم وجدان مكان يقرون به مطمئنين، أو أنهم لا يجلسون في مكان، كما لا يجلسون في المكان الضيق^(١).

١٤- قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾^(٢).

جاء الفعل رغب متعدياً تارة بإلى، وتارة بفي، وتارة بعن وهو في تعديته بأحد هذه الحروف له دلالة مغايرة لدلالة تعديه بالحرف الآخر، وفي كل حالة من هذه الحالات سر بلاغي وإعجاز بياني.

يقول الراغب الأصفهاني - معدداً بعض معاني الفعل رغب: «أصل الرغبة السعة في الشيء .. فإذا قيل: رغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾^(٣)، وإذا قيل: رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه، نحو قوله تعالى:

(١) ينظر: روح المعاني: ٧٤/١٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٩.

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾^(١) ، وقوله: ﴿ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي ﴾^{(٢)(٣)}

إن الحروف التي تعدى بها الفعل رغب هي التي أفادت هذه المعاني المتغايرة، وكان لموقعها في السياق نكتته البلاغية وسره البياني، فحين عدي الفعل رغب بفي الظرفية التي تقتضي أن المرغوب احتوى الرغبة كما يحتوي الظرف المظروف دل ذلك على معنى الحرص كأنه أفرغ كل رغبته فيه، وحين عدي الفعل بـ(إلى) الدالة على انتهاء الغاية أفاد انصراف الراغب إلى مرغوبه وتوجهه إليه وانصرافه عما عداه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ وحين عدي الفعل بـ«عن» الدالة على المجاورة أفاد الفعل هنا الانصراف عن الشيء وتجاوزه كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، وقوله: ﴿ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي ﴾^(٤) .

وفي موضع آخر عدي الفعل رغب بعن مع وجود الباء التي تفيد الإلصاق والملابسة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِمْ ﴾ فدل على البخل بالنفس وعدم التفريط فيها؛ لأن إلصاق الرغبة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٠ .

(٢) سورة مريم، الآية: ٤٦ .

(٣) المفردات: ١٩٨، وانظر: معجم الأفعال المتعدية بحرف ١٣٠ .

(٤) ينظر: من أسرار حروف الجر، ص ٨ .

بالأنفس يدل على شدة الارتباط بها والضمن بها على الآخرين، وعدم الانفكاك عنها بأي حال من الأحوال، مع أن الواجب - كما في الآية - أن يكونوا مع رسول الله ﷺ يجاهدون في سبيل الله ويكابدون معه الشدائد والأهوال، ولا ينصرفون عنه ويتجاوزونه إلى الاهتمام بأنفسهم والعناية بها.

يقول الزمخشري: «أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يُلْقُوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علماً بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولا يكثر لها أصحابها ولا يقيموا لها وزناً، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يريؤوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه» (١).

ويزيد ابن عاشور هذا المعنى إيضاحاً فيقول: «أريد برغبتهم عن نفسه محبتهم أنفسهم وحرصهم على سلامتها، دون الحرص على سلامة نفس الرسول ﷺ، فكأنهم رغبوا عن نفسه؛ إذ لم يخرجوا معه ملابسين لأنفسهم، أي: محتفظين بها؛ لأنهم بمقدار من يتخلف منهم يزداد تعرض نفس الرسول من التلف قريباً ..» (٢).

(١) الكشاف ٢/٢٢٠.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٥٦/١١.

١٥- قال تعالى: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ ﴾ (١).

الفعل (سمع) يتعدى إلى مفعوله بنفسه فيفيد معنى إدراك الأصوات، ويتعدى بحروف الجر وهي: من، عن، اللام، إلى، الباء، وفي تعديته بكل حرف من هذه الحروف معاني وأغراض لا تكون في تعديته بحرف آخر، وهذا الأمر يحتاج إلى دقة وتأن في إدراك أسرار هذه التعدية وما ترتب عليها من اختلاف دلالة التراكيب.

وقد أشار إلى ما أفاده الفعل (سمع) حين تعديته بأحد هذه الأحرف من المعاني العلماء والمفسرون، من ذلك قول الخطابي: «إذا قلت: سمعت منه كلاماً، أردت سماعه من فيه، وإذا قلت: سمعت عنه علماً، كان ذلك من بلاغ» (٢).

وقال الزمخشري: «فإن قلت: أي فرق بين سمعت فلاناً يتحدث وسمعت إليه يتحدث، وسمعت حديثه وإلى حديثه؟ قلت: المعنى بنفسه يفيد الإدراك، والمعنى بيلى يفيد الإصغاء مع الإدراك» (٣)، فلما تعدى الفعل «سمع» بيلى أفاد حسن الإصغاء لما في (إلى) من معنى التوجه إلى الشيء والقصد إليه.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.

(٢) بيان إعجاز القرآن: ٣٢.

(٣) الكشاف: ٣/٣٣٦.



وحين يتعدى الفعل «سمع» باللام يكتسب من معنى الاختصاص باللام إثارة المسموع واختصاصه بالقبول والتسليم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾^(١)، مع ما دلت عليه صيغة الافعال من المبالغة في الفعل، مما يوجب هذا العمل بما فيه وعدم تجاوزه إلى غيره^(٢).

أما تعديته بالباء في قوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ فقد كشفت الباء بما تدل عليه من معنى المصاحبة والملابسة عما تكنه نفوس المشركين من مكر واستخفاف، واستهزاء وسخرية وما يكيّدون ويدبرون ضد الإسلام ورسول الإسلام ﷺ بعد تظاهرهم بالاستماع لآيات القرآن الكريم.

قال ابن عطية: «هذا كما تقول: فلان يستمع بحرص وإقبال.. فالضمير في به عائد على ما، وهي بمعنى الذي، والمراد بالذي ما ذكرناه من الاستخفاف والإعراض فكأنه قال: نحن أعلم بالاستخفاف والاستهزاء الذي يستمعون به، أي: هو ملازمهم، ففضح الله بهذه الآية سرهم»^(٣).

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٢) ينظر: روح المعاني: ١٥٠/٩، تفسير المنار: ٢٣٨-٢٣٩، من أسرار حروف الجر:

٩.

(٣) المحرر الوجيز: ٣٠٢/١٠.



ونقل أبو حيان عن الحوي في^(١) السبب في تعدية الفعل سمع بالباء والعدول عن تعديته بنفسه فقال: «وقال الحوي: لم يقل يستمعونه ولا يستمعونك، لما كان الغرض ليس الإخبار عن الاستماع فقط، وكان مضمناً أن الاستماع كان على طريق الهزء بأن يقولوا: مجنون أو مسحور جاء الاستماع بالباء وإلى؛ ليعلم أن الاستماع ليس المراد به تفهم المسموع دون هذا المقصد»^(٢).

١٦ - قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾^(٣).

هذه الآية مشتملة على تعداد يوسف - عليه السلام - ممن الله ونعمه عليه، ومنها إخراجة من السجن بعد أن لبث فيه بضع سنين، ثم كان له ما قصه الله عز وجل في القرآن الكريم.

وقد سبق القول بأن الفعل «أحسن» يتعدى بالباء واللام وإلى، وفي تعديته بأحد هذه الحروف نكتة بلاغية وسر جمالي، ف«أحسن» هنا متضمن معنى «لطف»، وهو الإحسان الخفي، والباء للملابسة،

(١) أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد بن يوسف الحوي، محوي مصري مفسر، تتلمذ عليه خلق كثير، توفي سنة ٤٣٠هـ. له: البرهان في تفسير القرآن، الموضح في النحو، الإرشاد، وغيرها. ينظر: أنباه الرواة: ٢/٢١٩، معجم الأدباء: ١٢/٢٢١، بغية الوعاة: ٢/١٤٠.

(٢) البحر المحيط: ٦/٤٣، وانظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٥/١٢٠.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.



أي: من لطفه أن جعل إحسانه ملابساً لي، يدل على ذلك ما بعده^(١)، وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ . وللزركشي لفظة دقيقة في سر الإتيان بالباء في الآية، حيث يقول: «فإنه يقال: أحسن بي وإلي، وهي مختلفة المعاني، وأليقها بيوسف - عليه السلام - «بي»؛ لأنه إحسان درج فيه دون أن يقصد الغاية التي صار إليها»^(٢) .

١٧ - قال تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِينًا﴾^(٣) .

هذه الآية خطاب لمريم - عليها السلام - من ابنها عيسى - عليه السلام - لما وضعته، وقد كانت في كرب وشدة وألم، أمرها بأن تهز جذع نخلة عندها لتأكل من رطبها ما تتبلغ به ويعينها على ما هي فيه.

وفعل «هز» يتعدى بنفسه إلى مفعوله ويتعدى بالباء^(٤) ، كما نقل ذلك الفراء عن العرب أنهم قالوا: «هزه وهز به، وأخذ الخطام

(١) ينظر: تفسير أبي السعود: ٣٠٧/٤، التحرير والتنوير: ٥٧/١٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١٧٦/٤ .

(٣) سورة مريم، الآية: ٢٥ .

(٤) ينظر: معجم الأفعال المتعدية بحرف: ٤١١ .



وأخذ بالخطام»^(١). لكن ما السر في تعدية الفعل هنا بالباء؟ ذهب كثير من المفسرين^(٢) إلى أن الباء هنا صلة للتوكيد، وزاد بعضهم أنها للصوق الفعل بمفعوله، أي: افعلي الهز بجذعها، وفي ذلك إرشاد لمريم - عليها السلام - أن تباشر الهز بنفسها ممسكة بالجذع ملتصقة به ليكون أقوى وأعون على الهز، دون ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن من رميه بحجر ونحوه مما يتخذها الناس وسائل لإسقاط الرطب، وقد ذهب الألوسي إلى أن الباء هنا للآلة، مثل قولك: كتب بالقلم^(٣).

١٨- قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا

﴾^(٤)

هذه الآية تكشف لنا عن أهوال يوم القيامة، وتعطي صورة من صور كمال قدرة الله على كل شيء، حيث تتبدل الأرض غير الأرض، وانشقاق السماء، وتكوير الشمس، وانكدار النجوم، وغير ذلك مما يكون يوم القيامة من الأهوال والعظائم.

وللمفسرين في الباء في قوله: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ ﴾ ثلاثة

أقوال:

(١) معاني القرآن: ١٦٥ / ٢.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود ٢٦٢ / ٥، التحرير والتنوير: ٨٨ / ١٦.

(٣) ينظر روح المعاني: ٨٤ / ١٦.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٥.

أحدها: أن الباء بمعنى «عن»، أي: عن الغمام، والباء و«عن» يتعاقبان، كما تقول: رميت بالقوس وعن القوس، وإليه ذهب الفراء^(١) والقرطبي^(٢).

الثاني: أن الباء للسببية، أي: تشقق السماء بسبب طلوع الغمام، الذي جعل الله فيه قوة تنشق بها السماء لتنزل الملائكة، ولا مانع أن تُشقق به كما يشق السنام بالشفرة، والله تعالى على كل شيء قدير، وإلى هذا ذهب أبو السعود^(٣) والآلوسي^(٤).

الثالث: أن الباء للملابسة، أي: تشقق السماء ملابسة للغمام الذي يظهر متدافعاً متدفقاً غزيراً، فيشقها تمهيداً

(١) ينظر: معاني القرآن: ٢٦٧/٢.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٣/١٣. والقرطبي: هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي المالكي، من المفسرين الفقهاء. توفي بمصر سنة ٦٧١هـ. له: الجامع لأحكام القرآن، الأسنى في أسماء الله الحسنى، وغيرهما، ينظر: «شذرات الذهب»: ٣٣٣/٥، الديباج المذهب: ٣١٧.

(٣) ينظر تفسير أبي السعود: ٣١٢/٦. وأبو السعود: هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، مفسر فقيه، ولي قضاء القسطنطينية، ثم الفتيا. توفي سنة ٩٨٢هـ. له: إرشاد العقل السليم «تفسيره»، وبضاعة القاضي في الصكوك، وغيرهما، ينظر: «البدر الطالع»: ٢٦١/١، شذرات الذهب: ٣٩٨/٨.

(٤) ينظر: روح المعاني: ٩/١٩.



لإزالة صورتها وتغيير خلقها، وهو رأي بعض المفسرين (١).

فهذا القول هو الأول نفسه، إلا أنه أضيف إليه معنى الملابس الذي أفادته الباء مع السببية؛ لأنها هي التي تحقق الغرض من شدة الغمام واندفاعه، فهو والحالة هذه ملاصق للسماء، وإلى هذا المعنى الدقيق يشير الزمخشري بقوله: «فإن قلت: أي فرق بين قولك: انشقت الأرض بالنبات وانشقت عن النبات؟ قلت: معنى انشقت به: أن الله شقها بطلوعها فانشقت به، ومعنى انشقت عنه: أن التربة ارتفعت عنه عند طلوعه، والمعنى أن السماء تتفتح بغمام يخرج منها» (٢).

١٩- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧٢) (٣).

هذه الآية في ذكر صفات عباد الرحمن الحميدة وخلالهم الكريمة وشمائلهم الرفيعة، ومن ذلك إعراضهم عن اللغو، وهو ما ينبغي أن يلغى وي طرح مما لا خير فيه، وكذا مجالسه وأهله، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه.

وللباء في الآية دلالتها الدقيقة ولطيفتها البلاغية مما لا يقوم به

(١) ينظر: روح المعاني: ٩/١٩، التحرير والتنوير: ١٠/١٩.

(٢) الكشاف: ٨٩/٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.



أي حرف سواها؛ لأن الإنسان في هذه الحياة يعيش مع الناس ويخالطهم، وعباد الرحمن أهل ثبات وقوة يقين، بحيث يستطيعون المحافظة على نزاهة ألسنتهم وسمعهم وقلوبهم من اللغو، مهما التصق بهم اللاغون واقترب منهم العابثون، وذلك أبلغ في مدحهم والثناء عليهم^(١).

وللشيخ ابن عاشور لفظة رائعة في الآية، حيث يقول: «ومعنى المرور به: المرور بأصحابه اللاغين في حال لغوهم، فجعل المرور بنفس اللغو للإشارة إلى أن أصحاب اللغو متلبسون به وقت المرور»^(٢).

وإذا ضُم هذا إلى إفادة الباء اللصوق والمصاحبة، كان أقوى في بيان المعنى ودقته، فالحياة معترك يختلط فيه المؤمن مع غيره، وقد يُفرض عليه ما لا يهواه، لكن كمال الإيمان في أن يظل المسلم ثابتاً على مبدئه متمسكاً بعقيدته وثوابته، ولو أحاطت به الفتن، وانتشر من حوله الباطل.

٢٠- قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾^(٣).

أنزل الله القرآن الكريم نوراً وهدى ونبراساً يقتدى به، أحيا الله به قلوباً موتى، وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً، أفضل

(١) ينظر: تفسير أبي السعود: ٦/ ٢٣٠، روح المعاني: ١٩/ ١٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٧٩/ ١٠.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٩٣.



الكتب، نزل به جبريل على مصطفى الخلق ومجتبى الرسل محمد ﷺ.

وفي إتيان الباء هنا في الآية مغزى دقيق وسر بديع، حيث دلت باء المصاحبة على استصحاب جبريل - عليه السلام - لما نزل به، وفي ذلك دلالة التكريم والاحتراف بالمنزل ومن أنزل عليه، وكذا الرسول به جبريل - عليه السلام - الموصوف بـ«الروح الأمين»، وإلى معنى المصاحبة في الباء، ذهب ابن عطية^(١) وأبو حيان^(٢) والآلوسي^(٣)، وجعلوا الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، أي: مصاحباً له، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ﴾^(٤)، وذهب أبو السعود^(٥) إلى أن الباء زائدة، أي: أنزله، ولا أرى للزيادة هنا معنى، فالأرجح ما ذكره السابقون.

٢١- قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِّ مُوسَىٰ فَتْرِئًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَّٰ قَلْبِهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦).

هذه الآية تصور لنا بجلاء حال أم موسى وما يعتمل في قلبها من

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٧٩/١٢.

(٢) ينظر البحر المحيط: ٤٠/٧.

(٣) ينظر روح المعاني: ١٢٠/١٩.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦١.

(٥) ينظر: تفسير أبي السعود: ٢٤٣/٦.

(٦) سورة القصص، الآية: ١٠.



ظنون، وما يتجاذبها من هواجس متباينة بين مصير ابنها المجهول في اليم، وتربص فرعون بأولاد بني إسرائيل لقتلهم في تلك السنة، ثم نتيجة ذلك ما كان في أعماق هذه الأم المفجوعة من الخوف على صغيرها.

وللمفسرين في الباء في قوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ قولان:

أحدهما: أن الباء للسببية، أي: تبدي حقيقة الحال بسببه، أي: بسبب ما عراها من فراقه (١).

الثاني: أنها زائدة لتأكيد لصوق المفعول بفعله (٢)، فللباء هنا دلالتها على شدة الارتباط بين الأم وابنها وتعلق قلبها به، وهي حين اشتد بها الهلع وأوشكت على إظهار أمره، فإنها بنفسها تبدي وبمصيرها المرتبط بمصير ولدها تتحدث، كل هذه المعاني لا يمكن تأديتها إلا بالباء التي خلعت على النظم القرآني من معاني الارتباط الوثيق والمصير الواحد والخطر المشترك ما لا يؤدي بغيرها.

(١) ينظر: روح المعاني: ٤٩/٢٠.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ١٠٧/٧، التحرير والتنوير: ٨٢/٢٠.



٢٢- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (١).

هذه الآية خطاب للنبي ﷺ وتسلية له مما يلاقي من قومه من عنت وصلف وإعراض، فالله معه يكلؤه بعنايته، ويرعاه ويحفظه وينجيه بفضلته فمصير أمره إلى عز، ومآل رسالته إلى تمكين، وإن كاد لها الكائدون، ودبر لها المكارون (٢).

وقد كان للباء في الآية ظلال وارقة، بما فيها من معنى المصاحبة في إبراز لطف الله وتكريمه لرسوله ﷺ بمعيته له، وهذه هي المعية الخاصة التي من ثمراتها النصر والتأييد والحفظ والرعاية، وهي للرسول صلى الله عليه وسلم ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم.

٢٢- قال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٣).

هذه الآية في معرض تعداد نعيم أهل الجنة، فمن نعيمهم تزويجهم بالهور العين اللاتي جعل الله فيهن من محاسن الجمال وحسن الخلق ما هو به عليم.

والفعل «زوج» يتعدى إلى مفعوله بنفسه، كما يتعدى إليه

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤١.

(٢) ينظر: من أسرار حروف الجر: ١٧٠.

(٣) سورة الدخان، الآية: ٥٤.

بالباء^(١) ، وفي القرآن الكريم أوثرت الباء في تعديته، فلم يأت: وزوجناها حوراً، مع صحته؛ وذلك للإشعار بقربهن وشدة التصاقهن بأزواجهن وملازمة مصاحبتهن لهم، وفي ذلك يقول الراغب الأصفهاني^(٢) : «وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ ، أي: قرناهم بهن، ولم يجئ في القرآن: زوجناهم حوراً، كما يقال: زوجته امرأة؛ تشبيهاً أن ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة»^(٣).

٢٤- قال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا﴾^(٤).

دعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده، فكذبه قومه واستمروا في شركهم، فأمر نوح ببناء السفينة، حتى إذا حل بهم العذاب وهو الغرق، ركب فيها مع من آمن معه وهم قليل، وكانت في المياه الكثيرة وبين الأمواج المتلاطمة تجري بحفظ من الله ورعاية، وهو ما أفادته الباء الدالة على الإلصاق والمصاحبة، حيث دلت على قرب

(١) ينظر: معجم الأفعال التعدية بحرف ١٥٢-١٥٣.

(٢) هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل، المعروف بالراغب الأصفهاني، من المفسرين الأدباء توفي سنة ٥٠٢هـ. له: تحقيق البيان في تأويل القرآن، والمفردات، والذريعة إلى مكارم الشريعة. ينظر: «سير أعلام النبلاء: ١٨/١٢٠، بغية الوعاة: ٢٩٧/٢».

(٣) المفردات ٢١٦.

(٤) سورة القمر، الآية: ١٤.



الله ومعيته، ونوح ومن آمن معه في ذلك الوقت في أمس الحاجة إلى رعاية الله وحفظه، فكان لهم ذلك ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ ﴾ (١).

وقد ذكر ابن القيم سبب إيثار الباء، مع أنه قد جاء مثله مع فعل آخر حرف «على» في قوله: ﴿ وَلِئُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (٢)، وفي الموضوعين يظهر حفظ الله لرسوله - عليهم السلام - وإعانتته لهم، فقال: «فالفرق أن الآية الأولى وهي قوله: «ولتصنع على عيني» وردت في إظهار أمر كان خفياً، وإبداء ما كان مكتوماً، فإن الأطفال إذ ذلك كانوا يغذون ويصنعون سراً، فلما أراد أن يصنع موسى ويغذى ويربى على حال أمن وظهور، لا تحت خوف واستسراء، دخلت «على» في اللفظ تنبيهاً على المعنى؛ لأنها تعطي الاستعلاء، والاستعلاء ظهور وإبداء، فكأنه يقول سبحانه وتعالى: «ولتصنع على أمن لا تحت خوف، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة، وأما قوله تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، فإنه إنما يريد برعاية منا وحفظ، ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره بعد كتم، فلم يحتج في الكلام إلى معنى «على»، بخلاف ما تقدم» (٣).

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٢) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٣) بدائع الفوائد: ٦-٥/٢.

٢٥- قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ
يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ءَاللَّهُ
عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ (١).

هذه الآية وعدٌ من الله للمتقين، وبشارة لهم بأن هذا النور الذي
تمسكوا به في الدنيا، يكون لهم في الآخرة وهم في أمس الحاجة
إليه على الصراط، وهو دحض مزلة.

وللباء في الآية دلالتها على المصاحبة والاصوق، فالمؤمنون
تصحبهم هداية القرآن، تضيء لهم السبيل، وتثير لهم الطريق، لا
تفارقهم طرفة عين، فهي ملازمة لهم حتى يبلغوا الجنة.

ويندرج في معنى الباء هنا الاستعانة (٢)، فهم مستعينون بهذا
النور فيما هم فيه، فلولاه لضلوا ولسقطوا، كما هو حال المنافقين
الذين انقطع عنهم هذا النور، فذهبوا يلتمسونه عند غيرهم، فعادوا
خائبين وانقلبوا خاسرين، يضيء من حولهم ولا يضيء لهم، وينتفع
به سواهم وليس لهم حظ سوى التعثر والتخبط في ظلمات الصراط،
كما كانت حالهم في الدنيا جزاء وفاقاً.

٢٦- قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ (٣).

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٤٢٩/٢٧.

(٣) سورة المعارج، الآية: ١.



للمفسرين في الباء هنا قولان:

أحدهما: أنها بمعنى «عن»، لما روى الجوهري ^(١) عن الأخفش أنه يقال: خرجنا نسأل عن فلان وبفلان، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَسئَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ ^(٢)، أي: عنه؛ وذلك لأنها أتت بعد السؤال ^(٣).

الثاني: أن الفعل مضمن معنى «دعا»، كأنه قيل: دعا بعذاب واقع، من قولك: دعا بكذا، إذا استدعاه وطلبه، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فِتْكَهَةٍ آمِنِينَ ﴾ ^(٤)، أو بتضمينه معنى اهتم واعتنى ^(٥).

وإذا علمنا أن «عن» كما قرره العلماء تدل على مجاورة ما تضاف إليه فإنه السؤال حين يتعدى بها يدل على أن المسؤل عنه مغيب عن السائل بعيد عنه، كما في قوله تعالى: ﴿ يَسئَلُونَكَ عَنِ

(١) ينظر: الصحاح ٥/١٧٢٣. هو إسماعيل بن حماد الجوهري، كان إماماً في اللغة والأدب، طاف الآفاق، فقرأ على أبي علي الفارسي والسيرافي. توفي بنيسابور سنة ٣٩٣هـ. له: الصحاح، ومقدمة في النحو. ينظر: «معجم الأدباء ٦/١٥١، إنباه الرواة ١/١٩٤، بغية الوعاة: ١/٤٤٤٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٩.

(٣) ينظر التحرير والتنوير: ٢٩/١٥٥.

(٤) سورة الدخان، الآية: ٥٥.

(٥) ينظر: الكشاف ٤/١٥٦، تفسير أبي السعود: ٩/٢٩، روح المعاني: ٢٩/٦٨.

السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرَّسْنَهَا ﴿١﴾. أما حين يعدى السؤال بالباء، فإنه يدل على أن المسؤل عنه ملاصق للسائل قريب منه، وهو ما في قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾؛ مبالغة في تحقيق وقوع العذاب بالكافرين، وتأكيد لحوقه بهم وقربه منهم. وفي هذا مناداة على كمال غفلتهم وخفة عقولهم وغيبية إدراكهم، فهم لا يشعرون بمن حولهم، ولا ينتبهون لخطر محقق بهم (٢).

٢٧- قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْتَرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ (٣).

في القرآن الكريم وصف لنعيم أهل الجنة، ومن ذلك وصف شرابهم، ومن ذلك هاتان الآيتان، وفي الباء في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أن الباء بمعنى «من»، قال ابن قتيبة (٤): «تقول العرب: شربت بماء كذا وكذا، أي: من ماء كذا» (٥).

(١) سورة النازعات، الآية: ٤٢.

(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٥٧٥.

(٣) سورة الإنسان، الآيتان: ٦، ٥.

(٤) هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، نزيل بغداد، كان رأساً في العربية واللغة والأيام وأخبار الناس، توفي سنة ٢٧٦هـ. له: تأويل مشكل القرآن وعيون الأخبار وغيرهما، ينظر: تاريخ بغداد: ١٠/١٧٠، إنباه الرواة: ٢/١٤٢، بغية الوعاة: ٢/٦٢.

(٥) تأويل مشكل القرآن: ٥٧٥.



الثاني: أن الباء زائدة ^(١) ، ويعضده قراءة ^(٢) «يشربها عباد الله».

الثالث: أن الفعل «يشرب» ضمن معنى «يلتذ»، فتعدى بالباء ^(٣) .

الرابع: أن الباء للإلصاق، وهي متعلقة بمحذوف، والتقدير: عيناً

يشرب عباد الله خمرهم بها، أي: مصحوباً بمائها ^(٤) .

وهذا القول أرجح؛ لأن الباء في إفادتها للصوصق والمصاحبة أبرزت

لنا صورة دقيقة في قربهم من العين والتصاقهم بها، ومزج خمرهم

بمائها في سعادة وامتعة لا يعلمها إلا الله، يقول الزمخشري في هذا:

«فإن قلت: لِمَ وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولاً - أي: يشربون

من كأس - وبحرف الإلصاق آخرًا؟ قلت: لأن الكأس مبدأ شربهم

وأول غايتهم، وأما العين فيها يمزجون شرابهم، فكأن المعنى:

يشرب عباد الله الخمر، كما تقول: شربت الماء بالعسل» ^(٥) .

٢٨ - قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ^(٦) .

(١) ينظر: البحر المحيط: ٨/ ٢٩٥، تفسير أبي السعود: ٩/ ٧١، روح المعاني: ٢٩/ ١٩٤ -

١٩٥ .

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٨/ ٢٩٥، وهي قراءة ابن أبي عبله.

(٣) ينظر: البحر المحيط: ٨/ ٢٩٥، تفسير أبي السعود: ٩/ ٧١.

(٤) ينظر: روح المعاني: ٢٩/ ١٩٤ - ١٩٥، التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٨١.

(٥) الكشاف: ٤/ ١٩٦.

(٦) سورة المطففين، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

من دأب المشركين المعاندين السخرية بالدعوة وأهلها، والاستهزاء بمجالسهم العامرة بالحكمة، وكانوا يقصدون هذا، ويستغلون كل فرصة مواتية للنيل من هذا الدين وإضعاف أهله، وهذا ما دلت عليه الآيات وما بعدهما (١).

وقد كان للباء في قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ دقة في بيان حرصهم على المرور ولصوقهم بأهل الإيمان، وترثيهم عند مجالسهم؛ ليحتكوا بهم عن قرب، فهو ليس مرور العابر، بل كانوا يتعمدون الذهاب للمؤمنين والوقوف عندهم للتحرش بهم.



(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢١١/٣٠.

الفصل الثاني:

«اللام» معانيها ودلالاتها في القرآن الكريم



المبحث الأول:

الدراسة النظرية

اللام حرف كثير المعاني والأقسام، وقد أفرد لها بعض العلماء مصنفاً مستقلاً^(١).

وإجمالاً تنقسم اللام إلى قسمين: عاملة وغير عاملة^(٢).
أولاً: العاملة، وهي ثلاثة أقسام:

١- الجارة: ولها عدة معان، أصلها وأشهرها الاختصاص، مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا﴾^(٣)، وقد نقل المرادي عن غيره ثلاثين معنى لللام الجارة^(٤)، ثم قال بعد ذلك: «التحقيق أن معنى اللام في الأصل هو الاختصاص، وهو معنى لا يفارقها، وقد تصحبه معان أخر إذا تؤملت سائر

(١) وما طبع منها: اللامات للزجاجي في دمشق سنة ١٩٦٩م، واللامات لابن فارس، وقد طبع في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٣م، ولعبدالمهدي الفضلي كتاب مستقل في ذلك بعنوان اللامات طبعته دار القلم.

(٢) ينظر: حروف المعاني: ٧٦-٨٤، معاني الحروف: ٥١-٥٨، شرح التسهيل لابن مالك: ٣/١٤٤-١٤٩، رصف المباني: ٢٩٣-٣٢٩، البرهان: ٤/٣٣٤-٣٥٠، جواهر الأدب: ٦٩-٩٠، الجنى الداني: ١٤٣-١٧١، مغني اللبيب: ١/٢٠٧-٢٣٧.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٧٨.

(٤) ينظر: الجنى الداني: ١٤٣-٢٥١.

المعاني المذكورة، وجدت راجعة إلى الاختصاص. وأنواع الاختصاص متعددة، ألا ترى أن معانيها المشهورة التعليل، قال بعضهم: وهو راجع إلى معنى الاختصاص؛ لأنك إذا قلت: جئتكم للإكرام، دلت اللام على أن مجيئك مختص بالإكرام؛ إذ كان الإكرام سببه دون غيره (١).

فمن هذه المعاني: الاستحقاق، والملك، والتعليل، والنسب، والتبيين، والتبليغ، وبمعنى «إلى»، وبمعنى «في»، وبمعنى «على»، وبمعنى «عن»، وغير ذلك.

٢- الجازمة: وهي لام الطلب، وتشتمل على لام الأمر، كقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ (٢)، والدعاء كقوله تعالى: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ﴾ (٣). والالتماس، كقولك لمن يساويك: لتكتب درسك.

٢- الناصبة على رأي الكوفيين، وعند البصريين جارة، والناصب «أن» مضمرة بعدها، وهي مسألة خلافية (٤)، ولهذه اللام أقسام، أشهرها:

-
- (١) الجنى الداني: ١٥.
 (٢) سورة الطلاق، الآية: ٧.
 (٣) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.
 (٤) ينظر: الإنصاف ٢/ ٥٧٥، شرح المنفصل: ١٩/٧.

الأول: لام التعليل، وتسمى لام «كي»، مثل قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ
 أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَيْبَهُمْ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ
 مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾^(٢).

الثاني: لام الجحود، وهي اللام الواقعة بعد «كان» الناقصة
 المنفية الماضية لفظاً أو معنى، كقوله تعالى: ﴿وَمَا
 كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿لَمْ
 يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾^(٤).

الثالث: لام الصيرورة، وتسمى لام العاقبة، ولام المال، ذكرها
 الكوفيون^(٥) والأخفش^(٦) وابن مالك^(٧)، كقوله
 تعالى: ﴿فَالنَّقَطَةُءِءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾^(٨).
 وهي عند البصريين صنف من أصناف لام «كي»^(٩).
 الرابع: اللام الزائدة، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾^(١٠).

(١) سورة الجن، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٨.

(٥) ينظر: اللامات للزجاجي ١٢٥، الجنى الداني: ١٦٠، البرهان: ٣٤٨/٤.

(٦) ينظر: البرهان ٣٤٨/٤.

(٧) ينظر: شرح التسهيل: ١٤٦/٣.

(٨) سورة القصص، الآية: ٨.

(٩) ينظر: الجنى الداني: ١٦٠، مغني اللبيب: ٢١٤/١، البرهان: ٣٤٨/٤.

(١٠) سورة النساء، الآية: ٢٦.



وكقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْنَا لِلْإِسْلَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

ثانياً: غير العاملة، ولها أقسام، أشهرها:

١- لام الابتداء، وهي اللام المفتوحة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾^(٢)، وفائدتها تأكيد مضمون الجملة.

٢- لام جواب القسم، كقوله تعالى: ﴿وَتَأَلَّوْا لِأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿تَأَلَّوْا لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾^(٤).



(١) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٧.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.



المبحث الثاني:

الدراسة التطبيقية

١- قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ

(١) ﴿١٥٢﴾

الشكر كما يقول الراجب الأصفهاني: «ثلاثة أضرِب: شكر القلب، وهو تصور النعمة، وشكر اللسان، وهو الثناء على المنعم، وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ (٢). فيه تنبيه أن توفية شكر الله صعب» (٣).

إن نعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى، فكل ما في الحياة والكون نعمه وخيراته وفضائله وإحسانه، فهو أهل الثناء والحمد والشكر، وفعل «شكر» يتعدى بنفسه ويتعدى باللام (٤)، تقول: شكرت زيدا، وشكرت لزيد. وبين العبارتين بون شاسع في المعنى والدلالة، ففي القرآن الكريم جاء متعدياً باللام، كقوله تعالى:

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٣) المفردات ٢٦٥.

(٤) ينظر: معجم الأنفال المتعدية بحرف: ١٨٢.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتْيَاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١) ، وقوله: ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ ﴾ (٢) ، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ (٣) .

والسر في تعديته باللام، بيان اختصاص الشكر بالله سبحانه وتأکید ذلك، بحيث لا يتعداه إلى غيره مما لا تؤديه تعدية الفعل بنفسه.

قال البطليوسي (٤) في حديثه عن زيادة الحروف: «أن يحدث زيادة الحرف معنى لم يكن في الكلام، وهذا النوع أظرف الأنواع الأربعة وألطفها مأخذاً وأخفاها صنعة .. وهذا النوع كثير في الكلام، يراه من منحه الله طرفاً من النظر، ولم يمر عليه معرضاً عنه، فمن ذلك قولهم: شكرت زيداً، وشكرت لزيد. يتوهم كثير من أهل هذه الصناعة أن دخول اللام هاهنا كخروجها، وليس كذلك؛ لأنك إذا قلت: شكرت زيداً، فالفعل متعد إلى مفعول

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٢ .

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤ .

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٢ .

(٤) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي، من لحاة الأندلس. سكن بلنسية، وبها توفي سنة ٥٢١هـ. له: الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، والمثلث في اللغة، وإصلاح الخلل. ينظر: «إنباه الرواة: ١٤١/٢، بغية الوعاة: ٥٥/٢، شذرات الذهب:



واحد. وإذا قلت: شكرت لزيد، صار بدخول اللام متعدياً إلى مفعولين؛ لأن المعنى: شكرت لزيد فعله، وإنما يترك ذلك الفعل اختصاراً»^(١).

ويرى ابن عاشور أن المتعدية باللام أفصح، وتسمى هذه اللام لام التبليغ ولام التبيين، قال عند آية لقمان: «وكان أول ما لقنه لقمان من الحكمة، هو الحكمة في نفسه بأن أمره الله بشكره على ما هو محفوف به من نعم الله التي منها نعمة الاصطفاء؛ لإعطائه الحكمة وإعداده لذلك بقابليته لها، وهذا رأس الحكمة؛ لتضمنه النظر في دلائل نفسه وحقيقته قبل النظر في حقائق الأشياء، وقبل التصدي لإرشاد غيره، وأن أهم النظر في حقيقته هو الشعور بوجوده على حالة كاملة، والشعور بموجوده ومفيض الكمال عليه، وذلك كله مقتض لشكر موجدته على ذلك»^(٢).

٢- قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ الْبِغْيَةِ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾^(٣).

القصاص شرعه الله حياة لمن تدبر معاني الشريعة، وعقل مقاصدها الشريفة وأهدافها البعيدة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَنْبِيَاءِ لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

(١) الاتضاب: ٣٠٨/٢.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١٥٢/٢١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

وقد استثنى الله من هذه القاعدة عفو ولي دم القتيل عن القاتل، فهي منحة خاصة أهديت للقاتل، حيث استوجبت روحه الإزهاق. وفي التعبير بقوله: «من أخيه» تذكير بواجب الأخوة، وما يفرضه من التعاطف والتراحم، وصيانة الدماء والإحسان إليه، مما يفرس بذور التسامح والمودة في النفوس، والتنازل عن الحقوق في سبيل تقوية أواصر المحبة بين المؤمنين.

وفي الأسلوب القرآني ﴿فَمَنْ عَفَى﴾ دلالاته الوافية في بيان هذا المعنى، فإيثار هذا الفعل «عفا» يؤذن بمراعاة التيسير والسماحة، وهي من خلق الإسلام، فهذا تأكيد للترغيب^(١).

ثم تعديته باللام مع أنه يعدى بـ«عن»^(٢) إلى الجاني كقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾^(٣)، وإلى الذنب كما تقول: عفوت عن ذنبه، إنما عدي باللام، كما قال الزمخشري: لأنه «تعدي إلى الذنب والجاني معاً، قيل: عفوت لفلان عما جنى، كما تقول: غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه، وعلى هذا ما في الآية كأنه قيل: فمَنْ عَفَى له عن جنائته، فاستغنى عن ذكر الجنائية»^(٤) وما قاله

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٤١/٢.

(٢) ينظر: معجم الأفعال المتعدية بحرف: ٢٤٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

(٤) الكشاف: ٢٣٢/١.



الزمخشري في الآية ذكره غيره من المفسرين القدماء والمحدثين^(١)،
 وذهب بعضهم إلى أن «عفا» بمعنى «ترك»، لكن رده كثير من
 المفسرين بأنه لم يثبت في اللغة «عفا الشيء» بمعنى «تركه» وإنما
 يقال أعفاه، قال الزمخشري: «فإن قلت: هلا فسرت «عفا» بـ«ترك»
 حتى يكون (شيء) في معنى المفعول به؟ قلت: لأن عفا الشيء بمعنى
 تركه ليس يثبت ولكن «أعفاه» ومنه قوله - عليه الصلاة والسلام:
 «وأعفوا للحي»^(٢).

ثم علل أيضاً بقوله: «عبارة قلقة في مكانها، والعفو في باب
 الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال
 الناس، فلا يعدل عنها إلى أخرى نابية عن مكانها، وترى كثيراً
 ممن يتعاطى هذا العلم يجترئ إذا أعضل عليه تخريج وجه
 للمشكل من كلام الله على اختراع لغة، وادعاء على العرب ما لا
 تعرفه، وهذه جراءة يستعاذ بالله منها»^(٣).

(١) ينظر: التفسير الكبير ٥٣/٥، تفسير أبي السعود ١/١٩٥، روح المعاني: ٥٠/٢، تفسير

المنار: ١٢٩/٢.

(٢) الكشاف: ٢٣٢/١

(٣) وانظر: تفسير أبي السعود ١/١٩٥، روح المعاني: ٥٠/٢، تفسير المنار: ١٢٩/٢.



٣- قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾^(١).

فعل النداء يتعدى بـ«إلى» ويتعدى باللام، فتعديته بـ«إلى»؛ للدلالة على انتهاء الغاية، وتعديته باللام؛ للدلالة على الاختصاص، لذا فإن كثيراً من المفسرين والمعرّبين^(٢) يرون أن «إلى» واللام يتناوبان مع الفعل دون تنصيب معظمهم على سبب إثارة الفعل تارة بـ«إلى» وتارة باللام، مع أن للفعل مع كل واحد منهما دلالة خاصة، قال ابن القيم: «إن الفعل المعدي بالحروف المتعددة لا بد أن يكون له من كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر»^(٣).

فجاءت تعديّة الفعل باللام في قوله تعالى: ﴿ يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴾؛ لبيان اختصاص المناداة للإيمان؛ إظهاراً للاهتمام به ووفور الرغبة في تحقيقه^(٤)، وليس المقصود انتهاء الغاية إليه؛ لأنه أول ما يدعى إليه العبد، ويطلب منه بعد ذلك الترقّي في درجاته؛ كي يبلغ كمال الإيمان، وهو أمر عزيز المنال.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٣.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ١/٢٥٠، مشكل إعراب القرآن: ٢/٧٩٢، الكشف

٤٨٩/١، تفسير أبي السعود ٢/١٣٢، فتح القدير: ١/٤١١.

(٣) بدائع الفوائد: ٢/٢٠-٢١.

(٤) ينظر: الكشف: ١/٤٨٩.

وكذا في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾^(١)، فحين كان النداء للمؤمنين خاصة، ولصلاة خاصة في يوم خاص، لها في شريعة الإسلام المكانة الخاصة، جاءت اللام تعبيراً عن اختصاصها بالنداء، والسعي من أجلها لنيل فيوض الرحمة، والتعرض لنفحات المولى جل وعلا.

وفي مقابل هذا نرى تعدية الفعل بـ«إلى» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَكَلْبًا﴾^(٢)، فهو نداء لكل سامع، وإلى عموم الصلوات، تحصيلاً لفضل الجماعة، ولما لم يكن في الآية بيان لمزية صلاة معينة وتخصيصها بثواب، وإنما المقصود بيان ما انطوت عليه سرائر هؤلاء الأقوام من الاستهزاء والسخرية بالصلاة، عدي الفعل بـ«إلى».

٤- قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾^(٣).

هذه من مقالة إبراهيم لقومه، حيث جعل وجهته وأسلم زمام نفسه لله رب العالمين، إله الأولين والآخرين.

(١) سورة الجمعة، الآية: ٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

وفي تعدية الفعل باللام دون «إلى» نكتة بلاغية ولطيفة بيانية، يقول ابن عاشور: «وفعل وجّه» يتعدى إلى المكان لمقصود بـ«إلى»، وقد يتعدى باللام إذا أريد أنه الظرف لأجل ذلك الشيء المقصود مراعى إرضاءه وطاعته، كما تقول: توجهت للحبيب، ولذلك اختير تعديه هنا باللام؛ لأن في هذا التوجه إرضاء وطاعة»^(١).

وقد ذهب الرازي إلى أن اللام في الآية للتعليل^(٢)، وردّ هذا الشيخ محمد رشيد رضا بأن كلامه يصح لو كان التوجه إلى غير الله تعالى توسلاً إليه، كالتوجه إلى الكواكب وغيرها لأجلها، أما مع الله فالله غني عن عباد، لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة المطيعين^(٣).

ومثل هذه الآية الكلام في الآيتين التاليتين:

٥- قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤)، وفي سورة لقمان يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾^(٥)،

(١) التحرير والتنوير: ٣٢٣-٣٢٤/٧.

(٢) ينظر: التفسير الكبير: ٥٧/١٣.

(٣) ينظر: تفسير المنار: ٥٦٣/٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١١٢.

(٥) سورة لقمان، الآية: ٢٢.



فما الفرق بين تعدية الفعل في الأولى باللام، وفي الثانية بـ«إلى»؟ يقول الزمخشري: «فإن قلت: ما باله عدي بـ«إلى» وقد عدي باللام في قوله: (بلى من أسلم وجهه لله)؟ قلت: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله، أي خالصاً له، ومعناه مع «إلى» أنه أسلم إليه نفسه، كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه، والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه»^(١).

لكن لم أوتر الفعل في الأولى باللام دون «إلى»، وعلى العكس في الثانية؟ إن آية البقرة جاءت بعد الحديث عن النسخ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢). وقد أثير حول هذه المسألة جدل وخصومة من أجل تشكيك المؤمنين في عقيدتهم، وزعزعة الإيمان في قلوبهم، فجاء تعدية الفعل باللام المشعرة بالإذعان التام والانقياد الكامل والاستسلام لأمر الله.

أما آية لقمان، فقد جاءت بعد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسَخَّعَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطِنَةُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجْدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾^(٣) وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولئك كان

(١) الكشاف: ٢٣٥/٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴿١﴾ . فسياق الآيتين فيه ذكر نعمة الله وإفضاله عليهم بما سخر لهم في هذا الكون وأسبغ عليهم نعمه، وذلك يستوجب تفويض الأمور إليه، والتوكل عليه في صغير الأمور وكبيرها، ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ ولذلك جاءت الآية بعد ذلك ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

٦- قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٢﴾ .

للمفسرين في اللام في قوله: «ليمكروا فيها» قولان:

أحدهما: أنها لام العاقبة والصيورة، فإن المجرمين إذا صاروا أكابر بلد وزعماءه، لا يمكنهم أن يحافظوا على مكانتهم فيه إلا بالمكر والخداع، فيصير أمرها إليهم (٣) .

الثاني: أنها لام التعليل (٤) ، وهذا هو الأولى، ففي هذا سخرية القرآن من هؤلاء الذين يبيتون المكر ويحكمون الكيد، ويتآمرون على دعاة الخير، كل هذا لغاية

(١) سورة لقمان، الآيتان: ٢٠، ٢١ .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣ .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٩٤/٨، تفسير المنار: ٣٥/٨ .

(٤) ينظر الحاشية السابقة .



أرادها الله ليعلو الحق، ويصقل معدن أتباعه.

فمكر الأعداء في الحقيقة مكر بأنفسهم، وتربصهم دوائر السوء إنما تكون عليهم من حيث لا يشعرون، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

يقول ابن عاشور: «واللام في «ليمكروا» لام التعليل، فإن من جملة مراد الله تعالى من وضع نظام وجود الصالح والفساد، أن يعمل الصالح للصالح، والفساد للفساد، والمكر من جملة الفساد. ولام التعليل لا تقتضي الحصر، فله تعالى في إيجاد أمثالهم حكم جملة، منها هذه الحكمة، فيظهر بذلك شرف الحق والصالح ويسطع نوره، ويظهر اندحاض الباطل بين يديه بعد الصراع الطويل»^(١).

٧- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾^(٢).

الحديث عن اللام في قوله: «ليردوهم وليلبسوا» كالحديث في اللام السابقة، فللمفسرين فيها قولان:

أحدهما: أنها لام العاقبة والسيرورة، إن كان المراد بالشركاء

(١) التحرير والتنوير: ٤٩/٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٧.



الأصنام وسدنتها، أي: زينا لهم ذلك قصداً لنفعهم، فانكشف الأمر عن أضرار جهلوها، وويلات غفلوا عنها ^(١).

الثاني: أنها لام التعليل إن كان المراد بالشركاء الجن، أي: الشياطين ^(٢)؛ لأن الإيقاع في الشر من طبيعة الوسواس، إذ يحسن الشر ويحبه، فينساق إليه المشرك من غير قصد إلى كون ما يدعونهم إليه مردياً وملبساً، فإنهم أولياؤهم لا يقصدون إضرارهم، لكنهم لما دعوهم إلى أشياء ضارة وسيئة، كان تزيينهم معللاً بالإرداء والإلباس وإن لم يفتنوا له، وأقرب هذا الإفساد إفساد فطرتهم بما ذهب من قلب الوالدين من الرأفة والرحمة، بل انقلبت إلى منتهى القسوة والوحشية، حتى ينحر الوالد ريحانة قلبه وثمره فؤاده، ويدفن ابنته الضعيفة وهي حية بيده، هذا هو الإرداء والانحطاط، أما لبس دينهم عليهم فقد اشتبه عليهم ما كانوا يدعونه من دين إبراهيم بما ابتدعوه من هذه البدع والضلالات. وقيل: ليقعوهم في دين ملتبس مشتبه لا تتجلى فيه حقيقة، ولا تخلص فيه هداية ^(٣).

(١) ينظر: الكشاف: ٥٤/٢، تفسير أبي السعود: ١٨٩/٣، التحرير والتنوير: ١٠٤/٨.

تفسير المنار: ١٢٦/٨.

(٢) ينظر الحاشية السابقة.

(٣) ينظر تفسير المنار: ١٢٦/٨.

٨- قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نِّفَالًا سَفْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (١).

للمفسرين في اللام في قوله «سفناه لبلد ميت» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها لام العلة، أي لأجل بلد ميت، وفي هذه اللام دلالة على العناية الربانية بذلك البلد، فلذلك عدل عن تعديدها «سفناه» بحرف «إلى» (٢).

الثاني: أنها لام التبليغ، كقولك: سقت لك مالا، أي: أوصلته لك وأبلغتكم (٣).

الثالث: أن اللام بمعنى «إلى»، كما جاء تعديتها في قوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثَبَّرُ سَحَابًا فَسَقَّنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ (٤) (٥).

والذي أراه أنها لام التعليل، أي: لأجل منفعته وسقيه، لكن ما السر في تعديده الآية الأخرى بـ«إلى»؟ ذهب أبو جعفر بن الزبير الثقفي

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٢) ينظر الكشاف: ٨٤/٢، روح المعاني: ١٤٦/٨، التحرير والتنوير: ١٨٣/٨.

(٣) ينظر: البحر المحيط: ٣١٧/٤.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٩.

(٥) تفسير المنار: ٤٦٧/٨.

إلى أن هذا من قبيل التناسق اللفظي والإيجاز والإطناب، قال - رحمه الله: «ولما استدعى لفظ (سقناه) المكان المسوق إليه، وإنما يصل إليه بلام الجر أو «إلى»، عدي في الإعراب بلام الجر، فقيل «لبلد»؛ ليناسب المجرور فعله الذي استدعاه في الوجازة، ولما طال الفعل في الآية الأخرى بما لزمه من حرف التعقيب، ناسبه تعديته بـ«إلى» إسهاباً مقابل إسهاب، وإيجازاً مقابل إيجاز^(١).

فلما جاء الفعل في آية الأعراف غير مسبوق بفاء التعقيب، أوتر في تعديته اللام؛ ليقابل الإيجاز بالإيجاز؛ لأنها على حرف واحد. وفي آية فاطر جاء الفعل بعد الفاء، فعدي الفعل بـ«إلى»، وهي على ثلاثة أحرف، ليقابل الإسهاب بالإسهاب.

هذا من حيث اللفظ، أما من حيث المعنى، فإن آية الأعراف جاءت بعد آيات فيها الرحمة والدعاء والحث عليه، يقول تعالى:

﴿ اَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾^(٢)، مما استدعى إرسال الله تعالى الرياح لسقي قوم استجابة لدعائهم وصلاتهم؛ رحمة منه وإحساناً.

أما آية فاطر، فقد جاءت بعد آيات فيها التحذير من الدنيا

(١) ملاك التأويل: ١/٥٠٧-٥٠٨.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٥٦، ٥٥.

والشيطان، وتقسيم الناس إلى مهتدين وأشقياء، فالأولون لهم جنات عدن، والآخرون لهم نار تطفى، يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا وَعَدَّ اللَّهُ حَتَّىٰ فَلَا تَفْرَقُ بَيْنَكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَقُ بَيْنَكُمْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ ۝٦﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ (١)، فجاءت «إلى» مشيرة إلى نهاية رحلة الرياح، ونهاية موت الأرض؛ لتبدأ حياة أخرى بهذا الماء. وكذا الإنسان سيحييه الله بعد زمن في الوقت الذي يأذن الله فيه بنهاية الدنيا، ثم البعث والنشور.

٩- قال تعالى: ﴿أَبْلَغَكُمْ رِسَالَتِي ربي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٢﴾ (٢).

هذا خطاب من نوح - عليه السلام - لقومه، وهو خطاب كل رسول لقومه، ولا شك في إخلاص المرسلين النصيحة لأقوامهم واختصاصهم بها.

وأصل النصيح في اللغة الخلوص، يقال: نصحت العسل، إذا

(١) سورة فاطر، الآيات: ٥-٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦٢.

خلصته من الشمع، وقيل: مأخوذ من نصح الرجل ثوبه، إذا خاطه. شبهوا فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بفعل الخياط فيما يسد من خلل الثوب^(١)، وفعل «نصح» يتعدى بنفسه ويتعدى باللام^(٢)، ولم يجئ في القرآن إلا معدى باللام؛ لأن الناصح أخلص النصيحة للمنصوح حقيقة.

قال الزمخشري^(٣): «وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة، وأنها وقعت خالصة للمنصوح له، مقصوداً به جانبه لا غير، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله تعالى ورسله - عليهم السلام»^(٤).

كما ذكر أبو جعفر بن الزبير الثقفي^(٥) وابن عاشور^(٦) أن التعبير بلفظ المضارع «أنصح»، له دلالة في أنه لا يزال في النصح لهم، وأنه غير تاركه من أجل كراهيتهم أو بذاءتهم، هذا ما يفيد

(١) ينظر: لسان العرب: ٦١٥/٢، «نصح»، القاموس المحيط: ٢٥٢/١، «نصح» المفردات: ٤٩٤.

(٢) ينظر: معجم الأفعال المتعدية بحرف: ٣٨٤.

(٣) الكشاف: ٨٦/٢.

(٤) وانظر: تفسير أبي السعود: ٢٣٦/٣، التحرير والتنوير: ١٩٤/٨، روح المعاني: ١٥٢/٨.

(٥) ينظر: ملاك التأويل: ٥٢٧/١.

(٦) ينظر التحرير والتنوير: ١٩٤/٨.

المضارع الدال على التجدد والحدوث، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ (١) ﴾ .

١٠- قال تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ۝ (٢) ﴾ .
إن الإيمان بالقضاء والقدر له أثره في تثبيت المؤمن وطمأنة نفسه،
فما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ومجيء اللام في «لنا» الدالة على الاختصاص تبرز بوضوح
وتكشف بجلاء عقيدة المؤمن ورؤيته للحياة والموت فإما النصر وإما
الشهادة، فلايمانه الراسخ وعقيدته الثابتة يقبل السراء والضراء،
إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر،
فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن (٣) . قال الألويسي: «أي
ما اختلفنا بإثباته وإيجابه من المصلحة الدنيوية أو الآخروية،
كالنصرة أو الشهادة المؤدية للنعيم الدائم، فالكتب بمعنى
التقدير، واللام للاختصاص» (٤) .

١١- قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ
يَهْدِي لِلْحَقِّ ۝ (٥) ﴾ .

(١) سورة نوح، الآية: ٥ .

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥١ .

(٣) ينظر الكشاف: ١٩٥/٢، التحرير والتنوير: ٢٢٣/١٠ .

(٤) روح المعاني: ١١٥/١٠ .

(٥) سورة يونس، الآية: ٣٥ .

الفعل «هدى» يقول عنه ابن القيم: «متى عدي بـ«إلى»، تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة، فأتى بحرف الغاية. ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب، فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين، فإذا قلت: هديته لكذا، فهم معنى: ذكرته له وجعلته له وهياته ونحو هذا، وإذا تعدى بنفسه، تضمن المعنى الجامع لذلك كله، وهو التعريف والبيان والإلهام»^(١).

وقد ذهب ابن قتيبة^(٢) والبطليوسي^(٣)، ونقله ابن منظور^(٤) عن قوم بأن اللام و«إلى» معناهما واحد، تقول: هديته للحق، وهديته إلى الحق، هذا من تداخل معاني الحرفين؛ لما بين الحرفين من التداخل والتضارع، فموضوعهما واحد.

والصواب أن الفعل «هدى» له دلالاته الخاصة حين يتعدى باللام أو بـ«إلى» أو بنفسه، فكل حرف يخلع عليه معنىً مغايراً للآخر، كما ذكر ذلك ابن القيم فيما سبق.

(١) بدائع الفوائد: ٢١/٢.

(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٥٧٢.

(٣) ينظر: الاقتضاب: ٢٨٦-٢٨٧/٢.

(٤) لسان العرب: ٣٥٤/١٥. وابن منظور: هو أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور الإفريقي المصري، خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، وبها توفي سنة ٧١١هـ. له: لسان العرب، ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر. ينظر: الدرر الكامنة: ٢٦٢/٤، بغية الوعاة: ٢٤٨/١، شذرات الذهب: ٢٦/٦.



ففي الآيات التي عدي فيها الفعل باللام، كآية السابقة ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾^(٢). دل الفعل على معنى التوفيق، وتهيئة القلب والنفوس للسعي من أجل هذه الغاية، انبثاقاً من معنى الاختصاص باللام. ولا يملك توجيه القلوب للحق وتهيئتها للعمل به، والمسابقة في ميدانه إلا الله سبحانه، فقد أقام الأدلة والحجج، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، ووفق من شاء من عباده للتدبر والنظر^(٣).

أما الآيات التي عدي فيها الفعل بـ«إلى»، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَاهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخْتَبِئُ﴾^(٥). وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٦). وغير ذلك، فضيها دلالة على الإرشاد والدلالة، لكنهم لا يختصون ولا يملكون الهداية لأحد^(٧).

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود: ١٤٣/٤، فتح القدير: ٢٣/١، التحرير والتنوير: ١١/١٦٢، تفسير المنار: ١١/٣٦١-٣٦٢.

(٤) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٥) سورة النازعات، الآية: ١٩.

(٦) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٧) ينظر: تفسير المنار: ١١/٣٦١-٣٦٢.

لأجل هذا وغيره غاير القرآن الكريم في تعديده الفعل في آية واحدة، مرة باللام، ومرة بـ«إلى»، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يقول الزمخشري: «ومعناه: أن الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول، وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم، وبما لطف بهم ووقفهم وألهمهم، وأخطر ببالهم ووقفهم على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد من أشرافهم، كالملائكة، والمسيح وعزير يهدي إلى الحق مثل هداية الله؟»^(١).

١٢- قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾^(٢).

اختلف المفسرون في اللام في قوله «ليضلوا» على أقوال^(٣):

أحدها: أن اللام للعاقبة والمآل، والمعنى: لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح؛ لأن الزينة سبب

(١) الكشاف: ٢/٢٣٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٨.

(٣) ينظر: معاني القرآن للقرءاء: ١/٤٧٧، تفسير الطبري: ١١/١٠٨، البيان في غريب إعراب القرآن: ١/٤٢٠، الكشاف: ٢/٢٥٠، المحرر الوجيز: ٩/٨٣-٨٤، التفسير الكبير: ١٧/١٥٥-١٥٨، تفسير أبي السعود: ٤/١٧٢، التحرير والتنوير: ١١/٢٦٨، تفسير المنار: ١١/٤٧٢-٤٧٣.



الكبر والخيلاء والطفیان على الناس، وكثرة الأموال تمكنهم من ذلك، وتخضع رقاب الناس لهم، فما بعد هذه اللام أثر وغاية لما قبلها؛ وذلك استدراج من الله لهم، وأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

الثاني: أن اللام للتعليل، والمعنى: فعلت ذلك استدراجاً لهم وإملاءً، فكان الإيتاء كي يضلوا عن سبيلك، وتفتتهم فيه عقوبة منك لهم.

الثالث: أنها لام الدعاء بمعنى الأمر، روي هذا عن الحسن (١)؛ وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضاً مكرراً، وردد عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، ورآهم لا يزيدون إلا كفرًا وعناداً وعلم بالتجربة وطول الصحبة أن إيمانهم كالمحال، أو علم ذلك بوحي من الله، اشتد غضبه عليهم وكره حالتهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره، كما تقول: لعن الله إبليس، وأخزي الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك.

(١) هو الحسن بن يسار البصري، من أفاضل التابعين، إمام أهل البصرة وعالمهم وفقههم، وبها توفي سنة ١١٠هـ، ينظر: «وفيات الأعيان»: ٦٩/٢، حلية الأولياء: ١٣١/٢، سير أعلام النبلاء: ٥٦٣/٤.

الرابع: أن يكون على حذف همزة الاستفهام، والتقدير: أليضلوا عن سبيلك آتيتهم زينة وأموالاً؟ تقريراً للشناعة عليهم، وتعجباً من صنيعهم.

الخامس: تأويل معنى الضلال بالهلاك، أي: ليهلكوا.

ولعل الأقرب عندي أنها لام العاقبة والمآل، وهذا من أدب موسى وأخيه مع ربهما جل وعلا، وتسليماً لأمر الله وقضائه، ووعياً لحكمة الله في استدراج خلقه وأخذهم بهذه النعم، وإملاءً للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

١٣- قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (١).

كل ما في الكون دلائل على قدرة الله وألسن ناطقة بوحدانيته وربوبيته، ومن ذلك سير الشمس والقمر والكواكب الأخرى في نظام متسق، وسير متوازن لا تضاد بينها، ولا اضطراب أو تصادم في جريها.

وفعل «جری» يتعدى باللام وب«إلى» (٢)، ولهما شواهد كثيرة في القرآن، فمن تعدية «جری» باللام الآية السابقة، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ بَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٣).

(١) سورة الرعد، الآية: ٢، وسورة فاطر، الآية: ١٣، وسورة الزمر، الآية: ٥.

(٢) ينظر: معجم الأفعال المتعدية بحرف ٣٣.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٨.



ومن تعدية «جري» بـ«إلى» قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (١).

وقد ذهب ابن قتيبة (٢) والآلوسي (٣) إلى أن اللام في الآيات السابقة بمعنى «إلى»، كما تقول: هو يجري لغايته، وإلى غايته.

لكن استنكر الزمخشري هذا الرأي قائلاً: «فإن قلت: يجري لأجل مسمى، ويجري إلى أجل مسمى، أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن. ولكن المعنيين، أعني: الانتهاء والاختصاص، كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض؛ لأن قولك: يجري إلى أجل مسمى، معناه يبلغه وينتهي إليه، وقولك: يجري لأجل مسمى، تريد: يجري لإدراك أجل مسمى، تجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى» (٤).

وأكثر المفسرين على أن اللام بمعنى التعليل، أي: لإدراك غاية تنتهي إليها، وهي المدة التي قدرها الله لدوام سيرها، وهي مدة بقاء النظام الشمس الذي إذا اختل انتشرت العوالم وقامت القيامة (٥)، لكن ما السر الذي من أجله عدي الفعل في الآيات الأولى باللام،

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٩.

(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٥٧٢.

(٣) ينظر: روح المعاني: ٨٩/١٣.

(٤) الكشاف: ٢٣٧/٣.

(٥) ينظر: تفسير أبي السعود: ٣/٥، التحرير والتنوير: ٢٣/١٣.

وفي آية لقمان بـ«إلى»؛ لقد كشف عن هذا السر البلاغي في تباير تعدية الفعلين في الآيات السابقة أبو جعفر بن الزبير الثقفي والخطيب الإسكافي^(١)، أما أبو جعفر فجعله من التناسق اللفظي، قابل الإيجاز في صدر الآية بالإيجاز في آخرها، وكذا الإسهاب بالإسهاب، قال - رحمه الله: «إن آية لقمان تقدمها التنبيه على الاعتبار بها بقوله: ﴿الَّذِي تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ فعضف بواو النسق المقتضية الجمع بحسب ما اقتضاه مقصوده، فناسب طوله الجر بما يناسبه مما لا يخرج عن معنى اللام الجارة، وهو «إلى»، ولما بنيت الآيتان بعد على إيجاز ليس في آية لقمان، ناسبه الجر باللام؛ اكتفاء بما يحرز المعنى المقصود ويناسب التركيب، وورد كل على ما يناسب أتم المناسبة»^(٢).

أما الخطيب الإسكافي، فكان أكثر دقة في كشف النكته البلاغية في ذلك، حيث قال: «وإنما خص ما في سورة لقمان بـ«إلى» التي للانتهاء، واللام تؤدي معناها؛ لأنها تدل على أن جريها لبلوغ

(١) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله، المعروف بـ«الخطيب الإسكافي» من أهل أصبهان من الأدباء الكتاب. توفي سنة ٤٢٠هـ، له: مبادئ اللغة، ولطف التدبير، ودرة التنزيل، وغيرها. ينظر: «معجم الأدباء»: ٢١٤/١٨، بغية الوعاة: ٢/١٤٩.

(٢) ملاك التأويل: ٢/٩٤٣-٩٤٤، بتصرف واختصار.

الأجل المسمى؛ لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة، فقبلها ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسٍ وَوَجِدَةٍ ﴾ ، وبعدها ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُقَارَ رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ ، فكان المعنى: كل يجري إلى ذلك الوقت، وسائل المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق، وهو قوله: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض، وابتداء جري الكواكب، وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية فاخص ما عند ذكر النهاية بحرفها، واخص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها» (١) .

إن تعدية الفعل باللام ينبئ عن غرض خاص للشمس والقمر، فهما في جري وسعي لا يفتران، في حركة منتظمة دؤوب؛ لتدرك غايتها بعد ذلك، وتعديته بـ«إلى» ينبئ عن توقف حركتهما ببلوغهما هذا الأجل والمستقر؛ وذلك يلائم حديث الآخرة، إيداناً ببدء حياة أخرى وعالم آخر .

(١) درة التنزيل: ٣٧٤-٣٧٥.

١٤- قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (١).

اللام في قوله: «أحسنتم لأنفسكم» للاختصاص، أي: إن نفع هذا الإحسان من الثواب والأجر راجع لكم مختص بكم، وجاء على طريقة التجريد، بأن جعلت نفس المحسن كذات أخرى يحسن إليها (٢).

أما اللام في قوله: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، فللمفسرين والمعربين أقوال في معناها (٣).

أحدها: أنها بمعنى «على»؛ حملاً على نظائره في القرآن، كقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (٤)، وقوله: ﴿فَمَنْ أَهْتَكَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (٥)، أي: فالإساءة عليها؛ لما يترتب على ذلك من العقاب، وعبر باللام مشاكلة لما قبلها.

الثاني: أنها بمعنى «إلى»، أي: فإساءتها راجعة إليها، كقوله

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧.

(٢) ينظر: الكشاف: ٤٣٩/٢، روح المعاني: ٢٤/١٥، التحرير والتنوير: ٣٥-٣٤/١٥.

(٣) ينظر: الحاشية السابقة، مع: التبيان في إعراب القرآن: ٨١٣/٢، الإتيان: ٥٤١/١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٤١.

تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝﴾^(١)، أي: أوحى إليها.

الثالث: أنها للاستحقاق، كهي في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝﴾^(٢).

الرابع: أنها للنفع، كالأولى على سبيل التهكم.

الخامس: أنها للاختصاص على بابها، وهذا هو الراجح عندي، فقد جاءت الآية بعد الحديث عن بني إسرائيل؛ لتدل على أن إحسانهم أو إساءتهم - والخطاب يشمل غيرهم - لأنفسهم، لا ينتفع بأعمالهم ولا يضر بها غيرهم.

١٥- قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تُوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلْنَ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝﴾^(١٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝﴾^(١٨) ﴿١٩﴾^(٣).

هذه الآية يستدل بها النحويون^(٤) على مجيء اللام بمعنى «على»؛

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠.

(٣) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧-١٠٩.

(٤) ينظر: الجنى الداني: ١٤٦، مغني اللبيب: ٢١٢/١، رصف المباني: ٢٩٧، الإتقان:

لأنه كما قال البطليوسي: «جرت العادة بأن يقال: سقط على رأسه وعلى صلاه أو قفاه، وإنما جاز استعمال اللام هنا؛ لأنه إذا سقط على عضو من أعضائه، فقد حصل التقدم لذلك العضو على كل ما تبعه من بقية الأعضاء، فإذا قال سقط لفيه، فكأنه قال: سقط مقدماً لفيه»^(١)، هذا ما يراه البطليوسي سبباً في استعمال اللام مكان «على». وذهب الزمخشري إلى أنها لام الاختصاص، مفسراً معناها بقوله: «فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت: خر على وجهه وعلى ذقنه فما معنى اللام في خر لذقنه ولوجهه؟ قلت: معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به؛ لأن اللام للاختصاص»^(٢)، ويرى أبو السعود أن إيثار اللام الدالة على الاختصاص، تعليل لما يفهم من قوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ من عدم المبالاة بذلك، أي: إن لم تؤمنوا به، فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم، ويجوز أن يكون تعليلاً لـ«قل» على سبيل التبسية لرسول الله ﷺ كأنه قيل: تسل بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة، ولا تكثرث بإيمانهم وإعراضهم^(٣)، وأجرى ابن عاشور استعارة تبعية في اللام بقوله: «وأصل هذه اللام أنها استعارة تبعية،

(١) الاقتضاب ٢/٢٧٦.

(٢) الكشاف: ٢/٤٧٠.

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود: ٥/١٩٩.

استعير حرف الاختصاص لمعنى الاستعلاء؛ للدلالة على مزيد التمكن، كتمكن الشيء بما هو مختص به» (١).

إن الخار على ذقنه أو وجهه ينكب على الأرض بلا وعي، لا يملك تقديم عضو أو تأخير، بخلاف الساجد لله شكراً وتعبداً مما في نفسه من تعظيم الله وإجلاله، فتقبل نفسه على السجود، جاعلاً ذقنه لاصقاً مختصاً بالأرض في أقرب حال لربه، لذا فقد نهى الله عباده المؤمنين عن الانكباب على الشيء بلا وعي، والتردي إليه دون شعور، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٢).

١٦ - قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٣).

صحب موسى - عليه السلام - الخضر، فرأى منه عجائب، من خرق السفينة، ثم قتل الغلام، ثم بناء الجدار لتلك القرية التي لم يضيفهم أهلها، فكانت منه معارضة في المرة الأولى بعد أن عاهد الخضر على الصبر والتثبت، ثم عاد مرة أخرى فعاهده، فلما قتل النفس الزكية بغير نفس، غضب موسى لهذا أشد الغضب، فكان جواب الخضر له مفايراً لما أجابه في الأول، حيث قال: ﴿قَالَ أَلَمْ

(١) التحرير والتنوير: ٢٣٣/١٥-٢٣٤.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٣.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٧٢.

أَقْلَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١﴾ ، فَلَمَّ جَاءَتِ اللَّامُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ
دُونَ الْأُولَى؟

ذهب الزمخشري ^(٢) وأبو السعود ^(٣) والإسكافي ^(٤) والآلوسي ^(٥)
إلى أن اللام زيدت عتاباً لرفض موسى - عليه السلام - الوصية
بالصبر والتثبت في المرة الثانية، فلما لم يرعو بالتذكير، زاد في
النكير عليه في المرة الثانية، فكأنه قال: ألم يكن خطابي لك
دون من سواك، لهذا جاءت اللام في الثانية دون الأولى التي لم
تتأكد حجة الخضر فيها كتأكدها في الثانية. وهذا يتفق مع
القاعدة المشهورة: «أن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في
المعنى» ^(٦)، فلما كان إنكار موسى في الأولى أقل، ولم تقم عليه
الحجة كحاله في المرة الثانية، مع استنكاره الشديد، كما يدل
قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ ، جاءت اللام لتوحي بدلالاتها على
زيادة في المعنى الذي اقتضاه المقام والحال ^(٧).

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٥.

(٢) ينظر: الكشاف: ٤٩٤/٢.

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود: ٢٣٦/٥.

(٤) ينظر: درة التنزيل: ٢٨٥.

(٥) ينظر: روح المعاني: ٢/١٦.

(٦) ينظر: الخصائص: ٢٦٤-٢٦٩/٣.

(٧) ينظر: ملاك التأويل: ٧٨٩/٢.



ويرى ابن عاشور أن هذه اللام لام التبليغ، وهذا يؤكد بدقة ما سبق حيث قال: واللام في «لك» لام التبليغ، وهي التي تدخل على اسم أو ضمير السامع لقول أو ما في معناه، نحو: قلت له، وأذنت له، وفسرت له، وذلك عندما يكون المقول له الكلام معلوماً من السياق، فيكون ذكر اللام لزيادة تقوية الكلام وتبليغه إلى السامع، ولذلك سميت بلام التبليغ، ألا ترى أن اللام لم يحتج لذكره في جوابه أول مرة ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، فكان التقرير والإنكار مع ذكر لام تعدية القول أقوى وأشد^(١).

١٧- قال تعالى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾^(٢).

الفعل «عرض» يتعدى باللام وب«على» وبنفسه^(٣)، يقول

الراغب: وعرضت الشيء على البيع، وعلى فلان، ولفلان، نحو

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ عَرَضْنَاهُمْ عَلَى الْمَلَيْكَةِ ﴾^(٤)، وقوله: ﴿ وَعَرَضُوا

عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ﴾^(٥)، وقوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾^(٦)، وقوله:

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾^(٧)، فما السر في

تعدية الفعل باللام في هذه الآية؟

(١) التحرير، والتنوير: ٥/١٦.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٠.

(٣) ينظر: معجم الأفعال التعدية بحرف: ٢٢٣-٢٣٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٤٨.

(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٧) سورة الكهف، الآية: ١٠٠.

(٨) المفردات: ٣٣٠.

من المفسرين من يرى أن هذا من تناوب حروف الجر، فاللام بمعنى «على» في الآية سواء بسواء^(١)، لكن الصحيح أن اللام في الآية للاختصاص، والمعنى: عرضنا جهنم، أي أبرزناها وأظهرناها لأجلهم خاصة حين يشرفون عليها وقد سيقوا إليها، فيعلمون أنها المهيئة لهم، فشبه بذلك العرض تهكماً بهم؛ لأن العرض إظهار ما فيه رغبة وشهوة، ولو كانت التعدية بـ«على» في الآية، لفهم منه إلقاؤهم في النار وإحراقهم بها، فكانت التعدية باللام لإبراز النار وإظهارها لهم، وهو ضرب من التعذيب النفسي لهم، وإلقاء الرعب والخوف منها قبل دخولها^(٢).

١٨ - قال تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٣).

من أنواع الصبر: الصبر على طاعة الله، واحتساب الثواب من الله وحده. وفي الآية هنا عدي الفعل باللام «واصطبر لعبادته»، مع أنه عدي في موضع آخر بـ«على»، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾^(٤)،
فما السر في مغايرة هذه التعدية؟

(١) ينظر: البحر المحيط: ١٥٦/٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ١٥٦/٦، روح المعاني: ٤٥/١٦، التحرير والتنوير: ٤٢/١٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٤) سورة طه، الآية: ١٣٢.



يكاد يجمع من تكلم^(١) في هذا مع اختلاف يسير في الألفاظ على أن السبب في ذلك: أن العبادة لما جعلت بمنزلة القرن^(٢)، في قولك للمحارب: اصطبر لقرنك، أي: أثبت له فيما يورد عليك من شدته، أريد أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاقاً، فاثبت لها ولا تهن، فالعبادة لها مراتب كثيرة، تحتاج إلى مجاهدة النفس، وقد يغلب بعضها بعض النفوس، فتستطيع الصبر على بعضها دون بعض، والمستقيم حقاً من ثبت على ذلك.

أما آية طه، فإن الأمر بالاصطبار خاص بالصلاة وهو لا يتطلب مجاهدة كتلك المجاهدة مع العبادات كلها مجتمعة.

١٩- قال تعالى: ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَأَسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١٣) ﴿٣﴾.

هذه الآية خطاب من الله لموسى - عليه السلام - كي يتحمل الأمانة ويبلغ الرسالة، وتعدية الفعل «استمع» باللام له دلالة في تقوية المعنى، وتدل كذلك على إثارة المسموع بالقبول والإصغاء له، واختصاصه بالاستجابة والانقياد له^(٤).

(١) ينظر: الكشاف: ٥١٧/٢، تفسير أبي السعود: ٢٧٤/٥، روح المعاني: ١١٥/١٦.

١١٦، التحرير: والتنوير: ١٤٢/١٦-١٤٣.

(٢) القرن: الكفء في الشجاعة. القاموس «قرن» ٢٥٨/٤.

(٣) سورة طه، الآية: ١٣.

(٤) ينظر: روح المعاني: ١٧١/١٦، التحرير والتنوير: ١٩٩/١٦.

وقد قيل ^(١) : إن أدب الاستماع: سكون الجوارح، وغيض البصر والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع لما يحبه الله تعالى ^(٢) .

٢٠- قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ^(٣) .

الفعل «رضي» تعدى في القرآن بنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ ^(٤) ، وتعدى بـ«عن» كقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ^(٥) ، وتعدى بالباء، كقوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ ^(٦) ، وتعدى بـ«من» كقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِحَكْرَةٍ عَنْ تَرْضَى مِنْكُمْ﴾ ^(٧) ^(٨) ، وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ،

تعدى فيه الفعل باللام، فما السر في الإتيان باللام في الآية؟

إن دخول اللام على الضمير تؤذن باختصاصه بهذا الأمر العظيم

(١) ينظر: روح المعاني: ١٦ / ١٧١ .

(٢) وانظر في هذا الموضوع: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، وتذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة الكتاني.

(٣) سورة طه، الآية: ١٠٩ .

(٤) سورة النمل، الآية: ١٩ .

(٥) سورة المائدة، الآية: ١٩١، سورة البينة، الآية: ٨ .

(٦) سورة التوبة، الآية: ٨٧ .

(٧) سورة النساء، الآية: ٢٩ .

(٨) ينظر: المفردات ١٩٧، معجم الأفعال المتعدية بحرف ١٢٩ .



في ذلك الموقف العصيب، وهو ما يستدعيه مقام المأذون له بالشفاعة وحظوته عند ربه، حيث يسمع شفاعته، لا شفاعة غيره، ويستجيب له حين لا يستجيب لسواه، وهذا عنوان كرامة الشافع عند الله واختصاصه بهذا الشرف الرفيع، فقد رضي قوله لأجله، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١)، فإن الله ما أذن للشافع بأن يشفع إلا وقد أراد قبول شفاعته (٢).

إن هذا السر البياني والنكته البلاغية فيما تحملته اللام من هذه المعاني، يفوت في كلام الفراء الذي جعل اللام في الآية بمعنى «من»، حيث قال: «رضي له قولاً، كقولك: رضي منه عمله. وقد يقول الرجل: قد رضيت لك عملك ورضيته منك» (٣).

٢١- قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (٤).

هذه الآية إنذار وتخويف لقرب موعد الجزاء والحساب، مما ينبغي له الاستعداد والتأهب، وأخذ الحيطة والحذر، لا الغفلة

(١) سورة الشرح، الآية: ١.

(٢) ينظر: الكشاف ٢/ ٥٥٤، البحر المحيط: ٦/ ٢٨٠، روح المعاني: ١٦/ ٢٦٥، التحرير والتنوير ١٧/ ٨-٩.

(٣) معاني القرآن: ٢/ ١٩٢.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١.

والإعراض والنكوص على الأعقاب، وقد اجتمعت في الآية عدة أمور أكسبتها قوة في المعنى وزيادة في الإنذار والتخويف.

- فالفعل «قرب» و«اقترب» بمعنى واحد في الأصل، لكن زيادة التاء في الثاني أفادت زيادة في معناه، وهو القرب المتوقع نزوله على غرة أو بين عشية وضحاها^(١).

- مجيء لام الاختصاص في «للناس»، مما يؤكد إضافة الحساب إليهم، مما ينادي بمزيد من التخويف والمبالغة في التحذير، كما تقول: أذف رحيل الحي، فإذا أردت الاختصاص والمبالغة، قلت: أذف للحي رحيلهم^(٢).

- تقديم الجار والمجرور «للناس» على الفاعل، وفي ذلك مسارعة إلى إدخال الروعة عليهم، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجاً من المقترب^(٣).

- إسناد الاقتراب للحساب، وهي استعارة تمثيلية، شبه حال إضلال الحساب لهم بحالة شخص يسعى ليقرب من ديار ناس، ففيه تشبيه هيئة الحساب المعقولة بهيئة محسوسة،

(١) ينظر الكشاف ٢/٥٦١، روح المعاني ١٧/٢-٣، التحرير والتنوير ١٧/٨-٩.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٦/٢٩٦، التحرير والتنوير: ١٧/٨-٩.

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود ٦/٥٣.



وهي هيئة المغير والمعدل في الإغارة على القوم، فهو يلج في السير تكلفاً للقرب من ديارهم، وهم غافلون عن تطلب الحساب إياهم، كما يكون قوم غارين معرضين عن اقتراب العدو منهم^(١).

٢٢- قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾^(٢).

هذه الآية ونظائرها في المعنى، كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكَ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾، وغيرها. يستدل بها على أن اللام فيها بمعنى «في» في الظرفية، كما أنه قيل: إن اللام في الآيات السابقة للتعليل، أي: لأجل يوم القيامة والجزاء فيه. وقيل: بمعنى عند للتوقيت، كما يقال: كتبت لثلاث خلون من شهر كذا، أي: عند ثلاث. كما قيل: بأنها للاختصاص؛ إبقاءً على معناها الأصلي^(٦)، وهذا هو

(١) التحرير والتنوير: ١٧/٨-٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩.

(٤) سورة التغابن، الآية: ٩.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

(٦) ينظر لهذه الأقوال: معاني القرآن للفراء: ١/٢٠٢، الكشاف ٢/٥٧٤، تفسير أبي

السعود ٦/٧١، روح المعاني: ١٧/٥٥، التحرير والتنوير: ١٧/٨٤.

الراجع عندي، فكل الآيات السابقة جاءت اللام فيها مؤكدة اختصاص اليوم بالجزاء، وما يستتبعه ذلك من الوعيد والتهديد بما ينتظر الكافرين من سوء الحساب، ولو جاءت «في» في الآيات السابقة بدل اللام، لفسد النظم واختل التركيب، وفقدت اللام وما يصحبها من تأكيد اختصاص ذلك اليوم بالحساب والجزاء، وما يثيره هذا الاختصاص من الرعب والفرع في نفوس المجرمين، ويجسد أمام أعينهم ما سينالونه ويجازون به. بخلاف «في» التي توحى بميعاد الجمع وزمانه فقط، دون المعاني الأخرى التي أضفتها لام الاختصاص على النظم القرآني. وقد أوضح الطبري هذا الفرق بين الحرفين، وكشف عن دلالتيهما في قوله: «فإن قال قائل: وكيف قيل: فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه، ولم يقل في يوم لا ريب فيه؟ قيل: لمخالفة معنى اللام في هذا الموضع معنى «في»؛ وذلك أنه لو كان مكان اللام «في»، لكان معنى الكلام: فكيف إذا جمعناهم في يوم القيامة ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب؟ وليس ذلك المعنى في دخول اللام، ولكن معناه مع اللام، فكيف إذا جمعناهم لما يحدث في يوم لا ريب فيه، ولما يكون في ذلك اليوم من فصل الله القضاء بين خلقه، ماذا لهم حينئذ من العقاب وأليم العذاب. فمع اللام في (ليوم لا ريب فيه) نية فعل وخبر

مطلوب قد ترك ذكره أخيراً بدلالة دخول اللام في «ليوم» .. وليس ذلك مع «في»، فلذلك اختيرت اللام، فأدخلت في اليوم «دون في»^(١).

٢٢- قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (٥٢)^(٢).

جاءت تعدية العكوف في موضع آخر من القرآن بـ«على»، قال تعالى: ﴿وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨)^(٣)، فما السبب في تغاير تعدية الضلعين؟

الآية الأولى إنكار من إبراهيم - عليه السلام - على قومه الذين عكفوا على عبادة هذه التماثيل من دون الله، المستحق لأن يعبد وحده دون سواه، وفي الإتيان بالجملة الاسمية: «أنتم لها عاكفون» ما يدل على دوامهم على ذلك واستمرارهم عليه.

واختلفت أقوال المفسرين^(٤)، في هذه اللام، فقيل: إنها لام البيان، وقيل: إنها لام التعليل، وقيل: إنها بمعنى «على»، وقيل:

(١) جامع البيان «تفسير الطبري» ١٤٧/٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

(٤) ينظر: البحر المحيط: ٦/٣٢٠، تفسير أبي السعود ٦/٧٢، روح المعاني: ١٧/٥٩،

التحرير والتنوير: ١٧/٩٥.

ضمن الفعل معنى العبادة؛ للدلالة ما بعدها ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ ، وقيل: إنها للاختصاص، وهذا هو الأرجح عندي، وأوثر في الآية دون «على»؛ للدلالة على أن قوم إبراهيم لم يكتفوا بعبادتها، بل جعلوا أنفسهم لها خاصة يدافعون عنها، ويدودون عن كرامتها وشرفها، فأخلصوا أنفسهم لحرب من يعاديها ويتناول عليها أو يسيء إليها، ويدل على ذلك أيضاً تعدي الفعل «عابدين» باللام، وتقديم الجار والمجرور، مما يدل على عظيم رغبتهم في عبادتها، وعدم الانفكاك عنها، وحرب من عاداها، كما يشهد لذلك موقفهم مع إبراهيم بعد ذلك.

أما آية الأعراف، فقد أريد وصف هؤلاء بانكبابهم على عبادتها ولزومها، دون قصد المعاني الأخرى الزائدة على معنى العكوف الذي أضعفته اللام بدلالته على النظم القرآني.

٢٤- قال تعالى: ﴿ فَالْقَلْبَةُ ءَأَلٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ ^(١).

للمفسرين ^(٢) ، في اللام في قوله: «ليكون» قولان:

أحدهما: أنها لام العاقبة والمآل والسيرورة، والمعنى: فالتقطه آل

(١) سورة القصص، الآية: ٨.

(٢) ينظر: تنزيه القرآن عن المطاعن ٣٠٨، الكشاف ١٦٦/٣، البحر المحيط: ١٠٥/٧،

تفسير أبي السعود ٤/٧، روح المعاني: ٤٦/٢٠، التحرير والتنوير: ٧٥/٢٠-٧٦.



فرعون فكان لهم عدواً وحرزناً، وزال ملكهم وقوضت حكومتهم على يديه، ويرى العز بن عبدالسلام^(١)، أن الظاهر من تسمية هذا اللام بلام العاقبة أو الصيرورة، أن القائلين بها يخرجونها عن معنى الاختصاص الذي هو أصل معناها، ويرونها غير لام التعليل؛ لأن لام التعليل تدخل على ما هو غرض لفاعل الفعل، ويكون مترتباً على الفعل، وليس في لام الصيرورة إلا الترتيب فقط^(٢).

الثاني: أنها لام التعليل، كقولك: جئتكَ لتكرمني، ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريقة المجاز؛ لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدواً وحرزناً، لكن المحبة والتبني، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله.

وقد أجرى ابن عاشور الاستعارة في الآية بقوله: «شبهت العاقبة بالعلة في كونها نتيجة للفعل، كشأن العلة غالباً، فاستعير لترتيب

(١) الفوائد في مشكل القرآن: ١٣٨.

(٢) ينظر: رصف المباني: ٣٠١، شرح التسهيل لابن مالك: ١٤٦/٣، الجني الداني: ١٦٠،

مغني اللبيب: ٢١٤/١.

العاقبة المشبهة الحرف الذي يدل على ترتب العلة، تبعاً لاستعارة معنى الحرف إلى معنى آخر استعارة تبعية، أي: استعير الحرف تبعاً لاستعارة معناه ..»^(١). وجعل الألوحي هذه الاستعارة تهكمية^(٢).

فألله قادر على كل شيء، أراد إذلال فرعون وزبانيته الذين ملؤوا الأرض جوراً وظلماً، سفكاً لدماء الأبرياء، وانتهاكاً لأعراض العفيفات، واستخداماً للأحرار، فالتقطوا هذا الطفل الرضيع، وكانهم يعلمون أن نهايتهم المحتومة ستكون على يديه، وهذا إبراز لكمال قدرة الله تعالى ونفاذ أمره.

٢٥- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾^(٣).

هذه الآية تصوير لاستجابة إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - لأمر الله، وتنفيذ حكمه جل وعلا طواعية له، دون تلكؤ أو تردد، بل استسلام لأمر الله ورضى بقدره وأمره، وقد استدل بهذه الآية من يرى أن اللام تأتي بمعنى «على»، أي: تله على جبينه^(٤)، والأقرب أنها لام الاختصاص والاتصال، فقد صرع شقه على الأرض، بحيث يباشر جبينه الأرض من شدة الاتصال

(١) التحرير والتنوير: ٧٥-٧٦/٢٠.

(٢) ينظر: روح المعاني: ٤٦/٢٠.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠٣.

(٤) ينظر: الجنى الداني: ١٤٧، مغني اللبيب: ٢١٢/١، الإنقان: ٥٤١/١.



بصبر وجلد؛ ليرضيا الله، ويخزيا الشيطان؛ امتثالاً لأمر الله ورضى بقضائه وقدره (١).

٢٦- قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ (٢).

يستدل بهذه الآية من (٣) يرى مجيء اللام بمعنى «عن» في «للذين آمنوا»، أي: عن الذين آمنوا، وقد ذهب بعضهم إلى أن اللام في الآية للتعليل متعلقة بمحذوف حال من الذين كفروا، تقديره: مخصصين أو مریدين، كاللام في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يَمُنِّي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٤). وقيل: إنها لام التبليغ لتعدية فعل القول إلى المخاطب.

والصحيح أنها لام الاختصاص، كما ذهب إلى ذلك آخرون (٥). واختيار التعدية باللام دون «عن» مع صحتها، له دلالة على بلاغة النظم القرآني بما يتلاءم والغرض الذي يهدف إليه، فرد المشركين

(١) ينظر: الكشاف: ٣/٣٤٨، تفسير أبي السعود: ٧/٢٠١، التحرير والتنوير: ٢٣/١٥٣.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١١.

(٣) ينظر: الجنى الداني: ١٤٦، مغني اللبيب: ١/٢١٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.

(٥) ينظر لهذه الأقوال: الكشاف ٣/٥١٩، البحر المحيط: ٨/٥٩، تفسير أبي السعود:

٨/٨١، روح المعاني ٢٦/١٤، التحرير والتنوير: ٢٦/٢٢.

في هذه الآية يحمل معاني الاستخفاف بالمسلمين، والتحقير من شأنهم، فكان من صلفهم وكبريائهم أن ترفعوا عن خطاب المؤمنين، فعدلوا إلى أسلوب الغيبة؛ صوناً لأنفسهم عن مواجهة من هم دونهم على زعمهم، وهو ضرب من الالتفات جاء في القرآن الكريم؛ لإبراز صورة التعالي والغطرسة ونظرة الاستخفاف التي كان يرمق بها المشركون ضعفاء المسلمين، ولو لم يكن هناك التفات، لقل: لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه.

والإتيان باللام للدلالة على الحوار بينهم وبين المسلمين، وهي تحمل كذلك اختصاص خطابهم لمن وجه إليه من المؤمنين، ولو كان الأسلوب: وقال الذين كفروا عن الذين آمنوا، لكان حديثاً عن الذين آمنوا، لا حواراً بينهم، وهو المقصود إبرازه في الآية^(١).

٢٧- قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢)

في هذه الآية نهي للصحابة - رضي الله عنهم - أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي، كما هو المعتاد في مخاطبة الأقران والنظر، فوجب كون أصواتهم دون صوته ﷺ بخفضها ولينها،

(١) ينظر: روح المعاني: ١٤/٢٦، التحرير والتنوير: ٢٢/٢٦.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٢.



مراعين جلال النبوة ورفعة قدرها، ومن هنا قال أبو بكر - رضي الله عنه: «والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله، لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله تعالى»^(١).

وقد عدي الفعل «ولا تجهروا» باللام «له»، معلماً الصحابة أدب الحديث مع رسول الله ﷺ، مع الشهادة لهم بأن ما حدث منهم من رفع الصوت والجهر به لم يقصدوا به إيذاء الرسول ﷺ أو الاستعلاء عليه، وهذا المعنى يفوت عندما نقول: إن اللام بمعنى «على»^(٢)، أي: ولا تجهروا عليه؛ إذ تفيد الاستعلاء على الرسول ﷺ والترفع عليه، وهذا ما لا يليق بحضرته ولم يكن ليصدر منهم، والأمر كما قال أبو حيان: «ولم يكن الرفع والجهر إلا ما كان في طباعهم، لا أنه مقصود بذلك الاستخفاف والاستعلاء؛ لأنه كان يكون فعلهم ذلك كفراً، والمخاطبون مؤمنون»^(٣). ويدل لهذا أن الآية صدرت بـ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فلم تنف عنهم الإيمان أو تطعن فيه، وفي آخر الآية: (وأنتم لا تشعرون)، مبينة أن ذلك لم يكن عن قصد وتعمد^(٤).

(١) ينظر: البحر المحيط: ١٠٦/٨، روح المعاني: ١٣٥/٢٦.

(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٥٦٩.

(٣) البحر المحيط: ١٠٦/٨.

(٤) ينظر: روح المعاني: ١٣٥/٢٦، التحرير والتنوير: ٢٢١/٢٦.

٢٨- قال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَعْصَبِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَعْصَبِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ (١).

هاتان الآيتان بيان لحال الصنف الثاني من الأصناف الثلاثة المذكورة في هذا المقطع: المقربون، أصحاب اليمين، المكذبون الضالون وذلك عند القيامة الصغرى، والقدوم على الله تعالى.

وتعدية «السلام» باللام للتويه بهم وعلو مرتبتهم، وخلصهم من المكدرات والشواغل، فاللام لها دلالتها الدقيقة في ذلك؛ لتذهب نفس السامع في ذلك كل مذهب (٢).

وفي موضع آخر عدي «السلام» بـ«على» فيما يشبه هذه الحال، قال تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ وَهِيَ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٣)، وقد كشف ابن القيم سر المغايرة في هذه التعدية، فقال: «فاعلم أن لفظ: سلمت عليه، وصلت عليه، موضوعها ألفاظ هي جمل طلبية، وليس موضوعها معاني مفردة، فقولك: سلمت، موضوعه: قلت: السلام عليك وإذا ثبت هذا، فقولك: سلمت عليه، أي: ألقيت عليه هذا اللفظ وأوضعت عليه، إيذاناً باشتمال معناه عليه، كاشتمال لباسه عليه، وكان حرف «على» أليق الحروف به فتأمله.

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٩٠، ٩١.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود: ٢٠٢/٨، التحرير والتنوير: ٣٤٨/٢٧.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿١٠﴾ فَسَلِّمْ لَهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿١١﴾﴾ ، فليس هذا سلام تحية، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه، كما قال: ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٨﴾﴾^(١)، ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ نُوحٍ ﴿٢٢﴾﴾^(٢)، ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله، فذكر أنهم ثلاثة أقسام: مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم، ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة، فوعده بالسلامة، ووعده المقرب بالغنيمة والفوز، وإن كان كل منهما سالماً غانماً، وظالم بتكذيبه وضلاله، فأوعده بنزل من حميم وتصلية جحيم، فلما لم يك المقام مقام تحية، وإنما هو مقام إخبار عن حاله، ذكر ما يحصل له من السلام^(٣).

فالكلام إنما هو إخبار من جهته تعالى بحصول السلامة لهم، لا حكاية إنشاء سلام بعضهم على بعض، وإلا ل قيل: فسلام عليك.

٢٩- قال تعالى: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَلْعَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٢٣﴾﴾ يقول يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾^(٤).

استدل بقوله تعالى: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ من يرى أن اللام بمعنى «في»^(٥)، كما قيل: بأنها لام التعليل، أي: يا ليتني قدمت الأعمال

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٧٩.

(٣) بدائع الفوائد: ١٤٦/٢.

(٤) سورة الفجر، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٥) ينظر: الجنى الداني: ١٤٥، مغني اللبيب: ١/٢١٣، الإتقان: ١/٥٤١.

الصالحة لأجل أن أحيا في هذه الدار الآخرة الباقية، الحياة الكاملة السالمة من العذاب، قال ذلك لأنه لا يموت ولا يحيا^(١)، والآية تعبر عن حال المفرط الكافر، وتعطي بجلاء صورة دقيقة عما امتلأت به نفسه من الحسرة والندم على ما فرط في دنياه، وتحصيل العمل الصالح لهذه الحياة الأبدية. وقد جاءت اللام الدالة على الاختصاص؛ لتكشف بحق عن حال تلك النفس المخطئة المفعمة بكل معاني الأسى والحزن، ولات حين مندم في ذلك اليوم، يوم الحساب والجزاء^(٢). ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٣).

٣٠- قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾^(٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا^(٥).

تباينت أقوال المفسرين في معنى اللام في قوله: «أوحى لها»، فقيل: هي بمعنى «إلى» حيث تعدى الفعل «أوحى» في مواضعه في القرآن بـ«إلى» عدا هذا الموضع^(٥)، وقيل: اللام للتعليل، أي: أوحى

(١) ينظر: روح المعاني: ٤٦١/٣٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٣٩/٣٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.

(٥) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ١٢٩٩/٢، الكشاف: ٢٧٦/٤، تفسير أبي السعود:



من أجلها من حيث الأفعال فيها ^(١) ، وقيل: ضمن «أوحى» معنى «قال»، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضَ أُنْتِ يَا طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ^(٢) ، والقول المضمن هو قول التكوين، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ^(٣) ، وإنما عدل عن فعل «قال» إلى فعل «أوحى»؛ لأنه حكاية عن التكوين، لا عن قول لفظي ^(٤) .
ولعل الأقرب في الآية أنها لام الاختصاص، وإنما أوتر تعدية الفعل بها دون التعدية بـ«إلى»؛ لأمرين:

أحدهما: مراعاة فواصل الآيات، وهذا لون من ألوان الجمال اللفظي المؤثر، الذي يأخذ بالأذان والقلوب، وهو كثير في القرآن الكريم ^(٥) .

الثاني: أن الوحي في الآية وحي تسخير، واللام تعين على تحقيق هذا الغرض. وهو أمر خاص للأرض؛ ليكون ما هو من دلائل قدرة الله، ونفوذ أمره في كل شيء ^(٦) .



(١) ينظر: البحر المحيط: ٥٠١/٨ .

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١ .

(٣) سورة يس، الآية: ٨٢ .

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٤٩٣/٣٠ .

(٥) ينظر: البحر المحيط: ٥٠١/٨ .

(٦) ينظر: المفردات: ٥١٥-٥١٦ .



الخاتمة

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاماً على رسوله المصطفى ونبيه
المجتبى. وبعد:

فإن العيش مع كتاب الله عز وجل، وبذل الجهد في خدمته،
نعمة من الله تبارك وتعالى يمتن به على من يشاء من عباده، ولعلي
أكون ممن حظي بهذا الشرف العظيم والمنزلة العالية في هذا
الجهد المتواضع الذي ظهر لي بعده هذه الثمار اليانعة والنتائج
الحميدة:

- بانث لي بعض الفروق وأسبابها بين الآيات المتشابهة، وما
أضفاه كل حرف من بديع الأسلوب، ودقة المعنى، ولطيف
الكلم في هذه الآيات.

- هذه الدراسة الموجزة ضمن سلسلة بيان إعجاز القرآن من
حيث لفظة وبلاغته، فهو أفصح الكلام وأبلغه؛ لأنه كلام
رب العالمين القائل فيه ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

- وجوب العناية بالكلمة بجميع أجزائها، فقد وقفنا سوياً على
فوارق دقيقة في دلالات بعض الحروف، بحيث لو جعل حرف
آخر يشبهه مكانه، لم يكن وقاؤه بالمعنى، وإحكام دقته
كحاله.

- مثل هذه الدراسات لفهم كلام الله عز وجل، والوقوف على أسراره ونكاته البلاغية ولطائفه البيانية، لا يكفي من أجلها تعلم النحو فقط وحفظ قواعده، بل لا بد مع ذلك من إبحار في معاني الكلام، وفهم عميق لدلالات الحروف وأسرارها البلاغية في النظم القرآني.
- من أجل تكامل مثل هذه الدراسات، لا بد من الاطلاع على كلام العلماء المتقدمين والمتأخرين، والإفادة مما قالوه في بلاغة هذه الآيات، وما أبرزوه من دلالات هذه الحروف وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم.
- تبين من خلال هذه الدراسة أن أشهر من تكلم في هذا المجال من المتقدمين: الزمخشري في كتابه: «الكشاف»، ثم أبو جعفر بن الزبير الثقفي في كتابه «ملاك التأويل». والرازي في التفسير الكبير ومن المتأخرين: ابن عاشور في تفسيره «التحرير والتوير» الذي يعد مفخرة زمانه، فله فيه من اللفات البلاغية والأسرار البيانية، وإظهار إعجاز كلام الله عز وجل ما ليس لغيره.
- إن مثل هذه الدراسات رد على من يزعمون اختلال النظم القرآني، لتتبع أساليبه، واختلال نصوصه، مع أن موردها واحد وفكرتها واحدة، فلم هذا التباين، والحق أن كل



حرف له دلالته ومعناه، ولا يفي بالغرض الذي سيق من أجله
سواه، وصدق ربنا القائل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ
عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢).

وبعد هذا الجهد المتواضع، أحمد الله على التيسير والتسهيل
 وإكمال ما رمته وقصدته من خدمة كتاب ربنا عز وجل، ولكم
 تمنيت أن تكون الدراسة أوسع من هذه، لكن هذا ما تيسر
 تسطيره.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





ثبت المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - تقديم وتعليق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٧٨م.
- ائتلاف النصر، لعبد اللطيف الزبيدي، تحقيق طارق الجنابي، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ / ١٩٧٦م.
- الإحكام في أصول الأحكام، لعلي بن محمد الآمدي، تحقيق سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٧م.
- ارتشاف الضرب، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق مصطفى النماس، مطبعة النسر الذهبي، مصر الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
- أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، دار الكتب العلمية لبنان.
- أسرار العربية، لأبي البركات عبدالرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق محمد بهجت البيطار، مطبعة الترقى بدمشق: ١٣٧٧هـ، ١٩٥٧م.

- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، للعزيز بن عبدالسلام، المطبعة العامرة، ١٤١٣هـ.
- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الخامسة.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، لبنان، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م.
- اقتضاء الصراط المستقيم، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٦٩هـ.
- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لعبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبدالمجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.
- الأمالي الشجرية لأبي السعادات هبة الله بن علي المعروف بابن الشجري، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات عبدالرحمن بن



محمد الأنباري، بعناية محي الدين عبدالحميد، دار إحياء التراث العربي.

- الإيضاح العضدي، لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي، تحقيق حسن فرهود، دار العلوم، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٧٨م.

- الإيضاح في علل النحو؛ لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، الطبعة الرابعة، ١٤٠٢هـ.

- الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة أنس بن مالك، ١٤٠٠هـ.

- بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت.

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.

- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي، دار المعرفة، لبنان.

- البيان في غريب إعراب القرآن، لأبي البركات عبدالرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق: طه عبدالحميد طه، مراجعة،



- مصطفى السقا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- تاريخ بغداد - أحمد بن علي الخطيب البغدادي - دار الكتاب العربي - بيروت.
- تأويل مشكل القرآن، لعبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري - شرحه وفسره أحمد صقر - المكتبة العلمية بالمدينة المنورة - الطبعة الثالثة: ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٤م.
- تفسير أبي السعود - لأبي السعود محمد بن محمد العمادي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- تفسير البيان للطوسي، تحقيق أحمد بن حبيب العاملي، مطبعة النعمان، النجف ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م.
- تفسير الخازن «الباب التأويل»، علي بن محمد الشهير بالخازن، مطبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الثانية: ١٣٧٥هـ.
- التفسير الكبير، محمد بن عمر الشهير بالفخر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، الطبعة الثانية.
- تفسير المنار «القرآن العظيم»، محمد رشيد رضا، دار الفكر، الطبعة الثانية.



- تهذيب الأسماء واللغات، محيي الدين زكريا بن شرف النووي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تهذيب التهذيب، شهاب الدين ابن حجر العسقلاني، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى: ١٣٢٥هـ.
- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، دار الفكر، بيروت.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة، لبنان الطبعة الرابعة: ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- الجامع الصحيح، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، مطبعة مصطفى الباب الحلبي، الطبعة الثانية: ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني، دار الفكر، بيروت.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف: ١٤٠٣هـ.
- الجنى الداني في حروف المعاني: للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق طه محسن، مؤسسة دار الكتب: ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- جواهر الأدب في معرفة كلام العرب، لعلاء الدين بن علي الأربلي، مكتبة النهضة المصرية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.



- الجواهر المضية في طبقات الحنفية، لمحيي الدين عبدالقادر بن محمد بن أبي الوفاء القرشي الحنفي، تحقيق عبدالفتاح الحلو، مصور عن مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، دار العلوم، الرياض: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- حروف المعاني، عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق علي الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الرابعة: ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- الخزانة «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»، لعبدالقادر البغدادي، دار الباز، مكة المكرمة، دار صادر، بيروت.
- الخصائص، لأبي الفاتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت.
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبدالخالق عزيمة، دار الحديث، القاهرة.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت.



- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف الحلبي، تحقيق أحمد الخراط، دار القلم، دمشق الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- درة التنزيل وغرة التأويل، محمد بن عبدالله الخطيب الإسكافي، دار الآفاق الحديثة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٩٧٧م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.
- ديوان العباس بن مرداس، جمعه يحيى الجبوري، دار الجمهورية، بغداد: ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- الرسالة، أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق أحمد شاكر، دار التراث بالقاهرة، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني، لأحمد بن عبدالنور المالقي، تحقيق أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية: ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحى بن العماد بن الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- شرح الألفية لابن الناظم، لأبي عبدالله بدر الدين بن مالك، تحقيق عبدالحميد عبدالحميد، دار الجيل، بيروت.
- شرح التسهيل، لجمال الدين عبدالله بن مالك الأندلسي، تحقيق عبدالرحمن السيد، ومحمد المختون، هجر، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- شرح التصريح على التوضيح، لخالد الأزهرى، دار الفكر، بيروت.
- شرح الجمل، لابن عصفور علي بن عبدالمؤمن، تحقيق صاحب أبو جناح، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- شرح الكافية الشافية، لجمال الدين عبدالله بن مالك الأندلسي، تحقيق عبدالمنعم هريدي، دار المأمون، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- شرح المفصل لموفق الدين يعيش بن يعيش، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبى، القاهرة.



- الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربي، سليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق الدكتور محمد الفاضل، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- غاية النهاية في طبقات القراء، محمد بن محمد الجزري، بعناية، ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- فصول في فقه اللغة، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
- فضل العربية، لمحمد بن رسلان، دار العلوم الإسلامية: ١٤٠٩م.
- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والسلسلات لعبد الحی بن عبد الكبیر الكتانی، بعناية إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- الفوائد في مشكل القرآن، للعز بن عبد السلام، تحقيق سيد رضوان، وزارة الأوقاف بالكويت: ١٣٨٧هـ.

- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الفكر، بيروت: ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- الكتاب، لأبي بشر عمرو بن قنبر سيبويه، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، عالم الكتب، بيروت.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة، بيروت.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبدالله القسطيني - المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة.
- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثانية: ١٩٧٩م.
- لسان العرب، لجمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، دار صادر، بيروت.
- اللامات؛ لأبي القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق مازن المبارك، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، المطبعة الهاشمية بدمشق: ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق محمد فؤاد



سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ /
١٩٨٨م.

- مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية، عناية ابن قاسم
الحنبلي، مكتبة ابن تيمية.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لعبدالحق بن غالب
بن عطية، تحقيق المجلس العلمي بفاس، توزيع مكتبة ابن
تيمية القاهرة.
- مدارج السالكين، محمد بن أبي بكر الشهير بابن القيم،
بعناية حامد الفقي، دار الفكر العربي.
- المسائل العسكرية، لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي،
تحقيق محمد أحمد مطبعة المدني، مصر الطبعة الأولى:
١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م.
- المساعد على تسهيل الفوائد، لبهاء الدين عبدالله بن عقيل،
تحقيق محمد بركات، دار الكفر، بيروت: ١٤٠٠هـ /
١٩٨٠م.
- معاني الحروف؛ لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق
عبدالفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، جدة، الطبعة
الثالثة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

- معاني القرآن، لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، تحقيق فائز فارس، دار البشير ودار الأمل، الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- معاني القرآن: لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- معجم الأفعال المتعدية بحرف، لموسى بن محمد الملياني الأحمدى، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٧٩م.
- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لعبدالله بن هشام الأنصاري - عناية محمد محي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- مفتاح العلوم، لأبي يعقوب بن محمد السكاكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة، الطبعة الأولى.
- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني،



- مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٨١هـ.
- المفصل في علم العربية، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية.
 - المقتضب؛ لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
 - مقدمة تفسير ابن النقيب، لأبي عبدالله محمد بن سليمان المشهور بابن النقيب، تحقيق زكريا سعيد علي، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ.
 - ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، تحقيق محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت: ١٩٨٥م / ١٤٠٥هـ.
 - مناهل العرفان في علوم القرآن محمد الزرقاني، دار الفكر: ١٩٨٨م / ١٤٠٨هـ.
 - من أسرار حروف الجر، محمد الخضري، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ.
 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي الأتابكي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
 - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد

المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت:
١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

- همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية، لجلال الدين
عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - تصحيح محمد بدر
الدين النعساني، دار المعرفة، بيروت.

- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي،
بعناية مس ديدرينغ، دار النشر فرانز شتايز، جمعية
المستشرقين الألمانية، الطبعة الثانية: ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأحمد بن خلكان، حققه
إحسان عباس، دار إحياء التراث العربي، دار صادر، بيروت.





فهرس الموضوعات

| | |
|----|--|
| ٥ | المقدمة |
| ٨ | الوقف على القرآن . |
| ٩ | المقدمة |
| ١٥ | المبحث الأول: أهمية الوقف وأدلة مشروعيته |
| ٢٦ | المبحث الثالث: أركان الوقف وشروطه . |
| ٣٣ | المبحث الرابع: أنواع الوقف . |
| ٣٦ | المبحث الخامس: الطرق والأساليب الداعمة للوقف |
| ٤٠ | المبحث السادس: حاجة البشرية إلى نور القرآن وهدايته . |
| ٥٣ | المبحث السابع: مشروعية الوقف في خدمة القرآن . |
| ٥٥ | المبحث الثامن: مقاصد الواقفين على القرآن |
| ٥٦ | المطلب الأول: الوقف على المدارس القرآنية: . |
| ٥٨ | المطلب الثاني: الوقف على القراء: . |
| ٦٢ | المطلب الثالث: الوقف على تعليم القرآن وتحفيظه . |
| ٦٥ | الخاتمة |



- ٦٩ ثبت المصادر والمراجع.
- ٧٥ نداء الله نبيه الكريم في آي الذكر الحكيم .
- ٧٧ المقدمة .
- ٨٣ التمهيد .
- ٨٣ المبحث الأول: رفعة قدره - عليه الصلاة والسلام - عند ربه عز وجل
- ٩١ المبحث الثاني: النداء في القرآن الكريم .
- الفصل الأول: المبحث الأول: أساليب نداء الله عز وجل نبيه - عليه الصلاة والسلام.
- ٩٧
- ٩٩ المبحث الأول: النداء بصفة الرسالة . . .
- ١٠٨ المبحث الثاني: النداء بصفة النبوة .
- ١٤٤ المبحث الثالث: النداء بصفات أخرى .
- ١٥٤ المبحث الرابع: ما قيل: إنه نداء للنبي ﷺ وهو ليس كذلك .
- الفصل الثاني: ما يعقب نداءه - عليه الصلاة والسلام - والمعاني التي تضمنها
- ١٦٣
- ١٦٥ المبحث الأول: ما يعقب النداء في القرآن الكريم
- ١٦٨ المبحث الثاني: ما يعقب نداءه - عليه الصلاة والسلام - في القرآن .



- ١٧٤ . المبحث الثالث: المعاني التي تضمنها نداؤه ﷺ .
- ١٧٩ . الفصل الثالث: خصائص نداء النبي ﷺ في القرآن .
- ١٨١ المبحث الأول: نداؤه - عليه الصلاة والسلام - بالوصف لا باسمه العلم
المبحث الثاني: التزام ندائه - عليه الصلاة والسلام - ب: (يا أيها) .
- ١٨٧ المبحث الثالث: الفرق بين ندائه - عليه الصلاة والسلام - والإخبار عنه
- ١٩١ . الخاتمة .
- ١٩٥ . ثبت المصادر والمراجع.
- ٢٠٥ تأثر أبي حيان بالفخر الرازي في تفسيره البحر المحيط واعتراضاته عليه
- ٢٠٧ . المقدمة .
- ٢١١ الفصل الأول: الإمامان الفخر الرازي وأبو حيان الأندلسي وتفسيرهما
- المبحث الأول: الإمام الفخر الرازي وتفسيره الكبير المسمى مفاتيح الغيب
- ٢١١
- ٢١١ المطلب الأول: الإمام الفخر الرازي .
- ٢١٧ المطلب الثاني: التفسير الكبير المسمى مفاتيح الغيب .
- ٢٢٦ المبحث الثاني: الإمام أبو حيان الأندلسي وتفسيره البحر المحيط
- ٢٢٦ المطلب الأول: الإمام أبو حيان الأندلسي



- ٢٣٢ . المطلب الثاني: تفسيره البحر المحيط .
- ٢٣٨ . الفصل الثاني: تأثر أبي حيان بالفخر الرازي.
- ٢٣٨ . المبحث الأول: تأثره به في المناسبات .
- ٢٤١ . المبحث الثاني: تأثره في نقل أقوال المفسرين .
- ٢٤٧ . المبحث الثالث: تأثره به في تفسير الآيات وأسلوبه في ذلك.
- ٢٦١ . المبحث الرابع: تأثره به في علم الطبيعة والهيئة والفلك .
- ٢٦٦ . المبحث الخامس: تأثره به في أصول الدين والرد على المعتزلة .
- ٢٧٣ . المبحث السادس: تأثره به في أصول الفقه
- ٢٧٧ . الفصل الثالث: اعتراضات أبي حيان على الفخر الرازي .
- ٢٧٩ . المبحث الأول: اعتراضه على منهجه في كتابة التفسير
- المبحث الثاني: اعتراضه عليه ذكر أقوال الفلاسفة في التفسير وتحذيره منهم
- ٢٨٧
- ٢٩٧ . المبحث الثالث: جهل الرازي بالنحو عند أبي حيان ورده الشديد عليه
- ٣٠٤ . المبحث الرابع: اعتراضات أخرى .
- ٣٠٩ . الخاتمة .
- ٣١٥ ثبت المصادر والمراجع .



- ٣١٩ . من أسرار الحروف في القرآن الكريم (الباء واللام) .
- ٣٢١ . المقدمة .
- ٣٢٧ تمهيد: أولاً أهمية معرفة اللغة العربية في فهم القرآن الكريم
- ٣٣٣ . ثانياً: أهمية معرفة اللغة العربية للمفسر .
- ٣٤١ الفصل الأول: «الباء» معانيها ودلالاتها في القرآن الكريم.
- ٣٤٣ . المبحث الأول: الدراسة النظرية.
- ٣٥٠ . المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية . .
- ٣٨٩ الفصل الثاني: «اللام» معانيها ودلالاتها في القرآن الكريم
- ٣٩١ . المبحث الأول: الدراسة النظرية.
- ٣٩٥ . المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية . .
- ٤٤٥ . الخاتمة .
- ٤٤٩ . ثبت المصادر والمراجع.
- ٤٦٣ فهرس الموضوعات



دراسات في القرآن وتفسيره



أ. د. بدر بن ناصر البدر

الأستاذ بقسم القرآن والحكمة - كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الطبعة الأولى

دار الحضارة



ص - ب: ١٠٢٨٢٢ الرياض ١١٦٨٥ - الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨
جوال: ٠٥٠٦٦٦٠٧٢١ - فاكس: ٢٤٨٢٠٠٤ - المبيعات والتوزيع: ٢٤١٦١٢٩ - فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨
المطبعة القريبة: تليفون ٠٢/٦١٤٢٩٢٠ - فاكس: ٠٢/٦١٤٢٩٦٠ - جوال: ٠٥٠٧٧٧٠٤٢١
بريد إلكتروني daralhadarah@hotmail.com
موقعنا الإلكتروني www.daralhadarah.com.sa

ISBN 9960-51-890-9



6 996642 440282

35 ر.س.